
منصور عبد الحكيم
500 A.M.
غُلِبَتِ الرُّومُ
ذاتُ القرونِ
http://www.kotobdown.com
الظهور الأخير للروم على الأرض
1980
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة
Ahmed Mady

غلبت الروم

ذاتُ القرونِ

من هُم القوم الذين أُطلق عليهم هذا الاسم من دون النّاس؟ هل هم الأوربيون أهل الغرب وأمريكا اليوم . . ام هم الروس سُكان روسيا بوصفهم أصحاب الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية بعد فتح العثمانيين للقسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح عام ١٤٥٣ميلاديًّا؟

تُرجِع بعض كُتب التّاريخ كلمة الرّوم إلى سُلالة بَشريّة يُطلق عليها أيضًا بنو الأصفر وهم من نسل العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السّلام، وهذا الرّأي يفصّل كلمة الرّوم من ناحيةٍ عِرقيّة، والحقيقة أنّ كلمة الرّوم هي كلمة أعمّ وتشمل النّاس الذين تجمعهم صفاتٌ أو سِماتٌ مُعيّنة كما يحملون ثقافةً توارثوها عن آبائهم وأجدادهم تختلف عن ثقافة غيرهم من الأمم كالعرب والفُرس، ويتميّز الرّوم على الأغلب ببياض بشرتهم.

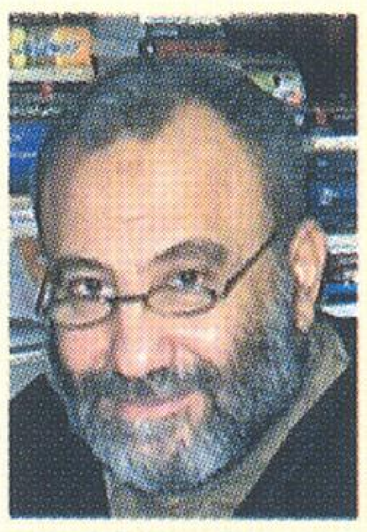
إنها أسئلة يجيب عليها هذا الكتاب الذي بين يديك.

فتقرأ فيه عن ذكر الروم في القرآن الكريم والسُّنة النبوية لتحديد من هُم الروم في عصر النبوة . . وتقرأ فيه عن أحداث آخر الزمان في أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم- ودورهم في الملحمة الكُبرى آخر الزَّمان، وتقرأ عن اصل الروم تاريخيًّا ومن هُم . . وهل هُم مِن أصول عربية والدليل على ذلك، ومَن هُم أباطرة الروم. وتقرأ عن تاريخ الأغريق وعلاقتهم بالروم وعلاقة الروم بالفُرس والصرا[illegible] وتقرأ عن تاريخ الروم والحضارة الرومانية عبر الزمان القديم والحديث.

وتقرأ [illegible] من العصور القديمة إلى العَصر الحديث والأنظمة التي شهدتها دُو[illegible] عن اتحاد الدول الأوربية الغربية وإعلان الحروب الصليبية على الشرق العربي [illegible] أوروبا في العصر الحالي وحال آخر الإمبراطوريات في العصر الحديث.

وتقرأ أيضا عن صراع الروم مع المسلمين الأوائل، وتقرأ عن أصول الروس وأجناسهم وتأسيس دولتهم وصراعهم مع المغول، و تقرأ عن الروس من حُكم القياصرة إلى حُكم البلاشِفة إلى الاتحاد الروسي الحالي.

وبعد تلك الرحلة ستعرف الإجابة عن السؤال الذي يطرحه هذا الكتاب وهو مَن هُم الروم الذين جاء ذِكرهم في أول سورة الروم (غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ)، ودورهم في المَلحمة الكُبرى القادمة آخر الزمان.



منصور عبد الحكيم

Design: Dar Alketab Alarabe
I.S.B.N. 978-977-376-951-7
3 435600 677470

Wed.
15/11/2017

1980
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

الظهورُ الأخيرُ للرومِ على الأرضِ

غُلبتِ الـرُّومُ ذاتُ القُرونِ

من هم الـروم الذيـن جاء ذكرهم في القرآن الكريم؟!

ومن هم الروم الذين سيقاتلون المسلمين آخر الزمان؟!

منصور عبدالحكيم

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ
سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ
وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ
وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾﴾

[الروم: 1 - 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله وحده نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا ندَّ له ولا شبيه له سبحانه وتعالى عما يشركون.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وصفيه من خلقه وحبيبه، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الله به الغمة وتركنا على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك، صلى الله عليه وعلى آله وسلم..

ثم أما بعد..

فقد استطاع الرومان تكوين إمبراطورية ضخمة شهد العالم أنها من أكبر الإمبراطوريات في التاريخ نشأت قبل الميلاد واستمرت إلى ما بعد الميلاد وحتى سقوط القسطنطينية عام 1453م واستطاعت السيطرة على العالم لفترة زمنية طويلة امتدت قرونًا وقرونًا مع وجود إمبراطوريات عظمى أخرى في مصر القديمة وبلاد فارس ثم الإسلامية والمغول.

وقد شهدت الحضارة الرومانية ثلاثة أنظمة للحكم وعصورًا أي ثلاثة أنواع من أنظمة الحكم هي: الملكية والجمهورية والإمبراطورية.

وكان يحكم روما منذ نشأتها ملك يتولى العرش بالانتخاب:

1- **العهد الملكي**: كان هناك مجلسان هما:

(أ) «مجلس السناتو» «الشيوخ»: يطلق عليه مجلس الشيوخ، ويطلق على أعضائه الآباء.

(ب) الجمعية الكورية: وهذا المجلس يمثل عموم الشعب، ويتكون من ثلاثين عضوًا ويهتم بالاختصاصات الدينية ولم تستطع هذه الجمعية أن تحافظ على اختصاصاتها طويلًا فجُردت منها شيئًا فشيئًا في العصر الملكي نفسه.

2- العهد الجمهوري:

عندما أسقط مجلس السناتو الحكم الملكي حيث شهدت روما تغييرًا كبيرًا في توزيع السلطات إذ حل محل الملك قنصلان متعادلان في السلطان يكون كل منهما رقيبًا على الآخر، وألغت الجمعية الكورية وأصبح توزيع الاختصاصات في هذا العهد على القنصلين ومجلس السناتو «الشيوخ»، وعرفت تلك الفترة بالعهد أو النظام الجمهوري وكان النظام الجمهوري قائمًا على:

(أ) مجلس السناتو «الشيوخ»:

ظل قائمًا طوال العهد الجمهوري في روما، وزاد عند أعضائه ليصبح ثلاثمائة عضو وقيل إنه زيد إلى ستمائة فيما بعد.

وأما عن اختصاصات المجلس فكان مختصًّا بالعلاقات الخارجية، وبعقد المعاهدات والمخالفات وإبرام الصلح وإعلان الحرب وحكم الولايات، وإدارة الأراضي العامة وتوزيعها، والإشراف على سياسة الإنفاق المالي، وقد أدى انفراد مجلس السناتو بهذه الأمور إلى إعطائه سلطانا لا يكاد يُعرف له حدود جعلته صاحب السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية.

(ب) المجلس المئوي:

مجلس استشاري يجتمع بدعوة من القنصل ولا يبحث إلا فيما يعرضه عليه مجلس السناتو «الشيوخ من أمور وعندئذ لا يستطيع أن يناقش الاقتراحات أو أن يعدل فيها بل كان ما كان يملكه أن يقبَلها أو يرفضها.

(جـ) المجلس القبلي:

سُمِّي بهذا الاسم لأن المقترعين فيه كانوا ينظمون حسب القبيلة التي ينتمون إليها، وهذا المجلس أظهر صوتَ العامة لأن العضوية فيه لم تكن على أساس الثراء، وإنما الأغنياء والفقراء سواء وزادت سلطة هذا المجلس بسبب اعتراف مجلس الشيوخ بحقوقها التشريعية.

3- العهد الإمبراطوري:

وجد النظام الإمبراطوري ويهدف إلى تمركز السلطات بيد السلطة التنفيذية وعلى رأسها الإمبراطور الحاكم المطلق وقائد الجيش الأعلى ولم يبق لمجلس الشيوخ أو السناتو إلا ظاهر السلطة، وعليه فإن هذا العهد لم يكن هناك وجود لأي من المجالس السابقة سوى مجلس السناتو أو الشيوخ.

ومن خلال بحثنا هذا سوف نتعرف على تاريخ الرومان الذين سيكون لهم دور هام في أحداث آخر الزمان ومن هم الروم الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم في سورة الروم وفي الأحاديث النبوية الصحيحة والآثار والتاريخ، وهل الأوربيون الحاليون هم الروم المشار إليهم في سورة الروم؟

إنه موضوع يحتاج إلى البحث في أصول الرومان قديمًا وحديثًا للوصول إلى الحقيقة.

نسأل الله أن يعيننا ويوفقنا على إخراج هذا العمل على الوجه الذي يرضيه ويتقبله منَّا ويجعله في ميزان حسناتنا يوم القيامة إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

منصور عبد الحكيم محمد عبدالجليل

mansor2455@yahoo.com

القاهرة 2015م

1 الروم في القرآن، والسُّنة النبوية

- ذكر الروم في القرآن الكريم.
- ذكر الروم في السُّنة النبوية.
- هلاك قرون الروم آخر الزمان، في السنة النبوية.

ذكر الروم في القرآن الكريم والسُّنة النبوية

جاء ذكر الروم في سورة تحمل اسمهم «الروم»، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [الروم: 1 - 6].

قال أهل التفسير: إن سبب نزول هذه الآية؛ أنه كان بين فارس والروم قتال، وكان المشركون يودون أن تغلب فارس الروم، لأن أهل فارس كانوا مجوسا أميين، والمسلمون يودون غلبة الروم على فارس، لكونهم أهل كتاب، فبعث كسرى جيشا إلى الروم واستعمل عليهم رجلًا يقال له شهربراز، وبعث قيصر جيشا إلى فارس واستعمل عليهم رجلا يدعى يحفس، فالتقيا بمنطقة بأذرعات وبصرى، وهي أدنى الشام.

فغلبت فارس الروم، فبلغ ذلك المسلمين بمكة، فشقَّ عليهم، وفرح به كفار مكة، فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار، فقال: فرحتم بظهور إخوانكم، فلا تفرحوا فوالله ليظهرن على فارس ما أخبرنا بذلك نبينا، فقام إليه أُبي بن خلف الجمحي فقال: كذبت، فقال: أنت أكذب يا عدو الله، فقال: اجعل بيننا أجلًا أناحبُك عليه -والمناحبة: المراهنة- على عشر قلائص مني وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرمتُ، وإن ظهرت فارس غرمتَ، ففعلوا وجعلوا الأجل ثلاث سنين فجاء أبو بكر

إلى النبي ﷺ فأخبره بذلك، وذلك قبل تحريم القمار، فقال النبي ﷺ: «ما هكذا ذكرت إنما البضع ما بين الثلاثة إلى التسع، فزايده في الخطر ومادّه في الأجل، فخرج أبو بكر ولقي أبيًّا، فقال: لعلك ندمت؟ قال: لا فتعال أزايدك في الخطر وأمادك في الأجل، فاجعلها مائة قلوص ومائة قلوص إلى تسع سنين، وقيل إلى سبع سنين، قال قد فعلت.

فلما خشي أبي بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة أتاه فلزمه، وقال: إني أخاف أن تخرج من مكة فأقم لي كفيلًا فكفل له ابنه عبد الله بن أبي بكر، فلما أراد أبيٌّ بن خلف أن يخرج إلى أحد أتاه عبد الله بن أبي بكر فلزمه، فقال: لا والله لا أدعك حتى تعطيني كفيلا فأعطاه كفيلا. ثم خرج إلى أحد ثم رجع أبي بن خلف فمات بمكة من جراحته التي جرحه رسول الله ﷺ حين بارزه، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية، وذلك عند رأس سبع سنين من مناحبتهم. وقيل: كان يوم بدر.

وقال الدكتور زغلول النجار في مقال له: كانت هذه الآيات الكريمة من دلائل النبوة في زمن الوحي لإخبارها بالغيب فيتحقق، فهي لا تزال من دلائل النبوة في زماننا بالتأكيد على أن المعركة الفاصلة قد تمت في أُخفض أجزاء اليابسة على الإطلاق، وهي أغوار البحر الميت وما حولها من أغوار ويأتي العلم التجريبي ليؤكد تلك الحقيقة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وعلى كتَّاب التاريخ الذين تأرجحوا في وضع المعركة الفاصلة في هزيمة الروم على أرض القسطنطينية، أو على الأرض بين مدينتي أذرعات وبصرى من أرض الشام، أو على أرض أنطاكية، أو على أرض دمشق، أو أرض بيت المقدس، أو أرض مصر« الإسكندرية» أن يعيدوا النظر في استنتاجاتهم، لأن القرآن الكريم يقرر أن هزيمة الروم على أيدي الفرس كانت على الأرض الواقعة بين شرقي الأردن وفلسطين وهي أغوار وادي عربة ـ البحر الميت ـ الأردن التي أثبت العلم أنها أكثر أجزاء اليابسة انخفاضًا، والتي ينطبق عليها الوصف القرآني (بأدني الارض) انطباقًا تامًّا ودقيقًا.

وعلى الذين قالوا إن معنى أدنى الأرض هو أقرب الأرض من بلاد فارس، أو من بلاد العرب، أو هي أطراف بلاد الشام، أو بلاد الشام، أو أنطاكية، أو دمشق، أوبيت المقدس أو غيرها أن يعيدوا النظر في ذلك، لأن حدود الإمبراطوريتين كانت متلاحمة مع بعضهما بعضا من جهة ومع بلاد العرب من جهة أخرى، وعليه فلايعقل أن يكون المقصود بتعبير أدنى الأرض في هذه الآيات الكريمة هو القرب من بلاد فارس أو بلاد العرب، فقط، وإن كانت أرض الأغوار هي أقرب الأرض إلى بلاد العرب، بل هي في الحقيقة جزء من أرض شبه الجزيرة العربية.

فسبحان الذي أنزل هذا التعبير المعجِز: أدنى الأرض ليحدِّد أرض المعركة ثم ليثبت العلم التجريبي بعد أكثر من اثني عشر قرنا أن الأغوار الفاصلة بين أرض فلسطين المباركة والأردن هي أكثر أجزاء اليابسة انخفاضًا ومن هنا كانت جديرة بالوصف القرآني أدنى الأرض، وجديرة بأن تكون أرض المعركة التي هُزم فيها الروم، وذلك لقول الحق «عز من قائل»: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم: 1 - 5].

والآيات الكونية الواردة في سورة الروم تحتاج إلى مجلدات لتفصيل دلالاتها، ولإظهار جوانب الإعجاز العلمي فيها، ولكنني سأقتصر في هذا الموضع على الإشارة القرآنية إلى الموقع الذي هزمت فيه جيوش الروم على أيدي جيوش الفرس بالتعبير: أدنى الأرض، وقبل الدخول في ذلك لابد من عرض الدلالة اللغوية لهذا التعبير ولأقوال المفسرين فيه.

﴿أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ في اللغة العربية: يقال في اللغة: «دنا» «يدنو» «دنوا» بمعنى قرب بالذات أو بالحكم، ويستعمل في المكان، والزمان، والمنزلة، كما يعدّى فيقال «أدني»

«يدني» «إدناءة»، ويقال: «دانيت» أو«أدنيت» بين الأمرين أي قاربت بينهما، حتى صارت بينهما «دناوة» أي: قرب أو قرابة.. و«الدني» القريب، و«الدنيء» بمعنى الدون، الخسيس، وقد «دنأ» «يدنأ»، وفيهما «دناءة»، ويقال: «دنؤ» بمعنى انحط، و«الدنيئة» هي النقيصة.

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾ [الأنعام: 99]، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ٩﴾ [النجم: 8 - 9]، وفي الحديث الشريف: «إذا أكلتم فادنوا» أي كلوا مما يليكم.

ويعبر بـ «الأدنى» تارة عن الأقرب فيقابل بالأبعد «أو الأقصى» من مثل قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ [الأنفال: 42].

وتارة ثانية يعبر بها عن الأخفض «أو الأحقر» فيقابل بالأعلى «أو الأعز» وذلك من مثل قوله تعالى: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَ﴾ [الأحزاب: 59].

وتارة ثالثة تأتي بمعنى الأقل في مقابل الأكثر من مثل قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾ [المجادلة: 7].

وتارة رابعة يعبر بها عن الأرذل فيقابل بالذي هو خير، وذلك من مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ﴾ [البقرة: 61].

وتارة خامسة يعبر بها عن الأولَى «الدنيا» في مقابلة الآخرة وذلك من مثل قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [آل عمران: 152].

وسميت «الدنيا» بهذا الاسم لدنوها، والجمع «الدُّنا»، وأصله الدنو فحذفت الواو لاجتماع الساكنين، والنسبة إليها «دُنياي»، وقيل«دنيويّ» ودني، ويقال: «تدنى» فلان

أي «دنا» قليلًا قليلًا، و«تدنى» المستوى بمعنى هبط، و«تدانوا» أي «دنا» بعضهم من بعض.

شروح المفسرين:

في تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾ [الروم: 1 - 5].

ذكر ابن كثير (يرحمه الله) قول ابن عباس (رضي الله عنهما)، حيث قال: كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس؛ لأنهم كانوا من أهل الكتاب، فذُكر ذلك لأبي بكر (رضي الله عنه)، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنهم سيغلبون» فذكره أبوبكر لهم، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلًا فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا. فجعل الأجل خمس سنين، فلم يظهروا، فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ فقال: «ألا جعلتها إلى دُون العشر». ثم ظهرت الروم بعد، قال: فذلك قوله: ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣﴾.

وأضاف ابن كثير عدة روايات أخرى للحديث عن كل من مسروق، وابن مسعود، وعِكرمة (رضي الله عنهم أجمعين) في المعنى نفسه.

وزاد قوله: «وأما الروم فهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء عم بني إسرائيل، ويقال لهم:بنو الأصفر. وكانوا على دين اليونان، واليونان من سلالة يافث بن نوح، أبناء عم الترك. وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة،

ويقال لها:المتحيرة، ويصلُّون إلى القطب الشمالي، وهم الذين أسَّسوا دمشقَ، وبنوا معابدها، فكان الروم على دينهم إلي مبعث المسيح (عليه السلام) بنحو من ثلاثمائة سنة، وكان من ملك الشام مع الجزيرة منهم يقال له: «قيصر»؛ فكان أول من دخل في دين النصارى من الملوك «قسطنطين»، وأمه «مريم الهيلانية الشدقانية» من أرض حران، كانت قد تنصرت قبله، فدعته إلى دينها، واستمروا على النصرانية، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده، حتى كان آخرهم «هرقل».

فناوأه كسرى ملك الفرس، وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر، وكانوا مجوسًا يعبدون النار.

فتقدم عن عكرمة (رضي الله عنه) أنه قال: بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه، والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكسره وقصره، حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية. فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه، ولم يقدر كسرى على فتح البلد، ولا أمكنه ذلك لحصانتها؛ لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر، فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هناك.

ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين، وهي تسع؛ فإن البضْع في كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع.

وجاء في تفسير الجلالين كلامًا موجزًا في المعنى نفسه، وأضاف المفسر تعليقًا على التعبير القرآني ﴿ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أن المقصود به: «أقرب أرض الروم إلى فارس بالجزيرة، التقى فيها الجيشان، والبادي بالغزو (هم) الفرس..».

ثم جاء في ظلال القرآن لصاحبه سيد قطب:

ثم جاءت النبوءة الصادقة الخاصة بغلبة الروم في بضع سنين وأضاف رواية عبدالله ابن مسعود «رضي الله عنه» مؤكدًا أن هذا الحادث قد وردت فيه روايات كثيرة، تتفق

كلها في المعنى والدلالة، وتختلف في الألفاظ وطرائق التعبير. وجمع الكاتب «رحمه الله» من هذه الآيات القرآنية الكريمة عددًا من الإيحاءات منها: الترابط بين الشرك والكفر في كل مكان وزمان أمام دعوة التوحيد والإيمان؛ ومنها الثقة المطلقة في وعد الله كما تبدو في قولة أبي بكر «رضي الله عنه» في غير تلعثم ولا تردد، والمشركون يعجبون من قول صاحبه، فما يزيد على أن يقول: صدق، ويراهنونه فيراهن وهو واثق، ثم يتحقق وعد الله، في الأجل الذي حدده: في بضع سنين..

والإيحاء الثالث وهو المسارعة برد الأمر كله لله، في هذا الحادث وفي سواه، وتقرير هذه الحقيقة الكلية، لتكون ميزان الموقف، وميزان كل موقف، فالنصر والهزيمة، وظهور الدول ودثورها، وقوتها وضعفها، شأنه شأن سائر ما يقع في هذا الكون من أحداث ومن أحوال، مرده كله إلى الله.

وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ما نصه: احتربت الفرس والروم فيما بين أذرعات وبصرَى من أرض الروم يومئذ، وهما أقرب أراضيها بالنسبة إلى مكة، وكان ذلك قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل بست. فظهر الفرس على الروم، فلما بلغ الخبر مكة شق على المؤمنين، لأن الفرس مجوس لا يدينون بكتاب، والروم أهل كتاب؛ وفرح المشركون وقالوا: أنتم والنصاري أهل كتاب، ونحن والفرس أميون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرن نحن عليكم، فنزلت الآية وفيها: أن الروم سيغلبون الفرس في بضع سنين. والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع و(غلبهم) كونهم مغلوبين.

وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم ما نصه: «غلبت فارس الروم في أقرب الأرض من العرب، وهي أطراف الشام، وهم بعد انهزامهم سيغلبون الفرس، قبل أن تمضي تسع سنوات.. وكان المشركون قد فرحوا بانتصار فارس، وقالوا للمسلمين: سنغلبكم كما غلبت فارس الروم التي هي من أهل الكتاب، وقد حقق الله وعده فانتصر الروم على فارس في الأجل الذي سماه، فكان ذلك آية بيِّنة على صدق محمد ﷺ في دعواه وصحة ما جاء به.

وتفصيل الحدث الأول أن الفرس والبيزنطيين قد اشتبكوا في معركة في بلاد الشام على أيام خسرو أبرويز أو خسرو الثاني عاهل الفرس المعروف عند العرب بكسرى.. وهيراكليوس الصغير الإمبراطور الروماني المعروف عند العرب بهرقل؛ ففي عام614م استولى الفرس على أنطاكية أكبر المدن في الأقاليم الشرقية للإمبراطورية الرومانية، ثم على دمشق، وحاصروا مدينة بيت المقدس إلى أن سقطت في أيديهم وأحرقوها ونهبوا السكان وأخذوا يذبحونهم.

وتفصيل الحدث الثاني أن هرقل قيصر الروم الذي مُني جيشه بالهزيمة لم يفقد الأمل في النصر، ولهذا أخذ يعد نفسه لمعركة تمحو عار الهزيمة، حتى إذا كان عام622 الميلادي (أي العام الهجري الأول) أرغم الفرس على خوض معركة على أرض أرمينيا وكان النصر حليف الروم، وهذا النصر كان فاتحة انتصارات الروم على الفرس... فتحققت بشرى القرآن.

وثَمة حدث ثالث يفهم من سياق هذه الآيات الشريفة كان مبعث فرح المسلمين وهو انتصارهم على مشركي قريش في غزوة بدر التي وقعت في يوم الجمعة17 رمضان من العام الثاني الهجري (أي سنة624 م).

وجاء في صفوة التفاسير ما نصه: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي هزم جيش الروم في أقرب أرضهم إلى فارس ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ أي وهم من بعد انهزامهم وغلبة فارس لهم سيغلبون الفرس، وينتصرون عليهم ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ أي في فترة لا تتجاوز بضعة أعوام؛ والبضع ما بين الثلاث والتسع....

وأشار صاحب صفوة التفاسير إلى أقوال المفسرين السابقين وعلق على قوله (تعالى): ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ ما نصه: وقد التقى الجيشان في السنة السابعة من الحرب، وغلبت الروم فارس وهزمتهم، وفرح المسلمون بذلك.

قال أبو السعود: وهذه الآيات من البينات الباهرة، الشاهدة بصحة النبوة، وكون القرآن من عند الله عز وجل حيث أخبر عن الغيب الذي لا يعلمه إلا الله العليم الخبير، ووقع كما أخبر.

وقال البيضاوي: والآية من دلائل النبوة لأنها إخبار عن الغيب.

وأضاف صاحب صفوة التفاسير في شرح قول الحق (تبارك وتعالى): ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ ما نصه: وقد صادف ذلك اليوم يوم غزوة بدر؛ قال ابن عباس: كان يوم بدر هزيمة عبدة الأوثان، وعبدة النيران.[1]

ويوم بدر وقع في السنة الثانية من الهجرة (الموافق سنة624م)، وعلى ذلك فإن هزيمة الروم على أيدي الفرس لابد وأنها كانت قد وقعت في حدود سنة 614م إلى 615م. وجاء في أطلس تاريخ الإسلام ما نصه:

«وعندما تولى هرقل عرش الروم سنة610م (وهي سنة البعثة المحمدية) كان الفرس قد اجتاحوا بلاد الشام ومصر وهزموا البيزنطيين سنة 613م عند أنطاكية، واستولوا على فلسطين والقدس سنة614 م، وغزوا مصر ودخلوا الإسكندرية سنة 618م أو 619م.

وبعد أن أقام هرقل دولته بدأ قتال الفرس سنة622 م، وفي سنة627م أنزل بهم هزيمة قاصمة قرب نينوى، واسترد منهم أراضي الدولة البيزنطية في أرمينيا والشام وفلسطين ومصر، وفي سنة630م استعاد بيت المقدس.

ومن استقراء كل هذه التواريخ السابقة يتضح أن هزيمة الروم الحقيقية على أيدي جيوش الفرس كانت في حدود سنة 614م إلى 615م، وأن استعادتهم النصر على الفرس كانت في حدود سنة 624م، واستمر تقدم الروم على أرض الفرس حتى تم لهم استعادة بيت المقدس. وواضح من شروح المفسرين أن المقصود بالتعبير القرآني في

1- ما زال الكلام للدكتور/ زغلول النجار.

أدنى الأرض الذي يصف أرض المعركة التي تمت فيها هزيمة الروم أمام جحافل جيش الفرس هو أقرب الأرض إلى مكة المكرمة أو إلى الجزيرة العربية أو إلى أرض الفرس.

ولكن الدراسات الحديثة تؤكد أن منطقة حوض البحر الميت، بالإضافة إلى كونها أقرب الأراضي التي كان الروم يحتلونها إلى الجزيرة العربية هي أيضًا أكثر أجزاء اليابسة انخفاضا، حيث يصل منسوب سطح الأرض فيها إلى حوالي الأربعمائة متر تحت متوسط مستوى سطح البحر، وأن هذه المنطقة كانت من مناطق الصراع بين إمبراطوريتيْ الفرس والروم، وأنَّ المعركة الحاسمة التي أظهرت جيوش الفرس على جيوش إمبراطورية روما الشرقية (الإمبراطورية البيزنطية) لابد أنها وقعت في حوض البحر الميت، وأن الوصف بـ أدنى الأرض هنا كما يعني أقربها للجزيرة العربية، يعني أيضًا أنها أكثر أجزاء اليابسة انخفاضا، وهذه الاشارة القرآنية العابرة تعتبر من السبق العلمي في كتاب الله، لأن أحدا لم يكن يعلم هذه الحقيقة في زمن الوحي بالقرآن الكريم، ولا لقرون متطاولة من بعده.

أدنى الأرض في العلوم الحديثة:

ثبت عِلميًّا بقياسات عديدة أن أكثر أجزاء اليابسة انخفاضًا هو غور البحر الميت، حيث يصل مستوى منسوب سطحه إلى حوالي أربعمائة متر تحت مستوى سطح البحر، ويصل منسوب قاعه في أعمق أجزائه إلى قرابة الثمانمائة متر تحت مستوى سطح البحر، وهو بحيرة داخلية بمعنى أن قاعها يعتبر في الحقيقة جزءًا من اليابسة. وغور البحر الميت هو جزء من خسف أرضي عظيم يمتد من منطقة البحيرات في شرقي أفريقيا إلى بحيرة طبرية، فالحدود الجنوبية لتركيا، مرورا بالبحرالأحمر، وخليج العقبة، ويرتبط بالخسف العميق في قاع كل من المحيط الهندي،

وبحر العرب وخَليج عدن، ويبلغ طول أغوار وادي عربة ـ البحر الميت ـ الأردن حوالي الستمائة كيلومتر، ممتدة من خليج العقبة في الجنوب إلى بحيرة طبرية في الشمال، ويتراوح عرضها بين العشرة والعشرين كيلومترًا.

وخلاصة القول: إن منطقة أغوار وادي عربة ـ البحر الميت ـ الأردن تحوي أخفض أجزاء اليابسة على الإطلاق، والمنطقة كانت محتلة من قبل الروم البيزنطيين في عصر البعثة النبوية الخاتمة، وكانت هذه الإمبراطورية الرومانية يقابلها ويحدها من الشرق الإمبراطورية الفارسية الساسانية، وكان الصراع بين هاتين الإمبراطوريتين الكبيرتين في هذا الزمن على أشُده، ولابد أن كثيرًا من معاركهما الحاسمة قد وقعت في أرض الأغوار، وهي أخفض أجزاء اليابسة على الإطلاق.

ووصف القرآن الكريم لأرض تلك المعركة الفاصلة التي تغلب فيها الفرس على الروم ـ في أول الأمر بـ أدنى الأرض ـ وصف معجز للغاية لأن أحدًا من الناس لم يكن يدرك تلك الحقيقة في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده، وورودها بهذا الوضوح في مطلع سورة الروم يضيف بعدا آخر إلى الإعجاز التنبؤي في الآيات الأربع التي استهلت بها تلك السورة المباركة ألا وهو الاعجاز العلمي فبالإضافة إلى ما جاء بتلك الآيات من إعجاز تنبؤي شمل الإخبار بالغيب، وحدد لوقوعه بضع سنين، فوقع كما وصفته وكما حددت له زمنه تلك الآيات فكانت من دلائل النبوة، فإن وصف أرض المعركة بالتعبير القرآني أدنى الأرض يضيف إعجازًا علميًّا جديدًا، يؤكد أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق وأن النبي الخاتم ﷺ الذي تلقاه كان موصولًا بالوحي، ومعلَّما من قِبَل خالق السماوات والأرض.[1]

* * *

1- صفحة الإعجاز العلمي الأرض وعلوم البحار ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ زغلول النجار، طريق الإسلام على شبكة الإنترنت؛ ar.islamway.net المقالات.

ذِكر الروم في السُّنة النبوية الشريفة

وأما ذكر الروم في السنة النبوية الشريفة فكان في سياق الحديث عن أحداث آخر الزمان نذكر منها:

قال رسول ﷺ: «تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله عز وجل، ثم فارس فيفتحها الله عز وجل، ثم تغزون الروم فيتحها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله».[1]

وفي لفظ ابن ماجه قال رسول الله ﷺ: «ستقاتلون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم تقاتلون الروم فيفتحها الله، ثم تقاتلون الدجال فيفتحها الله» قال جابر: فما يخرج الدجال حتى تُفتح الروم.

وقال رسول الله ﷺ: «ستصالحون الروم صلحًا آمنًا، فتغزون أنتم وهم عدوًّا من ورائكم، فتُنصرون وتغنمون وتسلمون، ثم ترجعون حتى تنزلوا بمرج ذي تلول، فيرفع رجل من أهل النصرانية الصليب، فيقول: غلب الصليب، فيغضب رجل من المسلمين فيدقه، فعند ذلك تغدر الروم وتجمع للملحمة» «فيثور المسلمون إلى أسلحتهم فيُقتتلون فيكرم الله تلك العصابة بالشهادة».[2]

وفي رواية قال رسول الله ﷺ: «تكون بينكم وبين بني الأصفر هدنة، فيغدرون بكـم، فيسيرون إليكم في ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفًا».. الغاية، معناها: الراية.

1- رواح أحمد ومسلم.

2- مشكاة المصابيح رقم 5428.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «فسطاط المسلمين يوم الملحمة بالغوطة إلى جانب مدينة يقال لها دمشق من خير مدائن الشام».

وفي رواية ثانية قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يوم الملحمة الكبرى فسطاط المسلمين بأرض يقال لها الغوطة، فيها مدينة يقال لها دمشق، خير منازل المسلمين يومئذ».

وقال رسول الله ﷺ: «يوشك المسلمين أن يحاصروا إلى المدينة، حتى يكون أبعد مسالحهم سلاح». (1)

فالمعقل في الملحمة الكبرى هي دمشق وكذلك المدينة، ويؤيد ذلك خروج جيش من خيار أهل المدينة لقتال الروم في الملحمة وسيأتي هذا الحديث قريبًا.

روى مسلم في صحيحه بسنده عن يسير بن جابر، قال: هاجت ريحٌ حمراء بالكوفة، فجاء رجل ليس له هجيري إلا: يا عبد الله بن مسعود جاءت الساعة، قال: فقعد، وكان متكئًا، فقال: «إن الساعة لا تقوم حتى لا يقسم ميراث، ولا يفرح بغنمية» ثم قال بيده هكذا، ونحّاها نحو الشام، فقال: عدوٌّ يجمعون لأهل الإسلام ويجمع لهم أهل الإسلام».

قلت: الروم تعني؟

قال: «نعم، وتكون عند ذاكم القتال ردة -رَدّة معناها: عطفة قوية- شديدة، فيشترط المسلمون شرطة - أي طائفة من الجيش تقدم للقتال - للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون

1- صحيح الجامع رقم 8033.. وسلاح: اسم موضع قريب من خيبر.

شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يمسوا، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة، فإذا كان اليوم الرابع، نهد إليهم بقية أهل الإسلام، فيجعل الله الدّبرة عليهم - الدّبرة معناها: الهزيمة - فيقتلون مقتلة «إما قال: لا يُرى مثلها، وإما قال: لم ير مثلها»، حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم - أي نواحيهم - فما يخلفهم - أي يجاوزهم - حتى يخر ميتًا، فيتعاد بنو الأب كانوا مائة، فلا يجدون بقي منهم إلا الرجل الواحد، فبأي غنيمة يفرح أو أي ميراث يقاسم، فبينما هم كذلك، إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك، فجاءهم الصريخ أن الدجال قد خلفهم في ذراريهم، فيرفضون ما في أيديهم، ويقبلون، فيبعثون عشرة فوارس طليعة».

قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ». (1)

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال:

«لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق - موضعان قريبان من حلب - فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا، قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله، لا نخلي بينكم وبين إخواننا فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله - أي لايلهمهم التوبة - عليهم أبدًا، ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث لا يُفتنون أبدًا، فيفتتحون قسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: أن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون وذلك باطل، فإذا جاؤوا الشام خرج، فبينما هم يعدون للقتال يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم ﷺ، فأمهم، فإذا رآه عدو الله، ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه، لا نذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته».

وجاء ذكر الروم مع الفرس ونهايتهم وهلاكهم في قوله ﷺ: «إذا هلك كسرى فلا

1- صحيح مسلم.

كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقنّ كنوزهما في سبيل الله».

روى الإمام مسلم في صحيحه عن موسى بن علي عن أبيه قال: قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس فقال له عمرو أبصر ما تقول قال أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ قال لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالا أربعا إنهم لأحلم الناس عند فتنة وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة وأوشكهم كَرة بعد فرة وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف وخامسة حسنة جميلة وأمنعهم من ظلم الملوك».[1]

وقال أيضًا: «إن ربي قد قتل قيصر ولا قيصر بعد اليوم».[2]

وسيأتي الحديث والشرح لهذين الحديثين في حينه إن شاء الله.

وروى مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

«سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر؟ قالوا: نعم يا رسول الله! قال: «لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفًا من بني إسحاق. فإذا جاؤوها نزلوا. فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم. قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر. فيسقط أحد جانبيها. قال ثور: لا أعلمه إلا قال: الذي في البحر. ثم يقولوا الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر. فيسقط جانبها الآخر. ثم يقولوا الثالثة: لا إله إلا الله والله أكبر. فيفرج لهم. فيدخلوها فيغنمون.

فبينما هم يقتسمون الغنائم، إذ جاءهم الصريخ فقال: إن الدجال قد خرج. فيتركون كل شيء ويرجعون.

والصريخ: الاستنجاد والاستغاثة والمستنجِد المستغيث.

1- متفق عليه.

2- أخرجه الطبري.

والحديث فيه إشارة إلى فتح المسلمين لبلاد الروم واستيلائهم على كثير من الغنائم.

وروى ابن ماجه بسنده عن الكثير بن عبد الله بن عمرو بن عون، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكون أدنى شيوخ المسلمين يتولى، ثم قال يا على يا على يا علي: قال بأبي أنت وأمي يا رسول الله، قال: إنّكم ستقاتلون بني الأصفر ويقاتلهم الذين من بعدكم حتى يخرج إليهم روقة الإسلام أهل الحجاز الذين لا يخافون في الله لومة لائم، فيفتحون القسطنطينية بالتسبيح والتكبير فيصيبون غنائم لم يصيبوا مثلها حتى يقتسموا بالأترسة، ويأتي آت فيقول إن المسيح قد خرج في بلادكم ألا وهي كذبة؛ فالآخذ نادم، والتارك نادم».

* * *



ملابس الرومان القدماء



ملابس جنود الرومان



أدنى الأرض التي وقعت عليها المعركة التي غُلبت فيها الروم.



أخفض منطقة على الأرض.

2 أصول الروم

- أصل الروم تاريخيًّا.
- الأصول العربية للأوربيين.
- أباطرة الروم عربيون.
- قبائل السلت (الكلت) وأصول الأوربيين.
- السلت في التاريخ البريطاني.

أصل الروم وأصل الأوربيين

من هم الرومان، وهل يعودون بأصلهم إلى اليونان، أم هم سكان إيطاليا الأصليون أو الجرمان أم مهاجرون من الشرق الآسيوي أم خليط بين كل هؤلاء؟

قبل عشرة آلاف عام هاجر مزارعو الشرق الأوسط أو الأدنى إلى القارة الأوربية هذا ما كشفت عنه دراسة حديثة عن أصل الأوربيين المعاصرين، وتأتي هذه النتائج في الدراسة التي قام بها علماء بريطانيون وأمريكيون ونشرتها الأكاديمية القومية الأميركية وقد استخدموا فيها تكنولوجيا الكومبيوتر ومعلومات جينية، كان هدفها فهم الطريقة التي تم بها دخول الطرق الزراعية إلى المنطقة أي أنهم من خلال البحوث الزراعية ومنتجاتها وطرق زراعتها.

وأظهرت الدراسة أن ما حدث لم ينحصرْ في انتشار الأفكار فقط، بل رافقته حركةٌ جماعية للسكان الذين نزحوا إلى أوربا واندمجوا مع السكان المحليين من جامعي الثمار الذين كانوا منتشرين في أوربا في حينها. ويعتقد علماء الآثار أن الزراعة بدأت في الشرق الأوسط، ثم انتشرت في أوربا عام ثمانية آلاف قبل الميلاد.

وقام العلماء بتحليل الطفرات الجينية التي وقعت للكروموسومات المعروفة باسم كروموسوم «واي» «الذَّكري» الموجود في الحامض النووي «D. N. A.» التي يتوارثها الأبناء عن الآباء.

ودرس العلماء على وجه الخصوص التغيرات الجينية النادرة التي يعتقد أنها وقعت مرة واحدة فقط في تاريخ البشرية، حيث أخضع فريق العلماء نتائج دراسة

سابقة لتحليلات مكثفة استخدمت فيها تكنولوجيا الكومبيوتر ووجدوا أن 50 بالمائة من المورثات عند الأوربيين المعاصرين التي تم تحليلها تعود إلى المزارعين الأوائل الذين نزحوا من الشرق الأوسط.

وقد أظهر علماء الآثار أن الزراعة انتشرت من الشرق الأدنى إلى شمال وغرب أوربا. ويقول فريق العلماء إن الأوربيين يحملون مورثات من الشرق الأدنى بنِسب مختلفة، فعلى سبيل المثال في اليونان والبلقان يحمل الشخص نحو 70 إلى 100 بالمائة من مورثاته من مزارعي الشرق الأدنى ولكن في غرب فرنسا وإنجلترا تنخفض النسبة إلى 10 بالمائة فقط.

ومن الناحية الجينية وبمقارنة الجينات الوراثية لبعض من الأوربيين «الأصليين» تبين أنهم ينحدرون من ثلاثة أصول على الأقل. هذا ما أظهرته نتيجة أبحاث ألمانية نُشرَت في دورية «نيشتر» العلمية المتخصصة.

فقد كشف تحليل جينيٌّ حديث أن أغلب الأوربيين الموجودين حاليًا ينحدرون من ثلاثة أصول مختلفة على الأقل. وأظهر هذا التحليل، الذي تم خلاله مقارنة الجينات الوراثية لدى تسعة من الأوربيين الأصليين مع 2345 مواطنًا من السكان الحاليين، أن أغلب الأوربيين الموجودين حاليًا ترجع أصولهم إلى الصيادين من غرب أوربا، والمزارعين الأوربيين الأوائل، وكذلك من سكان شمال أوراسيا، الذين كانوا على علاقة بالسكان الأصليين لأمريكا.

ونشر فريق البحث العلمي، تحت إشراف (يوهانس كراوزه) من جامعة توبنجن الألمانية، هذه النتيجة في دورية «نيتشر» العلمية المتخصصة.

ومن هذا التحليل استطاع العلماء التوصل إلى أن أغلب الأوربيين لديهم آثار وراثية من ثلاثة شعوب مختلفة داخل جيناتهم.

يذكر المؤرخون العرب وكتب أهل الكتاب أن الرومان هم من أبناء العيص

ابن نبي الله إسحاق ابن النبي إبراهيم وقد ولد لإسحاق ولدان هما: العيص ويعقوب، العيص ويقال أيضًا عيسو هو أبو الرومان والإغريق وهم الأوربيون والأمريكان واستراليا وكندا وجميع الأصول الأوربية، ويعقوب عليه السلام يطلق عليه «إسرائيل» ومن ذريته الأسباط الاثنا عشر «بنو إسرائيل» ومنهم النبي يوسف وأنبياء بني إسرائيل مثل: موسى وزكريا ويحيى وآخرهم عيسى عليهم السلام.

قال ابن كثير رحمه الله في كتابه البداية والنهاية:

وذكر أهل الكتاب أن إسحق لما تزوج رفقا بنت بتوابيل في حيات أبيه كان عمره أربعين سنة وأنها كانت عاقرًا فدعا الله لها فحملت فولدت غلامين توأمين اولهما سموه عيصو وهو الذي تسميه العرب العيص وهو والد الروم والثاني خرج وهو آخذ بعقب أخيه فسموه يعقوب وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل.

فالروم حسب المفهوم الديني والتاريخي من ذرية العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام وهو الذي كانت تعرفه العرب بأنه والد الروم وذلك لكثرتهم في ذلك الزمان وسكنت ذرية العيص أو عيصو كما تسميه اليهود بمنطقة جبل سعيرات وما حولها كما ذكر في التوراة، وكانت الروم توجد في عهد العرب في الجاهلية في القسطنطينية «إسَطنبول بتركيا حاليًا» وعندما أتمّ فتحها السلطان العثماني محمد الفاتح حدثت هجرات ضخمة لأسلاف التركيين الحاليين وتغيرت التركيبة العرقية للأتراك وهي التي يفخرون بها، أما الروم الذين وصُفوا في الأحاديث النبوية (ببنو الأصفر) فقد تشتتوا وهاجروا إلى البلدان المجاورة مثل اليونان والبلقان والقوقاز وبقى جزء صغيرفي تركيا.

جاء في تاريخ ابن خلدون في الجزء الأول «عيصو: وأما عيصو بن إسحق فسكن جبال بنى يسعين من بنى جوى أحد شعوب كنعان وهي جبال الشراة بين تبوك وفلسطين وتعرف اليوم ببلاد كرك والشوبك.

ومـن ذرية عيصـو شعـوب جاء ذكرهم في التوراة وهم بنو لوطان وبنو شوبال

وبنو صمقون وبنو عنا وبنو ديشوق وبنو يصد وبنو ديسان سبعة شعوب.. ومن بني ديشون الأشبان فسكن عيصو بينهم بتلك البلاد وتزوج منهم من بنات عنا بن يسعين من جوى وهي أهليقاما وتزوج أيضًا من بنات حي من الكنعانيين عاذا بنت أيلول وباسمت بنت اسماعيل عليه السلام، وكان له من الولد خمسة مذكورون في التوراة أكبرهم اليفاز.[1] من عاذا بنت أيلول. ثم رعويل من باسمت بنت اسماعيل ثم يعوش ويعلام وقورح من أهليقاما بنت عنا.

وولد اليفاز ستة من الولد: ثيمال وأومار وصفو وكعتام وقتال وعمالق السادس لسرية اسمها تمتاع وهي شقيقة لوطان بن يسعين وولد رعويل بن عيصو أربعة من الولد ناحة وزيدم وشتما ومرا هكذا وقع ذكر ولد العيص وولدهم في التوراة وفيها أن العيص اسمه أروم فلذلك قيل لهم بنو أروم ولبعض الإسرائيليين أن أروم اسم لذلك الجبل ومعناه بالعبرانية الجبل الأحمر الذى لا نبات له.

وعند بعض المؤرخين أن القياصرة ملوك الروم من ولد عيصو، قال الإمام الطبري: إن الروم وفارس من ولد رعويل ابن باسمت «بسمة».

قال ابن حزم في كتاب الجمهرة: وكأن لإسحاق عليه السلام ابن آخر غير يعقوب اسمه عيصاب أو عيصو، كان بنوه يسكنون جبال الشراة بين الشام والحجاز، وقد بادوا جملة، إلا أنّ قومًا يذكرون أنّ الروم من ولده وهذا خطأ. وإنما وقع لهم هذا الغلط لأن موضعهم كان يُقال له أدوم فظنوا أنّ الروم من ذلك الموضع، وليس كذلك لأنّ الروم إنما نسبوا إلى رومس باني رومة، فإن ظنّ ظان أنّ قول النبيّ ﷺ للحرّ بن قيس: «هل لك في بلاد بني الأصفر العام، وذلك في غزوة تبوك، يدل على أنَّ الروم من بني الأصفر وهو عيصاب المذكور فليس كما ظنَّ.

وقول النبيّ ﷺ حق، وإنما عنى ﷺ بني عيصاب على الحقيقة لا الروم، لأن

1- بالفاء المفخمة وإشباع حركتها وزاى معجمة من بعدها.

مغزاه ﷺ في تلك الغزوة كان إلى ناحية الشراة مسكن القوم المذكورين كما في كلام ابن حزم.

وزعم «أهروشيوش» مؤرّخ الروم أنّ أم الفينان وهاءوا وعالوم وقدوح الأربعة من بنات كاتيم بن ياوان بن يافث، والأوّل أصح لأنه نص التوراة.

ثم كثر نسل بني عيصو بأرض يسعين وغلبوا الجويّين على تلك البلاد وغلبوا بني مدين أيضًا على بلادهم إلى أيلة.. وتداول فيهم ملوك وعظماء كان منهم فالغ بن ساعور، وبعده يودب بن زيدح، ثم كان منهم هداد بن مدّاد الّذي أخرج بني مدين عن مواطنهم.. ثم كان فيهم بعده ملوك إلى أن زحف يوشع إلى الشام وفتح أريحاء وما بعدها وانتزع الملكِ من جميع الأمم الذين كانوا هنالك، ثم استلحمهم بخت نصّر عند ما ملك أرض القدس، ولحق بعضهم بأرض يونان، وبعضهم بإفريقية.

ومن خلال ما جاء يمكن أن نستخلص أن المؤرخ قال: بأنهم كانوا من سكان الكرك والشوبك وهي إلى عهدنا هذا على مسماها القديم وتقع في دولة الأردن.. الأمر الآخر أنهم تفرقوا في البلاد فمنهم من تقطعت به السبل إلى اليونان ومنهم إلى أفريقيا ولم يحدد الباحث إلى أي البلدان هم ذهبوا ولهذا لانستطيع الجزم، فلو أخذنا اليونان كبلد سنجد فيه تنوع كبير في السلالات أيضًا قدم عهد هذا النسب يجعل من الصعب القطع بالقول هل العوائل أو القبائل هم بنو العيص؟ ولكن لمحاولة التقريب وحصر نطاق البحث نجد أن الربط بين هذا النسب والعوائل الحاضرة يجب أن يكون له روابط مشتركة، وبما أن ابن خلدون في تاريخه ذكر أن منازلهم القديمة هي الكرك والشوبك فأهل الكرك توجد به عوائل تدين بالمسيحية ولا أحد من هذه العشائر المسيحية ينسب نفسه إلى العيص وأغلب مادعت له هذه العشائر أنهم من قبيلة الغساسنة وأنهم من القبائل العربية وبهذا تكون هذه العشائر قد اعتنقت المسيحية بعد دياناتهم السابقة.

قال المسعودي في موسوعته «مروج الذهب» تحت عنوان: «الاختلاف في نسب الروم» تنازع الناس في الروم، ولأية علة سموا بهذا الاسم، فمنهم من قال: سموا روما لإضافتهم إلى مدينة رومية واسمها روماس بالرومية، وعرب هذا الاسم فسمي من كان بها روما، وكذلك الروم في لغتهم لا يسمون أنفسهم ولا يدعوهم أهل الثغور إلا رومينس، ومنهم من رأى أن هذا الاسم اسم للأب، وهو روم بن سماحلين بن هربان ابن عقلا بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

ومنهم من رأى أنهم سُموا باسم جدهم، وهو رومي بن ليطن بن يونان بن يافث بن بريه بن سرحون بن رومية بن مربط بن نوفل بن روين بن الأصفر بن النفر بن العيص ابن إسحاق بن إبراهيم عليمه السلام وقد قيل من الوجوه غير ما ذكرنا، وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب في باب اليونانيين نسب الإسكندر واتصاله بهذا النسب، على ما ذكره الناس في ذلك، والله أعلم. [1]

وقد وُلد للعيص ثلاثون رجلًا، فالروم الآخرة بنو الأصفر بن النفر بن العيص ابن إسحاق، وقد ذكر جماعة ممن سلف من شعراء العرب قبل ظهور الإسلام ذلك لاشتهار ما وصفنا فيهم: منهم عدي بن زيد العبادي حيث يقول:

وبنو الأصفر الكرام ملوك الـــرو م لـــم يـبـــق منهـــم مذكـــور

وقد كان العيص بن إسحاق، وهو عيصو قد تزوج من بنات الكنعانيين، فأكثر أولاده منهم، وقد قيل: إن العماليق وهم العرب البادية الذين كانوا بالشام من ولد النفار بن عيصو، وكذاك رعوئيل بن عيصو وهذا ما لا ينقاد إليه علماء العرب إلا في الروم دون ما ذكرنا من العماليق وغيرهم، وهذه الأنساب كلها تتعلق بما في التوراة وغيرها من كتب العبرانيين.

1- مروج الذهب للمسعودي.

وعن أول ملوك الروم قال المسعودي: وغلبت الروم على ملك اليونانيين لأخبار يطول ذكرها ويتعذر في هذا الكتاب شرحها، وكان أول من ملك من ملوك الروم فيها ساطوخاس، وهو جاليوس الأصغر بن روم بن سماحليق، فكان ملكه اثنتين وعشرين سنة، وقد قيل: إن أول من ملك من ملوك الروم قيصر، واسمه غالوس بن كوليوس، ثمان عشرة سنة، وفي نسخة أخرى أن أول من ملك من ملوك الروم بعد اليونانيين توليس، سبع سنين ونصفًا، وكانت مدينة رومية بنيت قبل الروم بأربعمائة سنة. [1]

ثم ملك بعده أغسطس قيصر، ستًّا وخمسين سنة، وهذا الملك هوأول من سُمي من ملوك الروم قيصر، وهو الثاني من ملوكهم، وتفسير قيصر بُقر أي شُقَّ عنه، وذلك أن أمه ماتت وهي حامل به فَشُقَّ بطنها فكان هذا الملك يفتخر في وقته بأن النساء لم تلده، وكذلك من حدث بعده من ملوك الروم ممن كان من ولده يفتخرون بهذا الفعل وما كان من أمهم، فصارت سمة لمن طرأ بعده من ملوك الروم، والله أعلم. [2]

وغزا هذا الملك الشام ومصر والإسكندرية، وأزال من بقي من ملوك الإسكندرية ومقدونية، وقد قدمنا أن كل ملك كان يلي مقدونية والإسكندرية يسمَّى بطليموس، واحتوى هذا الملك - أعني أغسطس - على خزائن ملوك الإسكندرية ومقدونية، ونقلها إلى رومية، وكانت له حروب كثيرة في الأرض، وكان يعبد الأوثان، وبنى بأرض الروم مدنًا وكوَّر كورًا نسبت تلك المدن إليه: منها قيسارية، وكذلك بالشام بساحل فلسطين مدينة قيسارية، وكان مولد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام بها، وهو يسوع الناصري على حسب ما قدمناه، لاثنتين وأربعين سنة خلت من ملك قيصر أغسطس هذا، فكان من ملك الإسكندر إلى مولد المسيح ثلثمائة وتسع وعشرون سنة، ورأيت في مدينة أنطاكية في بعض تواريخ الروم الملكية في كنيسة القسبان أنه كان من ملك الإسكندر إلى مولد المسيح ثلاثمائة سنة وتسع سنين، وكان مولد

1- المصدر السابق.

2- المصدر السابق.

يسوع الناصري لإحدى وعشرين سنة خلت من ملك هيرثوس ملك بني إسرائيل في ذلك العصر بإيليا من بلاد فلسطين، وهي أورشليم بالعبرانية، فمن هبوط آدم إلى مولد المسيح في تواريخ أصحاب الشرائع من أهل الكتب خمسة آلاف وخمسمائة وخمسون سنة. وأقام أغسطس وهو قيصر ملكًا بعد مولد المسيح أربع عشرة سنة ونصفًا وكان مدة ملكه على الروم برومية وفي سائر أسفاره ستًّا وخمسين سنة، على حسب ما قدمنا من موته ولسع الحية إياه بمقدونية، وجفاف نصفه، وذهاب سمعه وبصره. (1)

* * *

1- انظر كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر وهوكتاب في التاريخ، تأليف: أبي الحسن بن علي المسعودي، يبدأ بالخليقة وينتهي بعد الخليفة العباسي المطيع لله 973.

بنو الأصفر

وكان العرب يطلقون على الروم المحتلين لبلاد الشام (بني الأصفر) وجاءت هذه التسمية لهم في الأحاديث النبوية في أحاديث آخر الزمان وأشراط الساعة، وكذلك في السيرة النبوية.

روى البخاري وابن ماجه وأحمد عن عوف بن مالك قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من أدم فقال: اعدد ستًّا بين يدي الساعة.. موتي ثم فتح بيت المقدس ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم ثم استفاضة المال حتى يُعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية (راية) تحت كل غاية اثنا عشر ألفًا.

وفي رواية مسلم -في صحيحه- حديث أبي هريرة، رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق؛ فيخرج إليهم جيش من المدينة، من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم: خلو بيننا وبين الذين سَبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا فيقاتلونهم... الحديث».

ذكر ابن كثير رحمه الله في تفسيره لسورة التوبة بسنده عن رسول الله ذات يوم وهو في جهازه «لغزوة تبوك» للجد بن قيس أخي بني سلمة: «هل لك يا جد في جلاد بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله أوَ تأذن لي ولا تفتنى؟ فو الله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجبًا بالنساء منى، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك».

فجاءه ابنه عبد الله بن الجدِّ، وكان بدريًّا، وهو أخو معاذ بن جبل لامّه، فقال لأبيه: «لِمَ تردّ على رسول الله مقالته؟! فو الله ما في بني سلمة أكثر مالًا منك! ولا تخرج «مع رسول الله» ولا تحمل أحدًا «أي ولا تدفع حصانك وبعيرك إلى آخر فيخرج مع رسول الله»؟!» قال «الجدّ»: «يا بنيّ! ما لي وللخروج في الريح والحرّ والعسرة إلى بني الأصفر؟ والله! ما آمن خوفًا من بني الأصفر؛ وإنّي في منزلي بخربي! فأذهب إليهم فأغزوهم! إنّي والله يا بنيّ عالم بالدوائر!»

فأغلظ له ابنه، فقال: «لا والله، ولكنّه النفاق! والله لينزلنّ على رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- فيك قرآن يقرأونه!» ونزل فيه قول الله -تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 49]، فقال جد بن قيس: قد علمت الأنصار أني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتتن، ولكن أعينك بمالي فنزلت: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾. الآية.

وذكر الحافظ ابن حجر العسقلاني [1] أن الروم من ولد النبي عيص بن إسحاق بن إبراهيم، ويقول أيضًا: وفيهم بعض العرب من تنوخ وبهراء وسليح وغيرهم.

وذكر أيضًا أنه قيل للروم بني الأصفر لأن قيل جدهم روم بن عيص تزوج بنت ملك الحبشة فجاء لون ولده بين البياض والسواد فقيل له الأصفر، وقيل لأن جدته سارة زوج إبراهيم عليه السلام حلته بالذهب فسمي أصفرَ.

وهناك من يقول إن الروم ليسوا من نسل إبراهيم، بل هم موجودون قبله بقرون طويلة. وهم ينتمون لمجموعة عِرْقية مختلفة تمامًا. فإبراهيم كلدانيٌّ ينتمي إلى مجموعة الشعوب السامية التي خرجت من الجزيرة العربية. بينما الروم ينتمون إلى مجموعة الشعوب الهندو-أوربية وبخاصة العرق الآري. وإنما سموا بني الأصفر لشعرهم الأشقر «الأصفر».

1- فتح الباري 1 / 40.

ولكن هذا القول خلط بين أصول ونسب سكان أوربا وأصول ونسب الروم الذين هم جزء منه فليس كل سكان أوربا قديمًا وحديثًا من الروم، فهم من أعراق مختلفه من داخل القارة ومن خارجها.

والأبحاث التأريخية تشير أيضًا إلى أن الشعب الروماني القديم لا يعود بأصله إلى الشعب اليوناني، بل إلى عدة شعوب هندو اوروبية كان أبناؤها قد استوطنوا المنطقة الوسطَى من إيطاليا، اعتبارًا من بداية الألف الثاني قبل الميلاد.

ويعتقد أن أحد هذه الشعوب، هو الشعب اللاتيني الذي أسس مدينة روما في القرن الثامن قبل الميلاد، ثم بسط نفوذه على الشعوب المجاورة، من «السابين» «والأترورريين» حتى تبلور في إيطاليا الشعب الروماني المعروف.

ويشار إلى أن الروايات القديمة تعيد أصل الشعب الروماني إلى سلالة أحد أفراد الأسرة المالكة في مدينة طروادة، الذي التجأ إلى إيطاليا بعد تدمير مدينته على أيدي اليونان في القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

إلا أن المؤرخين يستبعدون ذلك، استنادًا إلى أن المنطقة الوسطى من إيطاليا، ولا سيما منطقة نهر التيبر، حيث نشأت روما، كانت مأهولة خلال تلك الفترة بأبناء الشعوب الأخرى.

وأما من الناحية السُّكانية فقد استوطن القارة الأوربية شعوب عدة أهمهم الإغريق والإيطاليين والجرمان فقد أثرت شعوب مختلفة في تاريخ أوربا القديم والوسيط إلا أن التأثير الأكبر كان للرومان وحضارتهم كرمز للحضارة الأوربية القديمة، وقبائل الجرمان الذين كان لهم الدور الأكبر بتاريخ أوربا الوسيط وحتى بدايات العصر الحديث، بالرغم من التباين الحضاري الكبير بين المجموعتين.

1- **الإغريق**: هي كلمة أطلقها العرب على سكان اليونان القدماء. وكان لهم

حضاراتهم التي تعتبر أم الحضارات في أوربا كالحضارة الرومانية ولاسيما في الفنون والفلسفة والآداب ولاسيما في مدن أثينا وأسبرطة وطيبة اليونانية. وأصل حضارتهم قد ظهرت في جزيرة كريت وميسينيا من خلال الحضارتين المينوية والميسينية.

ورغم أن الإغريق قد تبنوا فكرة الحرية والديموقراطية إلا أنهم لم يلغوا الرق ولم يحرروا العبيد.. وكانوا محاربين مرتزقة في جيوش مصر والعراق وفارس لفقر بلادهم.

وقد سكن الأراضي الإغزيقية الآخيون والدريانيون والأيونيون «اليونانيون». وهؤلاء كانوا يختلفون في اللهجة والعادات. وكان يطلق عليهم البرابرة. وقد نقلوا الأبجدية من الفينيقيين وكانت سائدة بين الكنعانيين والسوريين. وكان الإغريق ينقسمون عشائريًّا لأربع قبائل هي: الآخيون والأيونيون والدوريون والإينوليون.

ويطلق خطأ كلمة هيلينيين على اليونانيين فقط، ولكن هذه الكلمة تطلق على كل الشعوب التي خضعت لحكم الإغريق في اليونان وجزرها ومدن آسيا الصغرى وجنوة بإيطاليا وجزيرة صقلية. لأن كلمة هيلانس كان الإغريق يطلقونها على كل البلدان التي كانوا يحتلونها ولاسيما بعد فتوحات الإسكندر الأكبر.

2- **الجرمانيون أو التيتونيون:** هم -بشكل عام- الشعوب والقبائل التي تتحدث باللغات الجرمانية والتي تنحدر من نفس الأصل العِرْقي. استوطنوا المناطق المحاذية للإمبراطورية الرومانية وكانوا مصدر إزعاج دائم لها ثم لاحقًا أصبحوا أحد الأسباب الرئيسية لسقوطها.

وموطنهم الأصلي إسكندنافية وسواحل بحر البلطيق وشمال «أوربا» لكن لم يكونوا مؤثرين إلا بعد أن انقسموا وتقدموا وانتشروا وسط وغرب أوربا.

من أشهر القبائل الجرمانية قبائل القوط بفرعيها القوط الشرقيون والقوط الغربيون والفاندال والسكسونيون والأنغلوسكسونيون، واللومبارد، والفرنج، والفايكنج وغيرهم.. تشكل الشعوب الجرمانية فرع إثني ولُغوي من الشعوب الهندوأوربية يعود أصلها ومنشأها إلى أوربا الشمالية ويتميزيون باستخدامهم لغات جرمانية وأنهم ينحدرون من الجرمانيين الأوائل Proto-Germanic.

وقد انتشرت الشعوب الجرمانية المهاجرة في كل أوربا ممتزجين بالشعوب والسكان المحليين في أصقاع أوربا الأخرى «مثل الكلت وأيضًا السلاف/ الفنديون والرومان» مشكِّلين الأساس المستقبلي للأمم الأوربية المختلفة، بشكل متفاوت تترابط الشعوب الجرمانية بالتقارب اللغوي والشكل المميز، والتاريخ والثقافة.

3- **الرومان والفرنجة**: وموطن الرومان إيطاليا ومنها امتد نفوذهم الحضاري إلى الأجزاء الجنوبية من أوربا وبعض أجزاء غرب أوربا مثل بلاد الغال «فرنسا» والجزر البريطانية، لكن امتدادهم الأكبر كان المنطقة المحيطة بالبحر المتوسط سواء في أوربا أو آسيا أو أفريقيا.

وتعد الفرنجة من أهم قبائل الجرمان الفاعلة طوال العصور الوسطى.وقد انقسم الفرنجة بعد هجرتهم من موطنهم الأصلي في القرن الثاني الميلادي إلى وسط وغرب أوربا إلى قسمين الفرنجة الشرقيين «الريبواريون» والفرنجة الغربيين «السالين».

والموطن الجديد جعل الفرنجة على حدود الإمبراطورية الرومانية التي تحالفت معهم ومنحت زعماءهم بعض الامتيازات لحماية حدود الإمبراطورية من غارات السكسون، ومجاورة الرومان جعلتهم يتأثرون بالنظم الرومانية الاكثر تحضرًا على الرغم من احتفاظهم بعاداتهم القبلية، التي وضعتهم موضع ازدراء الرومان، كونهم برابرة.

وأخذ الفرنجة بالنظم الرومانية والذي ساعدهم على الاندماج تدريجيًا بالمجتمع

الروماني والتأثير في الكيان الاجتماعي للإمبراطورية الذي بدأ يزداد على حساب الضعف في الإمبراطورية فانحسر الرومان في إيطاليا، ولكن لم تسلم أيضًا من هجمات القبائل «البربرية» مما مهد لسقوط روما عام 476م مما سمح للفِرنجة أن يكون لهم الدور المؤثِّر بعد ذلك.

* * *

الأصول العربية لأوربا

الأصول الأوربية مختلطة من القبائل الأسيوية والعربية.. فقد أثبت صاحب كتاب «الجذور العربية للغة اللاتينية Le substrat arabe de la langue latine» أن سبعة وستين في المائة من كلمات اللاتينية عربية مستمدة من اللغات العروبية التي كانت أوربا تتكلم بها.

صدر سنة 2008 كتابٌ عنوانه: «العرب والهندو أوربيون Arabes et indo-europ'ens» أثبت فيه أن أوربا قبل غزوها من طرف القبائل الهندوأوربية في نهاية الألف الثانية قبل الميلاد، كانت شعوبها تتكلم اللغات العروبية كالأرامية والكنعانية والبابلية والأشورية والبربرية، حيث كانت أوربا مزروعة بمستوطنات عروبية.

ويستعمل المؤلف مصطلح arabique للتعبير عن مصطلح عروبية بدل مصطلح السامية الذي بطل استعماله بسبب مدلوله الأسطوري، ويستعمل كلمة عربي Arabe تسمية للعربية الحديثة العدنانية التي نزل بها القرآن الكريم.

وقد رفض العالم الفرنسي رينان E.Renan مصطلح السامية في كتابه المهم «تاريخ اللغات السامية» واقترح أن تعطى لها التسمية الأشورية العربية Syro-arabe. كما اقترح لايبنيتز Leibnitz الذي وُلِدَ في سنة 1646 أن تعطى تسمية عروبية للغات السامية.[1]

1- لمؤلفه عبدالرحمن بن عطية طبيب جزائري ومؤرخ له العديد من المؤلفات باللغة الفرنسية ومنها كتابه «تاريخ اللغة العربية لغة العالمين» الذي يعيد تاريخ اللغة العربية إلى جذورها، ويفصل بين اللغة العربية التي تتمثل في العدنانية-التي نزل بها القرآن الكريم وبين العروبية التي تشمل الأكدية والأرامية والكنعانية=

وفي كتابه «روما وريثة ومغتالة قرطاج»، يقول عبد الرحمن بن عطية: كانت إيطاليا قبل تأسيس الإمبراطورية الرومانية مسكونة من مجموعة من الأجناس، من شعوب تعود إلى أصل واحد، لكنها تحمل أسماء مختلفة، يتكلمون عدة لغات تعود إلى جذر لغوي واحد متفرعة إلى عدة لهجات تختلف عن بعضها اختلاف المناطق والنواحي، تشير إلى بنية لغوية أصلية غنية وتعدد المعاني للكلمات.

كتابة هذه اللغات كانت من اليمين إلى اليسار مستعملة الحروف الهجائية الكنعانية الفينيقية أي الخط العروبي الذي تتفرع منه سائر الخطوط الإيطالية والأتروسكية، يقول أرسطو: «إن القرطاجنيين «أي الكنعانيين» والأتروسك يكوّنون في الماضي أمةً واحدة.

وقد أورد هورجون J.Heurgon في كتابه «روما والبحر المتوسط الغربي» أن المنطقة التي تقع فيها هذه الأمة تمتد من مارسيليا وحتى مدينة جنوة والتي تسمى بليغوريا والتي تشمل معظم مساحة إيطاليا بما فيها منطقة روما، فالأتروسكيون جاءوا من آسيا هم ليسوا هندو أوربيين بل هم شرقيون انتشروا ابتداءً من القرن التاسع قبل الميلاد في مساحة إيطاليا بل وشمالها وحتى مرسيليا.

إن الأتروسكيين يمثلون جماعات فينيقية آتية من فينيقيا الكبرى الممتدة من شواطئ أنطوليا في شرقي البحر المتوسط وحتى شمال الرافدين إلى جنوب البحر الأسود. تنقلوا على عدة هجرات ابتداء من القرن الثالث عشر قبل المبلاد. اختلطوا بعدة جماعات لكنهم حافظوا على أساس اللغة الفينيقية والعروبية بصورة عامة.

=والأشورية والبابلية والبربرية وغيرها من اللهجات التي تفرعت عن العربية الأم. (المصدر: شبكة الهجرة مقال د. عثمان سعدي رئيس الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية- موقع القدس العربية 2005م).

مؤلفاته كلها بالفرنسية وهي:

- العرب في أوربا قبل ميلاد المسيح. - العرب أسلاف الغاليين. - العرب حاضنو الكتب المنزلة الثلاثة. - إيبيريا وبربريا. - تاريخ الاستيطان العروبي في اليونان القديم. - تاريخ العربية لغة العالمين.
- العرب والهندوأوربيون. (المصدر: موقع القدس العربية 2011/7/13 على الإنترنت).

أما العمارة الأتروسكية فهي مستمدة من العمارة المصرية والبابلية في بنائهم للقصور والمعابد والمدن والجسور والطرق وفي الفن والنحت بالحجارة والبرونز، والبناء بالآجر والطين المشوي؛ (المحروق) والنسيج كلها مستمدة من التراث العروبي.

وظهور اللغة اللاتينية جاء نتيجة للتحولات السياسية والاجتماعية التي عرفتها شبه جزيرة إيطاليا بعد تدمير إمبراطورية قرطاج وصعود الإمبراطورية الرومانية، فصارت اللغة اللاتينية اللغة المشتركة لسكان روما مثلما كانت اللغة الأتروسكية اللغة المشتركة لسائر سكان إيطاليا. لكن اللغة الأتروسكية استمرت مستعملة حتى نهاية القرن الأول الميلادي.

ولم تبرز اللغة اللاتينية كلغة أدب إلا في القرن الأول قبل الميلاد، قبل هذا التاريخ كانت النصوص الرسمية الإدارية والنصوص الدينية محرَّرة بالأتروسكية العروبية بخط يكتب من اليمين إلى اليسار.

كما كانت أوربا قبل غزو القبائل الهندو أوربية لها في 1300 قبل الميلاد كانت شعوبها تتكلم اللغات العروبية كالأكادية والآرامية والكنعانية والفينيقية والأشورية والبربرية؛ فالعروبيون لم يمثلوا جنسًا واحدًا وإنما كانوا يتكلمون اللغات العروبية التي يسميها المؤرخون الأروبيون السامية. علما بأن مصطلح السامية لم يظهر إلا في القرن الثامن عشر الميلادي.

إن اللغة اللاتينية ورثت بشكل طبيعي اللغة الأتروسكية العروبية التي كان يتحدث بها في معظم شعب شبه الجزيرة الإيطالية حتى القرن الأول الميلادي، إلى جانب لغات أخرى عروبية، وليس صدفة أن يعتز يوليوس قيصر بانتمائه إلى ترويون آسيا الصغرى إلى إيني الذي «يعبر بطريقة أسطورية عن ديانات الأتروسك الشرقية» «كما ذكر معجم روبير الصغير الموسوعي»، وأن يعتز مالابارت C.Malaparte

الكاتب الإيطالي المعاصر بانتمائه للأتروسك، وأنه يعتبر مؤلفات دانتي زهرة الأدب الأتروسكي.. وكذلك إسكندر المقدوني الذي تعتبر أصوله عروبية. [1]

وهذا يؤكد رأي ابن عطية أن الأتروسك، والرومان، والكوزاك، والليبيين الفينيقيين، والإيبيريين البربر، يعودون إلى أصل واحد.

قبل تأسيس الإمبراطورية الرومانية كان الرومان يعتبرون أنفسهم أتروسك. حتى القرن الثاني قبل الميلاد كان تعليم الأحكام الأتروسكية تحت حماية مجلس الشيوخ الروماني «حسبما ذكر شيشرون Cic'ron» بحيث كانت اللغة الأتروسكية هي الرسمية بإيطاليا إلى أن حلت محلَّها اللاتينية، ففي أثناء الحرب البونية الثانية كانت المدن الأتروسكية تتعامل بعملة عليها صورة القائد القرطاجي حنًّا بعل.

ذكر عثمان سعدي صاحب كتاب «الجزائر في التاريخ» «إنه لدى عودة أسرى الحرب الرومان لروما، رووا عجائب عن المستوى الحضاري الراقي الذي شاهدوه في مدينة قرطاج، رووا عن ستائر الزجاج المغزول، ومجامر البخور الفضية، والحمامات البخارية المعطَّرة، وفي ذلك العام أي سنة 200 ق.م أمر مجلس الشيوخ ببناء أول حمام عمومي بروما وفقا لرسومات هؤلاء الأسرى العائدين».

وهذا يؤكد أن روما كانت تعتبر نفسها تلميذةً حضاريَّةً لقرطاج الكنعانية، الأمر الذي لا يتناقض مع الأصول الشرقية الأتروسكية لروما. وحتى يقضي الرومان على هذا العنصر التاريخي بريادة قرطاج الكنعانية بالبحر المتوسط حضاريًّا وثقافيًّا دمروا قرطاج سنة 146 ق.م. ثم جاء المؤرخون الأروبيون فأسسوا الحضارة الحديثة على الثقافة اليونانية اللاتينية مسدلين ستارًا من التعتيم على الجذور الشرقية العروبية لأوربا نفسها.

فعندما اكتشف (العلماء الفرنسيون والبريطانيون) اللغة (السنسكريتية) في الهند

1- انظر معجم روبير الموسوعي.

بالقرن الثامن عشر الميلادي وتبين قرب اليونانية منها سخطوا بل وذهبوا إلى نكرانها لأنها تبين الجذور الشرقية للغة اليونانية.

ويلخص ابن عطية كتابه فيقول:

في أكثر من ألفي سنة قبل الميلاد، وجدت دولة كبرى، أول دولة بأوربا تمتد من شواطئ البحر المتوسط بما في ذلك إبطاليا، وحتى بحر البلطيق، إنها دولة الليغور «Ligure» أو الدولة «الليبية الإيبيرية»، دولة تتكلم فيها شعوب لغة ليست الهندو أوزبية. وقبيل حلول المسيحية اختفت هذه الإمبراطورية الليبية الأوربية المنتمية لقرطاج، والتي كانت تمتد إلى جنوب البحر المتوسط أيضا، شاملة لسائر الحوض البحر المتوسط، بما في ذلك جزره الكبرى صقلية، وسردينيا، وكورسيكا، فحلت محلها الإمبراطورية الرومانية، بعد تدمير قرطاج من طرف روما في 146 ق.م. كل المؤرخين يعترفون أنه وجدت الإمبراطورية الأتروسكية بإيطاليا ككيان مموحد لإيطاليا قبل تأسيس روما في 753 ق.م. والأتروسك يتكلمون لغة غير هندوأوربية ويستعملون كتابتها من اليمين إلى اليسار.

لكن معظم هؤلاء المؤرخين الأوربيين لا يعترفون بوجود مجموعات بشرية أصيلة عروبية في شبه الجزيرة الإيطالية فينيقية، ليبية، إيبيرية وغيرها... بالرغم من أن أرسطو أكد «أن القرطاجيين والأتروسك كانا في الماضي أمةً واحدة». ويكتب كلي ريدان S.Cl's-Reden «إن سكان شبه جزيرة إيطاليا الأولين ينتمون إلى جنس بحر متوسطي عائدة أصوله إلى الإيبيريين وإلى شعوب شمال أفريقيا».

وهذا ما أكده المؤرخ الفرنسي بيير روسي Pierre Roi في كتابه «وطن إيزيس: تاريخ العرب الصحيح La Cit' DIsis:Vraie histoire des Arabes»، الذي طُبع سنة 1976 بباريس: تعقب الحضارة الإنسانية من خلال اللاهوت والمعتقدات الوثنية والمنزَّلة منذ آلاف السنين، وأثبت حقيقة أن جذور الحضارة الإنسانية وبخاصة في

مهدها بالبحر المتوسط كانت عربية: فهو يقول: «أن الثقافة اليونانية والثقافة الرومانية اللاتينية ما هما إلاّ شرفة صغيرة في صرح الثقافة العربية الكبير، وأن النزعة التعصبية الأوربية أخفت هذه الحقيقة لتبرز زورًا أن جذور الحضارة الأوربية يونانية».

وقد ذكر وول ديورانت صاحب موسوعة قصة الحضارة فضل الكنعانيين الفينيقيين العروبيين على البشرية وعلى أوربا بالذات فقال: أقاموا لهم حاميات في نقط منيعة على ساحل البحر المتوسط، أقاموها في قادز، وقرطاجنة، ومرسيليا، ومالطة، وصقلية، وسردانيا، وقورسقة، بل وفي إنجلترا البعيدة. واحتلوا قبرص، وميلوس، ورودس، ونقلوا الفنون والعلوم، من مصر، وكريت، والشرق الأدني، ونشروها في اليونان، وفي أفريقيا، وإيطاليا، وإسبانيا؛ وربطوا الشرق بالغرب بشبكة من الروابط التجارية والثقافية، وشرعوا ينتشلون أوربا من براثن الهمجية.

فالفينيقيون الكنعانيون لم يقتصروا على أوربا كما يقول ديورانت، بل وصلوا إلى أمريكا في القرن السادس قبل الميلاد وتركوا آثارًا في أمريكا منها حضارة مايه، فقد اكتشف نقش البرازيل الكنعاني الفينيقي في مدينة باراإيبا سنة 1874 يثبت أنهم وصلوا لأمريكا ولم يعودوا.

بل إن المؤرخ الأمريكي ويليام لانجر يرى في موسوعة تاريخ العالم أن أصول سكان جنوب أوربا عروبية فيقول: «وانتشر فرع من عناصر البحر المتوسط والصحراء، الطويلة الرؤوس وأقاربهم من العرب والبربر وغيرهم في جنوب أوربا وشمال أفريقيا والشرق الأدنى».

وذكر عبد الرحمن بن عطية في كتبه -عن وجود مستوطنات عروبية- حدثت في اليونان القديم اشتقت من لغاتها اللغة اليونانية. وقد أكد هذه الحقيقة المؤرخ الفرنسي بيير روسي في كتابه «وطن إيزيس تاريخ العرب الحقيقي»، ومن اللغة اليونانية انطلقت اللاتينية التي تأسست في القرن الثالث قبل الميلاد.. فاللغة اللاتينية أُخذت من اللغات

العروبية قبل الإسلام، بينما اللغات الأوربية الحديثة أخذت من العربية من الأندلس العربي المسلم.. فاللغة الفرنسية التي ظهرت في القرن الثاني عشر الميلادي تأثرت كثيرا باللغة العربية.

جوستاف لوبون G.Lebon في كتابه الحضارة العربية يرى «أن الأشورية، والكلدانية، والفينيقية، وغيرها من اللغات التي يقال عنها سامية تنحدر كلها من أصل واحد».

في كتابه «تاريخ الاستيطان العروبي في اليونان القديم» بين ابن عطية أن بلاد اليونان سُكنت من العروبيين واستشهد بالعديد من المؤرخين الأوربيين الذين يؤكدون أن الجماعات التي سكنت اليونان القديم لم تكن هندوأوربية وإنما شرقية.. وقد استعرض كلمات مثل: ward,wrodan تعني زهرة وهي التسمية العربية ورد.. وكلمة borg وتعنى القلعة أو المدينة وهي الكلمة العربية برج. وكلمة sami وتعني المكان المرتفع، وهي كلمة عربية سامي، ويقول ابن عطية فقد خلصنا في كتابنا بأن اليونانية القديمة لغة عروبية. ويقول المؤرخون إن اليونان القديم لم تكن فيه لغة واحدة وإنما عدة لغات وكل واحدة منها تنتمي إلى استيطان معين: أشوري، كنعاني، مصري وغيرها.. وعلى كل فالعديد من الكلمات العربية ثبتت في اليونانية الكلاسيكية بعد بروز الكوينية koin»سواء بأسلوب مباشر أو بأسلوب محجب بكتابة محرَّفة لفظيًّا ككلمة وازيس oasis وتعني واحة حرفت قليلًا. فالحاء تتحول إلى سين.

وعن طريق اليونانية الكلاسيكية دخل العديدُ من الكلمات العربية «القاموس اللاتينية». وعلى الخصوص وجود مجموعات عروبية بشبه الجزيرة الإيطالية.

* * *

أباطرة الرومان عربيون

بصقلية والتي اعتبر أفرادها صقليين أصلاء قبل قرون عديدة من مجيء القبائل الهندو أوربية؛ في هذه الفترة ترسخت الكلمات العروبية في لغة روما. سكنت صقلية في القدم قبل غزو القبائل الهندو أوربية من طرف العيلم الذي قال عنهم كورتيوس E.Curtius في كتابه التاريخ اليوناني، بانهم آسيويون ولهذا فعندما جاء الفينيقيون لصقلية رحب بهم سكانها لأنهم ينحدرون من أصل واحد وهوالأصل العروبي سكنت إيطاليا من طرف الليغور والإتروسك، وهما شعبان غير هندوأوربيين. الليغور كانوا بحارة مهرة وحسب العديد من المؤرخين فإن الليغور ينتمون إلى جنس واحد مع الفينيقيين.

أما دوتان G.Dottin فيرى بأن الليبيين «البربر الأمازيغ» الذين سكنوا إيبيريا التي وصلت في انتشارها حتى نهر الرون الذي يعتبر حدود ليبيا كما يرى فيلياس Phileas، ففرعان من «نهر الرون» كانا يحملان اسم ليبيكا، ومدينة في لوزيتانيا «البرتغال الحالية» تحمل اسم ليبيا إلخ... فدوتون يقول: «إن الليغور هم بربر أيبير وإمبراطوريتهم كانت تمتد حتى وسط إيطاليا»، ومن المعلوم أن تسمية نهر الرون في أصلها رودانوس وإذا حذفنا اللاحقة اليونانية «س» يصير الاسم رودان أي نسبة لنهر الأردن في بلاد كنعان.. ويؤكد المؤرخون الأوربيون بأن الإيبر ما هم إلا بربر أمازيغ هاجروا من أفريقيا إلى جنوب أوربا ويسمونهم اللوبيون الفينيقيون.

أما الإتروسك فجِذر التسمية عروبي «بربري» وهو إسك وتعني قرن، ينتمون

للعروبيين، وهم من أصل واحد مع الفينيقيين الذين يقول عنهم غوستاف لوبون: «وعن طريق قوافل اخترقت جرمانيا يستقبل الفينيقيون في مدخل نهر (بو) ما يصلهم من شواطئ البلطيق».

وهذا يؤكد أن الفينيقيين تمركزوا في وسط أوربا في نواحي نهر الدانوب وبلاد إيليريا بالبلقان.. هم تمركزوا في مالتا في القرن الثالث عشر ق.م. وفي سردينيا وقادس بإسبانيا في القرن الحادي عشر. فقاموس «لاروس» الكبير الموسوعي يقول «إن الفينيقيين انتشروا في صقلية وإيطاليا وغالا».

ويضع عبد الرحمن بن عطية فصلًا عنوانه: «في روما: أباطرة وبابوات من أصل عروبي هو انعكاس ورمز لاستيطان». يقول عندما غزت القبائل الهندو أوربية أوربا كان أفرادها يمثلون أقلية بالنسبة للمواطنين الذين كانوا ينتمون للعالم العروبي: من آسيا «من الرافدين، من الفينيقيين، من الأناضول، وغيرها...». ومن أفريقيا «مصر، بربر»، كل هذه الشعوب كانت تتكلم لغات عروبية. فمع بداية التاريخ الميلادي حكم روما أباطرة عروبيون: تراجان Trajan سنة 97م، ويستمر حكم الأباطرة العروبيين حتى 249م فالإمبراطور سبطيم سفير Septeme severe الكنعاني، زوج جوليا ابنة كاهن في حمص بسوريا، حكم العالم من مدينة لبدة الليبية الكنعانية وابنه كاركلا. وقد حكم أباطرة بربر إيبيريون عروبيون روما مدة 116 سنة مستمرة. كما تولَّى البابوية ثلاثة من البربر وإيبيري سيَّروا الكنيسة الكاثوليكية، الأول فيكتور الأول ابتداء من 189 م، وآخرهم جيلاس الأول من 492 إلى 496م. وعروبيون آسيويون أعطوا لروما أباطرة: فيليب العربي الذي حكم بين 244 و249م. وستة بابوات سوريون.

هذا كله يبين الدور الكبير الذي لعبه العروبيون الذين كانوا يمثلون شعوبًا كاملة تعيش بأوربا وبخاصة بشبه جزيرة إيطاليا، الذين وضعوا أسس اللغة اللاتينية المليئة بالكلمات العربية التي تعود إلى المرحلة العروبية.

الإتروسك العروبيون السابقون بإيطاليا:

يتفق الكثير من المؤرخين الأوربيين على أن شعب الإتروسك هو الذي عمَّر إيطاليا منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وكانوا يمثلون إمبراطورية كبرى تمتد من جبال الألب وحتى خليج طارانت. (1)

فكاتون Caton يقول: «إيطاليا كلها تقريبا كانت مملوكة للإتروسك».

والمؤرخون يؤكدون أن اللغة الإتروسكية لغة شرقية من آسيا الصغرى. كانت اللغات العروبية هي السائدة بإيطاليا واليونان قبل بناء اللغة الرومانية، فقد اكتشفت في مارسيلينا لوحة إتروسكية منقوشة على عاج بكتابة تعود إلى 700 سنة ق.م. تكتب من اليمين إلى اليسار. وقد ثبت أن الإتروسك استعملوا الكتابة الكنعانية الفينيقية مع إضافة ثلاثة حروف لها، وهذا يثبت أنهم كانوا يتحدثون لغة عروبية «سامِية»، والمؤرخون الأوربيون متفقون على أن اللغة الإتروسكية ليست لغة هندوأوربية، فعندما يستعملون في كتاباتهم الكتابة الفينيقية معنى هذا أن لغتهم شقيقة للكنعانية الفينيقية ترتكز على الصوتيات العروبية. (2)

* * *

1- هؤلاء المؤرخون هم: جارد A.Jarde، وهومو L.Homo، وكريستول M.Christol، ونوني D.Nony.

2- المصدر السابق (مؤلفات عبدالرحمن بن عطية بالفرنسية).

قبائل السلت «الكلت» وأصول الأوربيين

شهدت المنطقة العربية حضارات وأقوامًا وأعراقًا وخاصة بلاد الشام مثل العناقيين والرفائيين والحتيين وغيرهم ومعظم الروايات المأخوذة على هؤلاء الأقوام أخذت من روايات العهد القديم ولكن القرآن الكريم تحدث عن القوم الجبارين في معرض الحديث عن قصة بني إسرائيل وخورجهم من مصر زمن موسى عليه السلام في سورة المائدة.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

[المائدة: 20 - 22]

وهؤلاء الجبارون عُرفوا في الوقت نفسه بالعناقيين الرفائيين، وكل هؤلاء مرتبطون بالحقبة «السلتية» أو الحضارة «السلتية/ الكلتية» والحقبة السلتية سابقة على الحقبة الكنعانية أومواكبة لها.

يقول عبدالرحمن غنيم في كتابه الموسوعي «الحقبة الكلتية في التاريخ العربي»: إن الحقبة الحضارية السلتية، هي بالنسبة لكثير من البلدان الأوربية، من شرق أوربا إلى البلدان، تسبق فترة الحضارة الميغاليثية الغامضة، والتي يرى المؤرخون أيضًا أنها بدأت من فلسطين «أي بلاد الشام»، ويبدو أن الأمر بالنسبة لبلاد الشام أيضًا لا يختلف

عن تلك الصورة، سوى أن تَوَضُّع هذه الحضارة عندنا كان هو الأقدم أو لنقل نقطة البداية فثمة حقبة عناقية «سلتية» سابقة على الحقبة الكنعانية أو مواكبة لها، عرفت عندنا تحت اسم العناقيين ولكن ضمن إطار ضيق وغامض، ومعظم ما يتضمنه هذا الإطار الضيق مستمد من التوراة.

وأضاف: وتتجه الأبحاث عندنا بشكل عام إلى البحث في الأصول الكنعانية والأكادية والآرامية والسريانية للتسميات، وقد يحدث أن يُشار إلى مواقع معيَّنة بإنها عناقية ولكن دون أن يتوفر معيار لتحديد ما هو «عناقي» أو الربط بين العناقي والسلتي، لأن التعريف بالعناق في حدِّ ذاته ليس موجودًا، ولأن الربط بينه وبين السلت ليس قائمًا، لأن السمات شبه العربية أو العربية للتسميات العناقية تجعلها تبدو أكثر حداثة، بينما هناك أيضًا مفردات سلتية ينظر إليها الباحثون على أنها تنتمي إلى: اللغات الهندو-أوربية.

ولكن لو حدث الربط بين العناق والسلتي، وأعيدت قراءة تاريخنا على أساسه، فإن بابًا واسعًا سيفتح على مصراعيه أمام البحث التاريخي، سواء بالنسبة لنا أو الباحثين الأوربيين. (1)

ومن خلال دراسة التسميات السلتية بأنواعها نجد أن العناقيين السلت هم القوم الجبارون الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم، فقد ورثوا جينات الأبطال العماليق وأعطوا لمظاهر الطبيعة أسماء آلهتهم وأبطالهم العظام وأسماء مدنهم قبل أن يهاجروا إلى أوربا فيما بعد في أكثر من موجة للهجرة وسيطروا على ثلاثة أرباع القارة الأوربية قبل الميلاد وقد ثبت ذلك من خلال فحص الحمض النووي (DNA).

وعرف شعب السليتيين باسم الهيبريوريين أو شعب الكلت (Celt) وهو اسم

1- موسوعة الحقبة الكلتية في التاريخ العربي - عبدالرحمن الغنيم.

قيل إنه مشتق من جذر كلمة تعني «بطل» ظهر في كتابات الجغرافي هيكاتيوس (Hecateaush) حوالي عام 500 قبل الميلاد.[1]

والمعلومات اتي تخص طبيعة ورحلات ومعارك هذا الجنس السلتي تشير إلى أنه جنس عالي التنظيم، وتشير إلى أنهم شكلوا مجموعة ثقافية متميزة في وقت مبكر يعود إلى عام 2000 ق.م.[2]

ويخبرنا التاريخ أنه كانت هناك مجموعتان سلتيتان رئيستان: واحدة منهما يشار إليها بـ «سلت الأراضي المنخفضة» الذين جاءوا من إقليم الدانوب، وهؤلاء الناس غادروا مراعي وطنهم حوالي 1200 ق.م وشقوا طريقهم ببطء عبر أوربا، ممثلين في نزلاء البحيرة في سويسرا ووادي الدانوب وإيرلندا، وكانوا مهرة في استعمال المعادن، كما عملوا في الذهب والقصدير والبرونز، وخلاف للعرق السلتي المألوف بشكل أكبر، فإن هؤلاء الناس كانوا من جنس متمرس في الزراعة وصاروا رعاة وحراثين وحرفيين وكانوا يحرقون موتاهم أكثر من دفنهم في الأرض.

وقد امتزجوا مع الشعب الميجاليثي الذي استقروا في وسطه، مركزين بقوة على الديانة والفن والعادات التي قاتلوا باسمها وهم ينتشرون ببطء في اتجاه الغرب.[3]

وهؤلاء «السلت» كانوا قوم حرب وقتال، وكان عندهم نظام طبقي، وغزوا روما ودلفي ومعظم أوربا والجزر البريطانية واحتلوا أراضيَ شاسعة تشمل حسب التسميات الحديثة شرق أوربا واليونان وأسبانيا وشمال إيطاليا وأوربا الغربية وأيرلندا وإسكوتلندا وويلز وإنجلترا، وكانوا أصحاب ثقافة غير مدونة يحافظون على تاريخهم وآدابهم بتعاليم شفوية.[4]

1- المصدر السابق: نقلًا عن السيدة موري هوب (السحر السلتي العملي).

2- قاموس الآلهة والأساطير - د. إذارارد وآخرون - المصدر السابق.

3- الحضارة الفينيقة - سبنينو موسكاتي.

4- الموسوعة الفلسطينية مجلد2، ص 469.

والصورة الكلاسكية المأخوذة عن الشعوب السلتية تصف رجالًا ونساءً برابرة يرتدون جلود الحيوانات ويعيشون في قرى بدائية وكانوا يعيدون آلهة غريبة وحياتهم غارقة في الدموية.

ولم يكن «السلت» هم وحدهم الذين سكنوا القارة الأوربية قديمًا قبل الميلاد بل كان هناك الشعب الجرماني وقبائل التبوتو «القوط» القادمون من الشمال الأوربي وقد حلوا محل «السلت».

وقد أخذ اسم بلجيكا «دولة بلجيكا» مثلًا من اسم قبائل الكلت المسماة بالبلجي، وثلج أيضًا اسم صنم كانَ في عميرة وغفيلة من عنزة بن ربيعة.

وهناك أسماء لمدن عربية اشتقت اسمها من كلمات سلتية/ كلتية مثل بلجان وهي قرية بين البصرة وعبادان وبلجان من قرى مرو بطهران والفالوجا بلدة فلسطينية في غزة وقالواجا في لبنان، وكذلك أعطى السلت «إسكوتلندا» اسمها. [1]

وهكذا فإن قبائل السلت/ الكلت التي سكنت أرض العرب والشام قد رحل منهم الكثير إلى القارة الأوربية وكونوا النسيج الأوربي أو شاركوا في تكوينه قبل الميلاد؛ وإن قبائل الغال من أصول السلت أيضًا.

لقد عاش السلت «الكلت» كقبائل محاربة، تكثر الاقتتال فيما بينها ومع جيرانها من الشعوب الأخرى، وعرفوا صناعة الحديد، فاستخدموه في أسلحتهم وأدواتهم الزراعية. كما امتهن الكلتيون الزراعة وأتقنوها.. وفي حدود العام 800 قبل الميلاد كانوا يسيطرون على معظم وسط أوربا وشرقيها ووصلوا إلى هضبة الأناضول، واحتلوا إسبانيا بحدود 700 قبل الميلاد، وبريطانيا بحدود 480 قبل الميلاد.

لم يترك الكلت وثائق مكتوبة أو منقوشة تحكي تاريخهم، فلم يعرفوا الكتابة،

1- انظر معجم البلدان - ياقوت الحموي.

وكل ما يتوفر عنهم ما سجله جيرانهم من الحضارات الأخرى التي احتكوا بهم، وفي طليعتهم الرومان.

ففي حدود عام 400 قبل الميلاد انحدرت مجموعة من الكلت من جبال الألب باتجاه حوض نهر البو في شمال إيطاليا، حيث أزاحوا أهل المنطقة، الأمر الذي دفع روما لإرسال موفدين للتفاوض مع الكلت. ولما فشلت المفاوضات لإصرار الكلت أن قوتهم العسكرية تتيح لهم الحصول على كل شيء بما في ذلك الأرض، عند ذلك انحاز الرومان للقتال ضد الكلت. انتهى الصراع بحصار روما لمدة سبعة أشهر فاوض الرومان محاصريهم على ألف رطل من الذهب، حيث تم جمعها من أهالي المدينة بصعوبة بالغة.

لقد كان اتفاقًا مُهينًا لروما، ففي أثناء وزن الذهب اتهم الرومان الكلت بالغش في الوزن. عند ذلك رمى قائدهم برينوس سيفه في الميزان قائلًا «الخزي للمهزوم».

استطاع أهالي روما بالتعاون مع حلفائهم إعادة بناء روما كمدينة حصينة وتنظيم صفوفهم وطردِ الكلت من إيطاليا وحوض نهر البو في نهاية صراع طويل استغرق مائتي عام، عرف الكلت في فرنسا باسم الغال، حيث أعطوا هذا الاسم للبلاد نفسها.

استمر الصراع بين الرومان والكلت ففتحوا بلاد الغال في زمن يوليوس قيصر في العام 50 ق م. كما فتحوا معظم الجُزُر البريطانية. ولم يتبقَّ للكلت من وجود مستقل إلا أيرلندا، بعد أن خسروا أقاليم أخرى لشعوب أخرى.

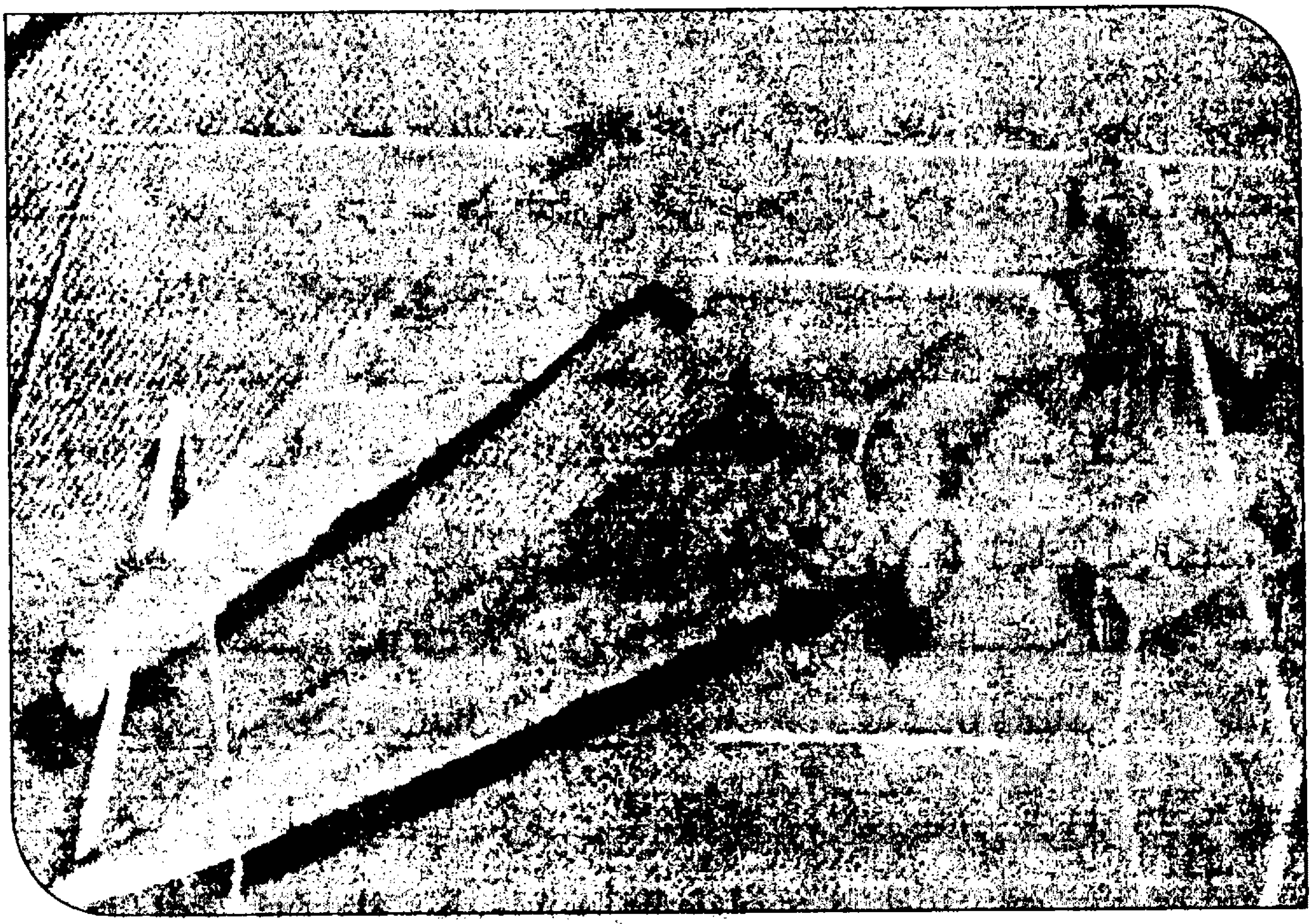
خلد الرومان حروبهم الغالية بقطعة نقد من زمن يوليوس قيصر، حيث يظهر رسم لمحارب غالي «كلتي» بشعره الطويل الممشط إلى الخلف ووجهه الحليق، بينما تظهر صورة القيصر على الوجه الآخر. وهذا نهج غريب.

ترك الكلت أثرًا كبيرًا في تكوين أوربا رغم ذوبانهم الكامل في شعوبها التي ظهرت

تباعًا تحت مسميات مختلفة؛ فالمؤثرات اللغوية قوية جدًّا وتتراوح من وجود أعداد كبيرة من المفردات في لغات أوربا الحديثة إلى أمومة كاملة لبعض هذه اللغات مثل اللغتين الأيرلندية والأسكتلندية.

كما تربط الكلت علاقات حضارية مع الشعوب التي هاجرت من أوربا إلى حوض نهر السند، حيث أثبت الباحثون وجود هذه العلاقة لوجود جذور لغوية مشتركة وتشابه في المعتقدات الدينية.

* * *



خنجر كلتي، عثر عليه في بريطانيا.

السلت في التاريخ البريطاني

لا شك أن عدم وضوح بداية تحديد هوية من كان يعيش على الجزر البريطانية بالعصور الغابرة من فترة ما قبل التأريخ أمر طبيعي.. لولا أنه تم اكتشاف مستعمرة بشرية تعود للعصر الحجري بجزيرة أوركني بشمال اسكتلندا تشير إلى وجود نوعٍ من أنواع الحياة البشرية الحضرية بتلك الحقبة التي تم تحديدها ما بين 3100 قبل الميلاد إلى 2500 قبل الميلاد. فتم اعتبار تلك المنطقة مكانًا أثريًّا ترعاه اليونيسكو.

من المعروف تاريخيًّا أن بريطانيا كانت تقع ضمن الثقافة السلتية أو الكلتية التي كانت منتشرة بعموم الغرب الأوربي ما قبل وقوع الثقافة السلتية فيما بين مطرقة الإمبراطورية الرومانية وسندان القبائل الجرمانية البربرية شديدة البأس.

وما هو مؤكد أن بريطانيا تعرضت لاحقًا لقدوم العديد من الزوار الذين بسطوا هيمنتهم عليها. كان أولهم بطبيعة الحال الرومان.

بحلول العام 43 ميلادية كانت طلائع القوات الرومانية قد وصلت لبريطانيا إلا إنها لم تتمكن من فرض سيادتها إلا بعد مدة طويلة جدًّا. مما يشير إلى المقاومة الشديدة التي أبداها سكان هذه الجزر وكذلك صعوبة الوصول إليها حيث أن البحار المحيطة ببريطانيا غالبًا ما تميل للهيجان وعدم الاستقرار.

وقد يكون هناك سبب آخر ألا وهو الضربات المتتالية التي كانت تسددها القبائل الجرمانية للإمبراطورية الرومانية عبر جميع أرجاء القارة العجوز ولن تكون بريطانيا استثناءً على كل حال.

وقد تكون غزوات الفايكينج والدانمركيين بسفنهم الطويلة قد حالت دون تحقيق الهيمنة الرومانية بوقتٍ أسرع. وعمومًا، فإن السيطرة الرومانية على بريطانيا تحققت بحلول عام 410 ميلادية.

فعمل الرومان على فرض أسلوب الحضارة الرومانية بالجزر البريطانية وجلبوا التطورات الجديدة في مجال الزراعة والعمران، والصناعة والهندسة المعمارية، وتركوا إرثًا لا يزال واضحًا حتى اليوم.

لكن الرومان كانوا يشعرون بالقلق الدائم وذلك بسبب الغزوات القادمة من الشمال حيث القبائل المختلفة من السلتيين أو الفايكينج أو غيرهم. فأقدموا على عمل قد يكون ترك بعضَ الآثارِ على الشخصية البريطانية وهو الفَصْل وإحداث نزعة الإنقسام. ونعني بذلك سور هادريان الكبير.

والجدير بالذكر أن الرومان فترة حكم الإمبراطور هادريان بإنشاء سور ضخم يفصل الشمال البريطاني عن جنوبه وذلك لصد القبائل التي تغزو بين وقت لآخر فتقض مضاجع الحكَّام الرومان الجدد. ثم ما لبثوا أن قاموا بإنشاء جدار آخر بالشمال من الأول سمّي بسور أنتونين ليكتمل الجداران في غضون عشرين عامًا وذلك سنة 142 ميلادية.

وهذا الفصل ما بين الشمال والجنوب قد يكون خلّف بعض الآثار داخليًّا، حيث يلحظ المرء مدَى عدم ارتياح الشمال البريطاني الفقير من الجنوب الغني حيث الرخاء والرفاهية إلى يومنا هذا.

إلا أن هذه الأسوار كذلك كانت لها بعض المنافع التجارية والتبادلية بين طرفيها، فرب ضارة نافعة.

إلا أن الحكم الروماني لم يكن ورديًّا أو بلا شوائب تمامًا. فقد كانت هناك الكثير

من المظالم وطرق الاستعباد التي زرعت الأحقاد والكراهية بنفوس سكّان هذا الشعب.

ولعل من أهم نماذج هذه المظالم نموذج الملكة المنتقمة بوديكا.

وقصة الملكة بوديكا والتي شكلت أول ثورة في تاريخ بريطانيا ما بين عامي 60 و61 ميلادية، مليئة بالرومانسية الأسطورية، لكنها على أي حال تعبر بوضوح عن فكرة تحدي الحكم غير العادل، وتشير بجلاء لشخصية الإنسان البريطاني الثائر والعنيف بشكل مُبالَغ به بأحيان كثيرة.

ولا شك أن ثورة الملكة بوديكا قد أدت لحدوث نتائج إيجابية لاحقًا رغم قمعها بقسوة من قِبل روما التي أدركت أن نوع الحكم السابق لا يستقيم معه الوضع في بريطانيا بالذات وذلك لفداحة الخسائر الرومانية بتلك الثورة حيث تقدر السجلات التاريخية أن 70 ألف جندي روماني وحليف قد ذُبحوا من جراء ذلك التمرد الهائل. ورغم أنه رقم خيالي وقد يحتوي على كثير من المبالغة، إلا أن النتيجة المؤكدة هو تغير سلوك نظام الحكم الروماني لبريطانيا نحو الأفضل.

ولم يدم الحال بالإمبراطورية الرومانية بعد تلك الحقبة، فقد جاءت نذر رياح الضعف والتبدل من روما التي تعرضت إمبراطوريتها للانهيار والتفكك بسبب عوامل داخلية وضربات قبائل القوط المتوالية. فانسحبت القوات الرومانية بعد سقوط روما، وأضحت بريطانيا بشعبها السلتي -آنذاك- بلا حماية من كل المتربصين بها من الشرق والشمال. فأخذت تهاجمها باستمرار قبائل الفايكينج الدموية بما فيهم الدانمركيين والنورد «النرويجيين». فحاول السلتيون أول الأمر الاستنجاد ببقية الرومان إلا أن قضيتهم كانت خاسرة. ثم لجؤوا بعد ذلك إلى قبائل جرمانية أخرى ستغير مجرَى تاريخهم إلى الأبد.

هجرة القبائل الأنجلو ساكسونية لبريطانيا:

لا شك أن القبائل الأنجلو-ساكسونية قادمة من شمال أوربا وتحديدا من شمال ألمانيا وجنوب الدانمرك والنرويج والسويد.

وهذه المجموعات القبلية الجرمانية تتكون أساسًا من ثلاث قبائل.. الإنجلز، وهم الأكثر والأقوَى وسميت البلاد على اسمهم Englaland أي بلاد الإنجليز ثم تغير لاحقًا إلى England، والساكسون وهم من كانوا يقطنون ساكسونيا الحالية بشمال ألمانيا، وقبيلة الجوتيين وهي اليوم متمثلة بالدانمرك نفسها.

وقد بدأ نزوحهم عام 449 ميلادية كما يذكر الراهب والمؤرخ المعروف بيد في كتابه المترجَم من تاريخ الكنيسة والشعب الإنجليزي A History of English Church And People

وكانت النتيجة عكسية على القبائل السلتية بعد الاستعانة بهذه القبائل الشرسة. حيث تعرضوا حسب ما وصفه «المؤرخ ديفيد ستاركي في سلسلة Monarchy ج1» إلى أول عملية تطهير عِرقي منظم من الأنجلو-ساكسون أدى إلى نزوح معظم السلتيين غربًا أو التسلل نحو الأراضي الفرنسية.

وتذكر الاكتشافات الحفرية أن الأنجلو-ساكسون قاموا بعملية إبادة للذكور من الشعوب الأصلية لبريطانيا والتعامل بوحشية مع الأناث ما بين إكراه واغتصاب وعنف شديد. النتيجة تمثلت بأن البلاد بمرور فترة وجيزة تعرضت لتغيير شامل سواء من النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

وتكونت بهذه الفترة تحديدًا الشخصية الإنجليزية لبريطانيا. فمن الناحية السياسية نقلت هذه القبائل نظامها السياسي بحيث انقسمت البلاد إلى سبع ممالك شبه مستقلة وهي مملكة كينت ونورثومبريا وميرسيا وإيسيكس وساسيكس ويسيكس وإنجليا الشرقية.

وكان الوضع العام يتأرجح ما بين هذه الممالك بمسألة حكم بريطانيا بشكل إجمالي. فتكون الغلبة عادة لأي ملك يظهر بقوة فيخضع له باقي الملوك وباقي البلاد.

وكـانت السيطرة أو الكلمـة العليا تدين لحكام مملكـة كينت بالقرن السادس ثـم ما لبثت أن تفوقت مملكة نورثومبريا بالقرنين السابع والثامن ثم انتقل مركز القوة جنوبًا لمصلحة مملكة ميرسيا بالقرن التاسع وهكذا دواليك حتى نهاية الحقبة الأنجلو-ساكسونية ببريطانيا بنهاية الألفية الأولى في هذا الزمان.

ومن أشهر ملوك الأنجلو-ساكسون الملك ألفريد العظيم الذي حكم من الفترة 871 إلى 899 ميلادية.

وقد تمت تسميته بهذا اللقب بعد نجاحه بدحر غزوات الفايكنج المستمرة على البلاد.

اعتنقت بريطانيا الديانة المسيحية بحلول العام 597 ميلادية عندما أرسل البابا جريجوري الأول القديس أوغسطين مع مجموعة من المبشرين. فعملوا على بناء كاتدرائية كانتربيري وهي الكنيسة الرسمية لبريطانيا إلى يومنا هذا.

وبدخول بريطانيا حقبة الحكم النورماندي فإنها تعرضت لمحاولات شديدة من الحكام الجدد بفرض اللغة الفرنسية على جميع الأجهزة الرسمية للبلاد. وهذا أدى لحدوث نوع من أنواع التجاذب في بداية الأمر فيما بين اللغتين عند عموم الشعب. فالطبقات العليا من النبلاء والدوقات والأمراء ورجال الدين أصبحت اللغة الفرنسية ذات اللهجات النورماندية القديمة «لهجات شمال وغرب فرنسا» طابعًا رئيسيًّا ومَلمحًا من ملامح التقرب لرأس السلطة. في حين أن عموم الشعب كان بالبداية يتحدث باللغة واللهجات التي سادت إبان الحقبة الأنجلو-ساكسونية أي الفترات الحديثة من اللغة الإنجليزية القديمة Old English.

إلا إنه مع مرور الوقت أصبح هناك نوع من التمازج ما بين اللغة التي سادت سابقًا وهي اللغة ذات الأصل الأنجلو-فريزي مع اللغة النورماندية الجديدة على البلاد: وبالتالي أخذت اللغة الناشئة تكتسب الكثير من اللغات الرومانسية وهي اللغات ذات الأصل اللاتيني كالفرنسية وغيرها. وقد يكون هذا العامل الإيجابي قد أدى باللغة الإنجليزية أن تكون قادرة على استيعاب المدخلات الجديدة عليها سواء من ناحية المفردات Vocabulary أو من ناحية التركيب الصرفي Grammatical Structure.

كان نتاج هذا المزيج هو نشوء ما سُمِّي باللغة الأنجلو-نورمانية بدءًا من القرن الثالث عشر، وحتى الخامس عشر، وقد تم تعميمها بقاعات المحاكم والدوائر الرسمية والمدارس والجامعات وما بين طبقة النبلاء والبرجوازيين. وبهذا تحولت اللغة الإنجليزية لأن تكون لغة مفتوحة غير منغلقة تضيف إلى أصولها مظاهر متجددة مما أكسبها القدرة على الحيوية بمرور الزمن، وقد يُعتبر هذا العامل من إنجازات النورمانديين سواء شعروا به أم أتى تلقائيًّا مع توالي الأحداث.

* * *

3 الإغريق والرومان والفرس

- تاريخ الإغريق بين اليونانيين والمقدونيين.
- مختصر تاريخ الرومان.
- الحرب بين الروم والفرس في التاريخ.

تاريخ الإغريق بين اليونانيين والمقدونيين

شهدت أوربا في العصور القديمة حضارتين متعاقبتين: حضارة اليونان وحضارة الرومان. ويشمل تاريخ أوربا من الناحية الجغرافية دولًا خارج القارة الأوربية: سوريا ومصر والعراق وآسيا الصغرى وشمال أفريقيا وزمنيًّا يشمل عصورَ ما قبل الميلاد حتى سقوط الإمبراطورية الرومانية الشرقية في القرن الخامس الميلادي على أيدي الأتراك العثمانيين 1453م.

عرفت شواطئ بحر إيجة ظهور أولى الحضارات في الضفة الشمالية للبحر المتوسط، عرفت أولى الحضارتين باسم المينوية والميسينية. تلى ذلك عصر مظلم استمر حتى حوالي 800 قبل الميلاد. عرفت البلاد عهدًا جديدًا مع ظهور الحضارة اليونانية.

كانت بلاد اليونان عبارة عن تجمُّع من المدن المستقلة وهي أسبرطة العسكرية وأثينا المدنية والديمقراطية وغيرهما من المدن، قامت هذه المدن بإنشاء مستعمرات تجارية على طول البحر الأبيض المتوسط، كما قاومت محاولات توسع الفرس في المنطقة، وأنقذت أوربا من غزاة أباطرة الفرس خصوصًا في معركة ماراثون البرية ومعركة سالاميس البحرية عام 480 ق.م.

شكلت ثقافة هذه المنطقة المنبع الرئيس للحضارة الهيلينية، انتشرت هذه الحضارة في أرجاء واسعة من العالم بعد قيام إمبراطورية الإسكندر الأكبر المقدوني.

ومن خلال آثار تلك الحضارة، يمكن لنا التعرف عليهما، وكذلك ما كتبه المؤرخون الأقدمون في كتبهم.

ومن أبرز وأشهر المؤرخين الذين عاصروا الحضارة اليونانية وكتبوا عنها من المؤرخين والجغرافيين والرحالة والخطباء والعلماء والفلاسفة هم:

1- **هيرودوت:** «عاش في القرن الخامس قبل الميلاد» وكتب هيرودوت عن تاريخ العالم القديم بما فيه بلاد اليونان.

2- **ثوكيديديس:** «عاش ما بين القرن الخامس والرابع قبل الميلاد» وكان معاصرًا للحروب اليونانية– اليونانية.

3- **كسينوفون:** «عاش ما بين نهاية القرن الخامس وبداية الرابع قبل الميلاد».

4- **بركليس:** وهو زعيم أثيني اشتهر بخطبه وهو من أشهر الخطباء اليونان وكذلك كان الخطيب«ديموستينيس»، ويعتبر خطبهم من المصادر لأنها تصف وتبين أحوال المجتمع اليوناني ومشكلاته الاجتماعية والسياسية والدينية.

5- **سقراط، أفلاطون، أرسطو:** وهؤلاء العلماء كتبوا في الطب والعلوم والفلسفة والحكمة والجغرافية والحكم وغيرها من العلوم لذلك نجد في كتاباتهم معلومات قيمة عن التجارب العلمية وما قام به هؤلاء من دراسات شملت الجوانب العلمية والفلسفة والفلك وأسلوب الحكم وغيرها من العلوم الطبيعية والإنسانية.

بدايةً نقول إن بلاد اليونان عبارة عن شبه جزيرة تتفرع من شبه جزيرة البلقان وتضم عددًا من الجزر الصغيرة، وتقع إلى الجنوب من قارة أوربا وتطل على بحر إيجه والبحر المتوسط وهذا الموقع جعلها بالقرب من قارات العالم القديم وحضارة مصر والعراق وسورية وآسيا الصغرى القديم.

ويبلغ طول البلاد حوالي 400 كم وعرضها حوالي 300 كم وتغطي الجبال والمرتفعات حوالي 80٪ من بلاد اليونان وتخترقها السلاسل الجبلية في كل الاتجاهات بشكل قسمها إلى مناطق صغيرة منعزلة عن بعضها البعض. لذلك تعتبر الأنهار وسيلة انفصال وليس وسلة اتصال.

وأجبرت المرتفعات والأنهار اليونانيين على المعيشة في مدن صغيرة مستقلة عن بعضها البعض وأصبح من الصعب تكوين وحدات سياسية كبيرة وانتشرت فيها دويلات المدن وهذا النظام ساد بلاد اليونان فترة طويلة من تاريخهم.

يقسم العلماءُ تاريخَ اليونان القديم إلى ثلاث مراحل وثلاثة عصور رئيسية وهي:

أولًا: العصر المبكر «3000-1100 ق.م»

ويمثل هذا العصر حضارتين وهما:

1- **الحضارة الكريتية:** في الفترة ما بين «2400-1200ق.م» والحضارة الكريتية حضارة يونانية وغير يونانية وثبت وجود تأثيرات في كل المدن اليونانية وثبت وجود صلات وعلاقات علاقات وصلات بين مصر وبلاد اليونان.

2- **الحضارة المايسينية:** في الفترة من بين «1600-1100ق.م» وجاءت بعد الحضارة الكريتية وهي حضارة يونانية صِرفة انتشرت في كل المدن اليونانية وثبت وجود صلات وعلاقات بين اليونان وإيطاليا وجزر البحر المتوسط وسورية وانتهت الحضارة المايسينية على يد القبائل الدورية التي جاءت من الشمال وغزت بلاد اليونان في 1100 ق.م وعادت بلاد اليونان إلى حياة القبائل حتى القرن الثامن قبل الميلاد.

ثانيًا: فترة هجرات اليونان واستيطانهم خارج البلاد:

حدثت هجرات واستيطان لليونان خارج بلادهم في أعقاب الغزو الدوري لبلاد اليونان وأبرزها:

1- هاجر الأيوليون سكان شمال اليونان عبر بحر إيجه إلى آسيا الصغرى واستقروا على سواحلها الغربية فأصبحت تعرف باسم «إيوليا».

2- هاجر الأيونيون عبر بحر إيجه إلى آسيا الصغرى واستقروا إلى جنوب فسميت منطقتهم باسم «دوريس».

3- هاجر الدوريون أيضًا إلى آسيا الصغرى واستقروا جنوب أيونيا فسميت منطقتهم باسم «دوريس».

ومن نتائج تلك الهجرات:

- تنمية الروح القومية لديهم.
- اتساع النشاط التجاري بين المناطق.
- ظهور طبقة التجار اليونان والحرفيين.
- تطور نظام الحكم عند اليونانيين في المجتمعات الجديدة.

ثالثًا: عصر دولة المدينة: «800-500 ق.م»:

هو نظام عُرف باسم نظام دولة المدينة «المدينة الحرة» وكان ذلك نتيجة حركة الهجرة والانتشار اليوناني تطور نظام الحكم والنظام السياسي لدويلات المدن اليونانية وظهرت الأنظمة وتطورت من النظام القبلي وحتى وصلت الحكم الشعبي «الديمقراطي» وقد مر هذا التطور السياسي لدويلات المدن بالأنظمة التالية:

1- **النظام القبلي**: ساد هذا النظام قبل نشأة نظام دويلات المدن اليونانية وكان زعيم القبيلة الأوسع في امتلاك الأراضي الزراعية والرعوية يمارس دور الحاكم.

2- **النظام المَلكي**: هو أول نظام عرفته دولة المدينة اليونانية ويقوم على أساس سلطة الملك يساعده مجلس من الأعيان واستمر هذا النظام حتى حل محله النظام الأرستقراطي.

3- **النظام الأرستقراطي**: يمثل هذا النظام انتقال السلطة إلى ملاّك الأراضي فتحول النظام الحكم الفردي الذي يمثله شخص الملك إلى نظام حكم الجماعة وهم الطبقة الأرستقراطية

4- **النظام الأوليجركي «حكم الأقلية»**: عندما ازدهرت حركة التجارة بين بلاد اليونان والعالم الآخر ظهرت طبقة التجار واستطاعت بثروتها الكبيرة أن تنافس الطبقة الأرستقراطية في تملك الأراضي ونجحت طبقة التجار «الأقلية» في الوصول إلى السلطة والحكم فعرف النظام بحكم الأقلية «الأوليجركي».

5- **حكم الطُّغاة**: لم يستمر حكم الأقلية «طبقة التجار» فترة طويلة وبدأت طبقة عامة الناس تبحث عن دور سياسي في الحكم فظهرت ثورات شعبية في المدن اليونانية كان يقودها أبناء الأثرياء ونجح عامة الناس في الوصول إلى الحُكم والسُّلْطة وانتهى حكم الأقلية، وعندما حكم أبناء الأثرياء سمي بنظام حكم الطغاة لأنهم وصلوا للحكم على أكتاف عامة الناس.

6- **نظام الحكم الشعبي «الديمقراطي»**: انفجرت الثورات الشعبية ضد حُكم الطغاة وقتل العديد من الطغاة وهرب الآخرون فكانت نهاية حكم الطغاة وبدأ نظام الحكم الشعبي وما يسمى بالحكم الديمقراطي ليحل محل الحكم المطلق فأصبح نظام الحكم عبارة عن مجالس نيابية يشترك فيها المواطنون ويمارسون فعليا كافة السلطات ونجح نظام الحكم الشعبي الذي مارس مهامه بكل كفاءة وحرية.

ولم تمر كل مدنية بهذه الأنظمة الخمسة في تطور نظام الحكم فيها فهناك من الدويلات اليونانية مرت بجمعها مجتمعة، وهناك من مر بأربعة أنظمة، ودويلات مدن مرت بثلاثة أنظمة أو بنظامَيْن فقط طبقًا لظروف كل دويلة يونانية.

كذلك نشير إلى أنه من الممكن أن تمر دويلة المدينة اليونانية في تطور نظامها السياسي بالأنظمة الخمسة جميعها في مائة عام، ودويلة أخرى في فترة خمسين عامًا وهكذا.

والسمات وصفات بارزة ومميزات توجد في جميع دويلات المدن اليونانية وهي:

- **الأكربوليس**: وهو مقر أو قصر الحكم.
- **القصر الملكي**: وهو مقر سكن الحاكم أو الملك وأسرته.
- **مساكن الطبقة الأرستقراطية**: وهي مقر الأمراء والأشراف والنبلاء.
- **مساكن عامة الناس**: وهم التجار والصناع والحرفيون.
- **السوق العامة**: وتكون في وسط المدينة وبها ساحات للتبادل التجاري وعرض المسرحيات وإلقاء الخطب وإعلان قرارات الحكام.
- **الخورا**: وهي الأراضي الزراعية التي تحيط بالمدينة.
- **السور**: كان لكل مدينة سور يحيط بها لحمايتها من الأعداء وكانت هذه الصور: والسمات موجودة في كل مدينة ودويلة يونانية.

وقد شهد عصر دولة المدينة أحداثا وحروبا هامة مثل:

أ- **الحروب اليونانية القرطاجية**: حيث كانت قرطاجة تسيطر على غربي البخر المتوسط تجاريًّا وسياسيًّا حيث كانت المستعمرات القرطاجية على سواحل شمال أفريقيا منذ القرن التاسع قبل الميلاد وكذلك على السواحل الجنوبية لأوربا. وانتهت هذه الحروب بانتصار اليونان.

وكانت أسباب الصراع اقتصادية وجرت الحرب في عام 409 ق.م وكذلك في عام 408 ق.م. وكان محور الصراع بين الطرفين هو جزيرة صقلية.

ب- **الحروب الفارسية اليونانية: أسبابها**: قامت الإمبراطورية الفارسية بالتوسع في آسيا الصغرى وسيطرتها على المدن اليونانية الآسيوية غرب آسيا الصغرى، بل وحاولت السيطرة على بلاد اليونان ودويلات المدن اليونانية الأوربية فقامت الحرب بينهما.

ومرت الحروب اليونانية الفارسية بمرحلتين وهما:

1- **المرحلة الأولى**: نجح الفرس في السيطرة على المدن اليونانية غرب آسيا الصغرى في عام 548 ق.م تحالفت المدن اليونانية الآسيوية غرب آسيا الصغرى تحت زعامة مدينة «ميليتوس» ضد الاحتلال الفارسي ووقتها أرسلت دويلة أثينا «20» سفينة عسكرية وكذلك أرسلت دويلة إريتريا مساعدة عسكرية لمساعدة المدن اليونانية الآسيوية في حربها ضد الاحتلال الفارسي، ولكن الفرس استعادوا سيطرتهم على المدن اليونانية الآسيوية ودمر الفرس مدينة «ميليتوس» انتقامًا من تزعمها لهذه الحركة المسلحة، كما قرر الفرس تأديب أثينا وإريتريا لدعمهما للثورة المسلحة للمدن اليونانية في غرب آسيا الصغرى.

2- **المرحلة الثانية**: وهي الحروب المباشرة بين الفرس ودويلات المدن اليونانية الأوربية شملت البر والبحر وخارج بلاد اليونان.

قرر الفرس منع احتمال حدوث تحالف عسكري بين المدن اليونانية الآسيوية غرب آسيا الصغرى ودويلات المدن اليونانية في بلاد اليونان فتحركت حملة عسكرية فارسية ضخمة «برية وبحرية» نحو أثينا فحدثت أول مواجهة عسكرية بين الفرس وأثينا في معركة «سهل الماراثون» عام 490 ق.م انتهت بهزيمة ساحقة للفرس

على يد أثينا على الرغم من قلة عددهم، بعدها أدركت دويلات المدن اليونانية خطر الفرس فتحالفت عسكريًّا تحت زعامة إسبرطة فجرى الصدام بين الفرس وإسبرطة في معركة تعرف باسم «ثرموبيلي» انتهت بمقاومة باسلة للجيش الإسبرطي وانتهت المعركة بانتصار محدود وهزيل للفرس.

جرى بعدها مواجهة عسكرية بين الأسطول الأثيني والأسطول الفارسي تعرف بمعركة «جزيرة سيلاميس» عام 480 ق.م. وانتهت بهزيمة ساحقة للأسطول الفارسي على يد الأسطول الأثيني فانسحب الفرس إلى آسيا الصغرى وتوقف التقدم الفارسي نحو بلاد اليونان، فكانت معركة «جزيرة سيلاميس» نقطة تحول في هذه الحروب حيث انحسر خطر الفرس عن دويلات المدن اليونانية.

قام اليونانيون بهجوم مضاد على الفرس عام 479 ق.م. وجرت معركة بحرية عند «خليج ميكالي» ومعركة برية عند «سهل بلاتيا» وانتهت المعركتان البحرية «ميكالي» والبرية «بلاتيا» بانتصار اليونان وهزيمة ساحقة للفرس فأبعدت المعركتان الأخريان الخطر الفارسي نهائيًّا عن بلاد اليونان ودويلات المدن اليونانية الأوربية، وظل الاحتلال الفارسي قائمًا على المدن اليونانية غي غرب آسيا الصغرى ولم تتحرر إلا على يد الإسكندر المقدوني.

جـ- الحروب الأهلية اليونانية «البلوبونيز» أو حروب التحالفات: بدأت تلك الحروب بعد ظهور التحالفات بين الدويلات اليونانية حيث استطاعت «أثينا» أن تكوِّن حِلفًا جمع عدة مدن يونانية عرف باسم حلف «ديلوس» زاد من نفوذ أثينا بين دويلات المدن اليونانية، وساد بين مدن هذا الحلف حكم النظام الشعبي أو الديمقراطي.

وفي المقابل نجحت «إسبرطة» في تكوين حلف تحت زعامتها جمع المدن الواقعة في شبه جزيرة البلوبونيز وعرف باسم حلف «البلوبونيز» وكان نظام الحكم

السائد فيها هو نظام حكم الأقلية وهو نظام عسكري كان يمتاز بالقسوة والصرامة.

وكان من أسباب الحروب اليونانية - اليونانية هو اختلاف النظام الأساسي بين نظام الحكم الديمقراطي المطبق في دول حلف ديلوس بزعامة أثينا ونظام حكم الأقلية العسكرية المطبق في دول حلف البلوبونيز بزعامة إسبرطة.

عند استقلال مدينة كورسيرا عن دويلة كورنيه حليفة إسبرطة، وإعلانها الرغبة في الانضمام إلى حلف ديلوس المطبق للنظام الديمقراطي وحتى تحميها أثينا من بطش دويلة كورنثه، فسارعت أثينا لنجدة مدينة كورسيرا عندها تحركت «إسبرطة» للوقوف إلى جانب كورنثه وهكذا اشتعلت الحرب الأهلية بين اليونان في عام 431 ق.م. واستمرت حوالي 27 عامًا وانتهت بانتصار التحالف الإسبارطي على التحالف الأثيني بعد معركة «ايجوسبوتامي» في عام 404 ق.م.

انتهت زعامة أثينا على العالم اليوناني وأصبحت «إسبرطة» هي الزعيمة ولكن لم تستمر تلك الزعامة حيث إن نظام الحكم العسكري الباطش جعل المدن اليونانية تتمرد على زعامة إسبرطة، فنجحت طيبة أن تُلحق هزيمة ساحقة بإسبرطة وتنتزع زعامة المدن اليونانية، وقد أضعفت هذه الحروب الداخلية المدن اليونانية مما ساعد المقدونيين في السيطرة على الدويلات اليونانية.

* * *

سيطرة مقدونيا على بلاد اليونان وحكم الإسكندر المقدوني

في جنوب شرق أوربا في شبه جزيرة البلقان شمال بلاد اليونان حيث تربعت أسرة أرجيد على عرش مقدونيا في القرن السابع قبل الميلاد، ثم خضعت لسيطرة الفرس في القرن الخامس قبل الميلاد، وفي منتصف القرن الرابع قبل الميلاد تولّى عرش مقدونيا الملك فيليب الثاني الذي استغل المقومات الاقتصادية التي تمتلكها مقدونيا وموقعها الجغرافي في شمال بلاد اليونان والضعف الذي أصاب دويلات المدن اليونانية نتيجة الحروب الأهلية اليونانية ونجح في توسيع رقعة مملكة مقدونيا فاستولى على المدن اليونانية الواحدة تلو الأخرى، وتمكن في عام 338 ق.م. من هزيمة أثينا وإسبرطة في موقعة تعرف باسم «خايرونا» فتم بذلك سيطرته على كل بلاد اليونان وبذلك انتهى نظام دويلات المدن اليونانية فعليًّا في هذا التاريخ وتوحد اليونان في وحدة سياسية ودولة واحدة لأول مرة في تاريخهم الطويل هي مملكة مقدونيا وكانت هي حجر الأساس لإمبراطورية الإسكندر.

اغتيل الملك فيليب الثاني في صيف 336 ق.م. فخلفه على العرش ابنه الإسكندر المقدوني.

الإسكندر الأكبر:

ولد الإسكندر المقدوني في صيف 356 ق.م وأمه أميرة من منطقة أبيروس واسمها أولمبياس، وفي الثالثة عشرة من عمره استقدم له أبوه العالم والفيلسوف أرسطو إلى

مقدونيا ليتولى تعليم وتثقيف ولده الأمير الشاب الإسكندر وعاش أرسطو مدة ثلاث سنوات في تعليم الإسكندر في القصر الملكي فعلمه فنون الحكم والسياسة والجغرافية والفلسفة والأدب اليوناني وأشعار هوميروس وقد تأثر الإسكندر في سلوكه وثقافته وتشبع بأفكار معلمه أرسطو، كما تعلم فنون الحرب وأساليب القتال من والده الملك فيليب الثاني وخاض معه عدة معارك وهو في السادسة عشرة من عمره وعندما بلغ العشرين من عمره تولى عرش مقدونيا بعد مقتل والده.

استطاع الإسكندر المقدوني بعد توليه العرش على جميع محاولات الانفصال والاستقلال التي قامت بها المدن اليونانية ودمّر مدينة طيبة عن آخرها فهابته المدن الأخرى وقدموا له الطاعة، وبعدها وجه جهوده واستعداداته نحو حملته العسكرية نحو الشرق والعالم الخارجي.

استطاع الإسكندر من خلال حملته العسكرية القضاء على الإمبراطورية الفارسية - تحرير المدن اليونانية على السواحل الغربية لآسيا الصغرى - تكوين إمبراطورية عالمية تجمع عدة شعوب وثقافات وحضارات متعددة.

كان خط سير الحملة التي قادها الإسكندر الأكبرعلى مراحل:

1- **المرحلة الأولى:** بدأت الحملة في عام 334 ق.م. نحو آسيا الصغرى فكانت معركة نهر «جرانيكوس» أول مواجهة مع الفرس وألحق بهم هزيمة ساحقة، نجح في تحرير المدن اليونانية في آسيا الصغرى.

2- **المرحلة الثانية:** توجه الإسكندر من آسيا الصغرى وسيطر على سورية بعد معركة سهل «ايسوس» عام 333 ق.م. وهزيمة الفرس، فاتجه جنوبًا نحو فينيقيا وسيطر على صيدا وصور بعد حصارها 6 أشهر حتى استسلمت مدينة صور ثم اتجه إلى فلسطين وسقطت غزة في عام 332 ق.م. فأصبحت مفتوحة.

3- **المرحلة الثالثة:** دخل الإسكندر المقدوني مصر وحررها من الاحتلال

الفارسي ورحب به المصريون وأعجب الإسكندر المقدوني بالحضارة المصرية وقضى فيها عدة شهور أسس خلالها مدينة الإسكندرية ثم غادر مصر نحو بلاد الرافدين وبلاد الإمبراطورية الفارسية.

حيث كان أول صدام لجيش الإسكندر المقدوني في العراق مع الجيش الفارسي عند «سهل كاوكا ميلا» وانتهت بهزيمة ساحقة للفرس في عام 331 ق.م. وفرّ الملك الفارسي «دارا الثالث» فلاحقه الإسكندر المقدوني باتجاه الجنوب وظل يحرز انتصاراته على الفرس حتى وصل إلى مدينة بابل وسط العراق وكانت مشهورة بتحصيناتها وقلاعها وأسوارها واستقبله الأهالي بالترحيب فأحسن معاملته للبابليين، بعد ذلك اتجه نحو إيران واستولى على عاصمة الإمبراطورية الفارسية مدينة برسيبولس وفر الملك الفارسي إلى إقليم بقطريا وهناك قتل الملك الفارسي دارا الثالث على يد حاكم بقريا الفارسي عام 330 ق.م. فكانت نهاية الإمبراطورية الفارسية.

5- **المرحلة الخامسة:** بعد أن حقق الإسكندر المقدوني هدفه من القضاء على الإمبراطورية الفارسية، استمر في حملته العسكرية نحو آسيا الوسطى والهند وأخضعها في عام 327 ق.م. ووصل أقصى ما وصل إليه نهر السند شرقًا قرر بعدها العودة وعاد عن طريق البر حتى وصل عائدًا إلى بابل في عام 323 ق.م. واستغرق في حملته العسكرية 12 عامًا.

وتوفي الإسكندر المقدوني في بابل عام 323 ق.م. بعد أن حكم 12عامًا وثمانية شهور ولم يتم العام الثالث والثلاثين من عمره، وترك إمبراطورية تمتدُّ في ثلاث قارات من بلاد اليونان غربًا إلى نهر السند شرقًا وما بين جبال القوقاز وبحر قزوين شمالًا حتى شمال الجزيرة العربية جنوبًا بما فيها مصر وضمت إمبراطوريته شعوبًا وثقافات وحضارات مختلفة.

عقد قواد جيش الإسكندر المقدوني بعد وفاته مؤتمرًا في مدينة بابل واتخذ المجتمعون القرارات التالية:

- المحافظة على وحدة الإمبراطورية وتحت حكم أسرة فيليب الثاني.

- تقسم الإمبراطورية إلى 24 وحدة سياسية يتولى إدارتها قواده العسكريون.

- يصبح القائد كراتيروس وصيًّا على العرش والقائد برديكاس قائدًا عامًّا للجيش.

لم تستقر الأمور حسب قرارات مؤتمر بابل فسرعان ما بدأت الصدامات العسكرية والصراع بين قواد الإسكندر المقدوني في الفترة ما بين «323 -301ق.م» مما أدى إلى تقسم الإمبراطورية إلى ثلاث دول يونانية هي:

أ- دولة البطالمة في مصر «323-30ق.م»

ب- الدولة السلوقية في سورية وآسيا الصغرى والعراق وإيران والهند في الفترة ما بين «312 - 64ق.م»

ج- دولة مقدونيا «الإنتيجونية» في بلاد اليونان «312-148 ق.م».

ولم يستمر هذا التقسيم لإمبراطورية الإغريق العريقة حيث حل محلها إمبراطورية الرومان ودخلت بلاد اليونان والإغريق في تلك الإمبراطورية كما سنعرف في حينه.[1]

* * *

1- انظر: التاريخ اليوناني - محمد فهمي عبدالباقي؛ تاريخ العالم الإغريقي وحضارته - فوزي الشيخ؛ دراسات في تاريخ وحضارة اليونان والرومان - حسن الشيخ.

مختصر تاريخ الرومان

تاريخ الرومان وحضارتهم طويل جدًّا فقد امتدَّ من عصور ما قبل الميلاد إلى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي ومر بثلاث مراحل: عصر الحكم الملكي وعصر الحكم الجمهوري وعصر الحكم الإمبراطوري.

وتاريخ الرومان نسبه إلى روما ويبدأ من تأسيس مدينة روما في القرن الثامن قبل الميلاد وأن البطل رومولوس هو مؤسسها، ثم نمت روما نتيجة عناصر بشرية مختلفة من الإيطاليين وغير الإيطاليين وأثمر نمو روما عن قيام «دولة مدينة روما». وتتكون من الإقليم الشمالي: وهو سهل فسيح تطوقه جبال الألب، والإقليم الجنوبي: يشمل شبه الجزيرة الإيطالية تشقه سلسلة جبال الأبنين مثل العمود الفِقري، وتقع مدينة روما في وسط الإقليم، وجزيرة صقلية.

وكان سكان إيطاليا ينقسمون إلى قسمين: الإيطاليين: هم الآتين، الكمبانيون، والامبريون، السابنيون، السامنيون، الايكوبين، اللوكونو، الغاليون.

وغير الإيطاليين: وهم الليجور، الانروسكان، الإغريق «اليونان».

ومرَّ التاريخ الروماني بثلاث مراحل وعصور تاريخية هي:

أولًا: عصر الملكية «753–510 ق.م.»:

تأسست في هذا العصر الملكية ودولة روما في 753 ق.م. ويعتبر العلماء رومولوس مؤسس الملكية في روما وانحدر من سلالته سبعة ملوك آخرين، وفي هذا العصر

توسعت روما وزاد نفوذها ودفعها هذا التوسع إلى النمو والتطور والازدهار.

ويتفق أهل التاريخ على أن هذا العصر انتهى في نهاية عام 510 ق.م. بإعلان الجمهورية وبداية عصر جديد.

ثانيًا: عصر الجمهورية «509 ق.م. 30- ق.م.»:

استمر هذا العصر أكثر من خمسة قرون وأبرز ما يميز هذا العصر هو:

- التوسع الروماني داخليًّا وخارجيًّا.
- تطور نظام الحكم عند الرومان التوسع الروماني العسكري في الداخل وتوحيد شبه الجزيرة الإيطالية حسب تسلسل الأحداث التالية:

1- ضم بلاد الإتروسكان.

2- السيطرة على بلاد الغالين شمال إيطاليا.

3- الاستيلاء على مدن اللاتين.

4- الحروب السمنية بين روما وسكان جبال الإبنين.

5- السيطرة على جنوب إيطاليا وسكانها الإغريق.

- التوسع العسكري الروماني في الخارج حسب تسلسل الأحداث التالية:

1- الحروب بين روما وقرطاجة وتعرف باسم «الحروب البُونية» وقضاؤهم على قرطاجة «تونس اليوم».

2- السيطرة على شمال أفريقيا عدا مصر.

3- إخضاع شبه جزيرة إيبريا «إسبانيا».

4- القضاء على دولة مقدونيا.

5- القضاء على الإمبراطورية السلوقية في سوريا عام 64 ق.م.

6- احتلال آسيا الصغرى.

7- احتلال فرنسا.

8- القضاء على دولة البطالمة في مصر30 ق.م.

- تطور نظام الحكم عند الرومان في العصر الجمهوري:

ينقسم المجتمع إلى طبقة النبلاء والأشراف «أقلية» وطبقة عامة الشعب وهم الأغلبية، وكان النبلاء والأشراف يتمتعون بجميع حقوقهم السياسية والمدنية والاجتماعية وينفردون بالمال والأراضي. في حين كانت طبقة عامة الشعب محرومة من هذه الحقوق.

وكان الحكم عند الرومان في عصر الجمهورية يتكون من: السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية.

السلطة التشريعية تتكون من:

أ- مجلس الشيوخ أو السناتوس ومهمته:

1- إصدار القوانين.

2- محاسبة القناصل.

3- السياسة الخارجية وقرار الحرب.

وكانت عضوية مجلس الشيوخ تتم بالانتخاب ويتم اختيارهم من طبقة النبلاء والأشراف ويستمر عضوًا في المجلس مدى الحياة.

ب- **الجمعية الشعبية ومهمتها:** وكانت تتمتع بنفس سلطة مجلس الشيوخ والسناتوس وكان أعضاء الجمعية الشعبية يتم انتخابهم من عامة الشعب وتستمر مدى الحياة.

- السلطة التنفيذية وتتكون من مجموعة من الوظائف وهي:

- **منصب القناصل:** وهو مثل «رئيس الجمهورية»، ويرأس الدولة قنصلان في وقت واحد كل واحد مدته عامًا فقط.

- **منصب الترابنة:** وهي لجنة العسكريين تتمتع بسلطة القناصل في الظروف الحربية.

- **منصب الدكتاتور:** منصبًا ثانويًا يختار صاحبه في الحالات الطارئة ليحل محل رئيس الدولة «القنصل» ومدته في المنصب ستة شهور فقط لا تجدد.

- **منصب البريتور:** وهو صاحب السلطة القضائية.

- **منصب الرقيب:** وهي وظيفة مساعد القنصل.

- **منصب الآيديل:** مهمته الأشراف على الأسعار والأسواق والمرافق.

- **منصب الكوسنور:** وهي وظيفة تختص بالشؤون المالية وخزينة الدولة.

ويتم تولي هذه المناصب عن طريق الانتخابات والوصول إليها بالتدرج من المناصب الأقل إلى الأعلى الأكثر أهمية أي يتدرج من منصب الكسنور حتى منصب القنصل، ورئس الدولة في مفهوم العصر الحديث، وكان العمل في هذه المناصب بدون مرتب أو أجر أو مكافَأة. لذلك الذي يتم انتخابه كان يأتي دائمًا من بين أصحاب القدرة والإمكانيات المادية مثل النبلاء والأشراف والذين كانت لديهم القدرة على شراء الأصوات في الانتخابات.

ونظام الحكم عند الرومان وضع السلطة التشريعية في يد النبلاء والأشراف وكذلك السلطة التنفيذية أصبحت في يد طبقة النبلاء والأشراف. ولهذا لم تحقق القوانين الرومانية التكافؤ الاجتماعي والسياسي للمواطنين من عامة الشعب في حين زاد نفوذ طبقة النبلاء والأشراف.

لذلك بدأت طبقة عامة الناس تطالب بهذه الحقوق واستمر الصراع بين الطبقتين أكثر من قرنين من الزمن «494 ق.م.- 387 ق.م.» وانتهى بأن أصبح لدى الرومان نظام شعبي أو ما يسمى ديمقراطيًّا جعل لعامة الشعب والناس الحق في اختيار قنصل عنهم وأصبح لعامة الناس الجمعية الشعبية التي لها نفس حق مجلس الشيوخ والسناتوس ولكن الحياة السياسية في روما فسدت وكذلك الحياة الاجتماعية فالأغنياء وهم النبلاء والأشراف يشترون الأصوات للوصول للوظائف التنفيذية وعضوية المجالس التشريعية وظل الحال كذلك حتى وصل إلى مرحلة الصدام المسلح والوصول إلى السلطة بالقوة العسكرية فأصبح القتل وسيلة للسلطة وحل الخلافات السياسية حتى وصل إلى حرب أهلية قضت على النظام الجمهوري.

حكم روما في هذا العصر الكثير من الحكام من أهمهم «يوليوس قيصر».

كان يوليوس قيصر من طبقة النبلاء والأشراف ولكنه يميل إلى مناصرة عامة الشعب وتولى جميع مناصب الدولة بالتدرج حتى وصل إلى وظيفة قنصل «رئيس الدولة» وكان معاديًا لمجلس الشيوخ والسناتوس ومحبوبًا من عامة الناس والجيش. وعندما انتهت فترة حكمه كقنصل رفض مجلس الشيوخ التجديد له فعاد مع جيشه وسيطر بالقوة العسكرية على روما وأصبح سيد البلاد والحاكم غير المنافَس في عام 59 ق.م.، وقد أحبه الشعب لما قام به من إصلاحات وما حققه من انتصارات عسكرية. في أوربا وشمال أفريقية، ومن أبرز إصلاحاته:

1- قضى على سُلطة مجلس الشيوخ وحوله إلى هيئة استشارية.

2- أصلح نظام الحكم في الولايات ونظام الضرائب واختار الأكفاء للمناصب.

3- غير التقويم واعتمد التقويم المصري وسمى الشهر الذي ولد فيه وهو شهر يوليه باسمه، وجعل السنة تبدأ من شهر يناير.

4- سمح للجمعيات الشعبية بالاستمرار في العمل ولكن بسلطة محدودة.

اغتيل يوليوس قيصر بمؤامرة من مجلس الشيوخ عام 44 ق.م.، وأعقب اغتياله فترة من الفوضى السياسية والعسكرية، وظهرت شخصيتان عسكريتان متنافستان على السلطة وهما:

أ- القائد أنطونيوس الساعد الأيمن ليوليوس قيصر.

ب- القائد أوكتافيوس ابن أخت يوليوس قيصر وابنه بالتبني.

واتفق القائدان الكبيران على اقتسام ممتلكات الجمهورية الرومانية:

- أنطونيوس: يحكم الشرق بما فيها مصر وسوريا وآسيا الصغرى.

- أوكتافيوس: يحكم إيطاليا وفرنسا وأسبانيا وشمال إفريقية.

ولكن في عام 31 ق.م. تبادل القائدان الاتهامات حتى وصل الاتهام إلى حد خيانة الدولة فأعلن أوكتافيوس حربًا مقدسة على أنطونيوس وزوجته كليوباتره، آخر ملوك البطالمة وانتهت الحرب بانتصار أوكتافيوس في معركة أكتيوم في مصر وضم أوكتافيوس مصر عام 30 ق.م. فأصبح أوكتافيوس سيد روما فكان هذا التاريخ نهاية عصر الجمهورية في روما وبداية عصر الإمبراطورية.

جـ- **عصر الإمبراطورية الرومانية:** «31 ق.م – 476 ميلادية» يعتبر أوكتافيوس المؤسس الحقيقي للإمبراطورية الرومانية، ويرى العلماء أن الإمبراطورية الرومانية مرت بمرحلة التكوين ثم وصلت إلى أَوْجَ قوتِها وعظمتها ثم بدأ في الضعف والانحدار حتى وصلت إلى الانقسام والاضمحلال.

أطلق أوكتافيوس على نفسه اسم يوليوس قيصر أوكتافيوس، وعندما أعاد إلى مجلس الشيوخ اعتبارهم وأرضاهم أطلقوا عليه لقب «أغسطس». ومعناها «الجليل المحترم» وقد اشتهر بهذا الاسم، ومن أبرز إصلاحاته:

1- أعاد لمجلس الشيوخ سلطته التشريعية.

2- أسس جيشًا نظاميًا بديلًا من نظام التعبئة للحرب.

3- قسم الإمبراطورية إلى ولايات وقسم السلطة فيها إلى:

- **الولايات المشيخية:** تابعة لمجلس الشيوخ.

- **الولايات القنصلية:** تابعة للقنصل بمعنى يتولى هو سلطتها.

1- جعل مصر لأهميتها ولاية رومانية تابعة له مباشرة.

2- أصبح القائد الأعلى للجيش.

3- اهتم بتطوير جميع مجالات الدولة وكذلك الحياة الفكرية والثقافية ويعتبر عصره العصر الذهبي للآداب الرومانية.

4- توفى الإمبراطور «أغسطس» في عام 14 ميلادية فكان مولد المسيح عيسى عليه السلام في عهده.

ثم كان حكم الإمبراطور تراجان «ماركوس أوليبوس تراجانوس» وهو من أبرز وأشهر الشخصيات في عصر الإمبراطورية وتولى الحكم في روما عام 98م وكان يعرف ببساطته وتواضعه فأحبه عامة الناس كما نظم الشؤون المالية ونظام الضرائب وألغى نظام الاحتكار في التجارة لذلك تميز عهده بالرخاء والازدهار في مختلف النواحي. وقاد العديد من الحملات العسكرية في أوربا والشرق بحيث وصلت الإمبراطورية الرومانية في عهده قمةَ اتساعها وازدهارها.

توفى في عام 117م وترك الإمبراطورية الرومانية في أوج عظمتها وقوتها واتساعها.

بعد عصر تراجان دخلت الإمبراطورية في مرحلة الضعف وعندما تولى العرش الإمبراطور «دقلديانوس» عام 284م قام بالعديد من الإصلاحات شملت النواحي الإدارية والسياسية والعسكرية والمالية في محاولة منه لحفظ الإمبراطورية من

التفكك، وقام بتقسيم الإمبراطورية إلى أربع وحدات سياسية:

- وحدتان في الشرق.

- وحدتان في الغرب.

وجُعل على كل وحدة سياسية حاكمٌ يقيم فيها، وهذا النظام الإداري ساعد بعد ذلك على شطر الإمبراطورية إلى قسمين شرقي وغربي، وشهد آخر عهده الاضطرابات الدينية لأنه رفع مكانة الإمبراطورية إلى درجة التأليه فرفض الرومان ذلك لأن المسيحية كانت قد انتشرت بينهم وكانت دين التوحيد لذلك حدثت مصادمات عنيفة مع الرافضين للفكرة فعذب وقتل الكثير منهم، وأخيرًا تخلى عن العرش في عام 305 ميلادية.

بعد عصر دقلديانوس بدأت الصراعات والمنافسات بين حكام الوحدات السياسية انتهت بوجود إمبراطوريتين شرقية وأخرى غربية إحداهما في الشرق الأوربي والآسيوي وأخرى في الغرب.

وقد نجح «قسطنطين الأول» [1] في أن يسيطر على الشرق عام 323 ميلادية فكان هذا التاريخ بداية الانقسام إلى إمبراطوريتين وهما:

أ- الإمبراطورية الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية.

ب- الإمبراطورية الرومانية الغربية وعاصمتها روما.

وقد تم ذلك الانقسام عام 395م.

سقطت الإمبراطورية الرومانية الغربية على يد القائد الجرماني «أودكر» عندما احتل مدينة روما في عام 476م وكان آخر الأباطرة فيها هو الإمبراطور «رومولوس أغسطس» ويُعتبر هذا التاريخ نهاية التاريخ الروماني.

1- اعتنق الإمبراطور قسطنطين الأول الديانة المسيحية وفرضها على الإمبراطورية البيزنطية على المذهب الأرثوذكسي في حين اعتنقت روما بعد ذلك المسيحية على المذهب الكاثوليكي.

وظلت الإمبراطورية الرومانية الشرقية والتي عرفت باسم «الإمبراطورية البيزنطية» قائمة من 323م حتى فتحها المسلم القائد محمد الفاتح في القرن الخامس عشر الميلادي 1453م.[1]

* * *

1- لم تستمر الإمبراطورية الرومانية الغربية طويلًا (323م حتى 476م)، انظر الإغريق تاريخهم - د. سيد أحمد علي الناصري؛ إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان؛ إبراهيم أيوب: التاريخ الروماني.

الحرب بين الروم والفرس في التاريخ أهمها (الحرب الساسانية - البيزنطية 602 - 628م)

قامت حروبٌ طويلة متعدِّدة بين الفرس «البارثيون ومن بعدهم الساسانيون» وبين الرومان «وورثتهم البيزنطيين». لكن الحرب الأخيرة كانت الأعنف لأن كليهما كاد يقضي على الطرف الآخر، وكل ذلك في بضع سنين فقط.

استغل ملك الفرس كسرى الثاني «590-628م» Khosrau II النزاع على السلطة في الإمبراطورية البيزنطية وانطلق مع جيوشه باحتلال شامل للأراضي البيزنطية ضد ملك الروم فوكاس Phocas. فقد كان حلم كسرى الثاني هو إعادة حدود الإمبراطورية الأخمينية السابقة.

كانت البداية بإعلان الحرب عام 602م والزحف على أراضي الإمبراطورية البيزنطية الرومانية، وفي عام 608م وصلت جيوش الفرس في آسيا الصغرى إلى كريسبوليس المواجهة للقسطنطنية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية «أي في الجانب الآسيوي»، وفي نفس الوقت تقدمت قبائل الآفار والسلاف المتحالفين مع الفرس في البلقان لتطوق القسطنطنية من الجانب الآخر «الأوربي»، وغزت جيوش تلك القبائل كذلك عامة البلقان ووصلت إلى أثينا. وقد وسع الفرس رقعة ممتلكاتهم في الشام وأرمينيا.

وفي عام 613م وصلت جيوشهم إلى دمشق. وانتصر الفرس في عدة معارك منها معركة حاسمة في سهل حوران بين مدينتي بِصرَى وأَذْرُعات «دِرْعا اليوم».و أخرى عند البحر الميت.

ثم في العام التالي 614م زحف جيش القائد الفارسي شهربراز إلى إيلياء «القدس». حيث حاصرها الفرس حوالي 20 يومًا، ثم دخلوها عنوة وجعلوها نهبًا للحرائق. وقتل اليهود «حلفاء الفرس التقليديين» عددًا كبيرًا من النصارى يقدره بعض المؤرخين بـ57 ألفًا.

ودمر الفرس كنيسة القيامة واستولوا على الصليب المقدس «الذي يعتقد النصارى أن إلههم صُلب عليه»!! ونقلوه إلى عاصمتهم المدائن.

وكان لسقوط بيت المقدس في أيدي الفرس صدمة كبيرة بين النصارى، ثم تقدم إلى مصر، فسقطت الإسكندرية في أيديهم سنة 619م، وترتب على ذلك انقطاع القمح عن القسطنطينية وازدياد سوء الأحوال الاقتصادية.

وبحلول سنة 622م كانت الإمبراطورية البيزنطية على حافة الانهيار وحدود الإمبراطورية على كل الجبهات احتلها الساسانيون ما عدا أجزاء من الأناضول.

ولم يبق للروم إلا أثينا وجزر البحر المتوسط «قبرص وصقلية» وشريط ساحلي في شمال أفريقيا «قرطاجة». انهارت معنويات الروم، وازداد الصراع الداخلي بينهم، وتوقع الناس سقوط دولتهم سريعًا، فقد كان من المستحيل أن يستطيعوا المقاومة، واستعادة دولتهم وهذا معنى قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾.

* * *

مرحلة انتصار الروم على الفرس

عام 622 م، حدث انقلاب عسكري حيث تمكن هرقل «610-641م» حاكم قرطاجة «تونس» من الاستيلاء على القسطنطينية وأعاد تنظيم الجيش، وأبدى هرقل شجاعة ومهارة كبيرة في مواجهة الخطر الفارسي. فبدلًا من منازلة جيوش الفرس المتوغلة في أراضي الإمبراطورية، قام بالالتفاف عليهم ومهاجمتهم في عقر دارهم في البلاد الفارسية.

وتحالف مع الخزر الترك، وترك العاصمة المحاصرة القسطنطينية وهاجم بلاد فارس من المؤخِّرة عن طريق الإبحار من البحر الأسود، فاستولى على أذربيجان «ميديا» سنة 624، حيث قام بتدمير أكبر معبد نار مجوسي «انتقامًا لتخريب كنيسة القيامة في القدس».

وفي هذه الأثناء ظهر شكٌّ مُتبادَل بين الملك كسرى الثاني وقائد جيشه «شهربراز». وقام الوكلاء البيزنطيون بتسريب رسائل مزيفة إلى «شهرباراز» تظهر بأنّ الملك كسرى الثاني كان يخطّط لإعدامه. فخاف الجنرال «شهرباراز» على حياته وبقي محايدًا أثناء هذه الفترة الحرجة، وبالتالي خسرت بلاد فارس بذلك خدمات أحد أكبر جيوشها وأحد أفضل قادة جيوشها.

توفي بشكل مفاجئ شاهين وسباهبود العظيم قائد الجيش الساساني والذي كان تحت سيطرته بلاد القوقاز وبلاد الأناضول مما أدى إلى ترجيح كفّة الميزان لمصلحة البيزنطيين، وأوصل الملك كسرى الثاني إلى حالة الكآبة.

وبمساعدة الخزر وقوّات تركية أخرى، استغل الإمبراطور البيزنطي هرقل غياب قادة الجيش الساساني وربح عدّة انتصارات مدمِّرة للفرس بعد 15 عامًا من حربهم للبيزنطيين.

انتصر الإمبراطور هرقل ديسمبر عام 627م بدون مساعدة الخزر الذي تركوه، انتصارًا ساحقًا على الجيش الفارسي بقيادة «راهزاد». وهذه المعركة الحاسمة قد قررت مصير الصراع بين الطرفين.

ووصل خبر هذه المعركة إلى المسلمين عام 628م بعد هجرتهم من مكة إلى المدينة المنورة وقد عقدوا صلح الحديبية مع كفار قريش. ثم أرسل النبي ﷺ رسله إلى الملوك ومنهم كسرى الثاني فأرسل إليه الصحابي عبدالله بن حذافة السهمي يدعوه للإسلام. فغضب كسرى غضبًا شديدًا، فجذب الرسالة من يد كاتبه وجعل يمزقها دون أن يعلم ما فيها وهو يصيح: أَيُكتب لي بهذا، وهو عبدي؟!! ثم أمر بعبد الله بن حذافة أن يخرج من مجلسه فأُخرج.

وغادر ابن حذافة -رضي الله عنه- بلاد فارس، فلما قدم على النبي ﷺ وأخبره بما كان من أمر كسرى وتمزيقه الكتاب، فدعا على الفرس أن يُمزَّقوا كل ممزق.

وأرسل كسرى رسالة إلى «باذان» نائبه على اليمن: أن ابعث إلى هذا الرجل الذي ظهر بالحجاز رجلين جلدين من عندك، ومرهما أن يأتياني به. خرج الرجلان رسالة باذان إلى رسول الله ﷺ فلما قرأ كتاب صاحبهم، أخبرهم أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه؛ فقتله في شهر كذا وكذا ليلة كذا وكذا من الليل؛ بعد ما مضى من الليل.

فانطلقوا فأخبروا باذان. فقال: لئن كان ما قاله محمد حقًّا فهو نبي، وإن لم يكن كذلك فسنرى فيه رأيًا.

فلم يلبث أن قدم عليه كتاب شيرويه Kavadh II ابن كسرى يخبره بقتله لأبيه في

تلك الليلة، واستيلائه على عرشه، فأعلن باذان إسلامه، وأسلم من كان معه من الفرس في بلاد اليمن واتبع ذلك إسلام العرب في البحرين.

وخرجوا عن طاعة كسرى. وأسلمت بعض قبائل العرب في العراق مثل بني شيبان.

زحف هرقل ملك الروم من خلال أرض العراق، حيث وصلته أخبار اغتيال الملك كسرى الثاني. ثم تحالف مع الأحباش عام 629م وانتصر مجددًا على الفرس وصار قريبًا من المدائن.

رأى شيرويه أن من الأفضل أن يعقد الصلح مع هرقل. وبمقتضاه استردت بيزنطة كل ما كان لها من البلاد التي كانت قد سقطت في أيدي الفرس، بما في ذلك أملاكهم في بلاد الجزيرة الفراتية والشام ومصر.

واسترد هرقل الصليب المقدس لدى النصارى فأظهر فرحته بأن حمله ومشى حافيًا إلى القدس عام 630م. وفي هذه السنة التقى مع أبي سفيان بعد وصول رسالة النبي ﷺ يدعوه فيها إلى الإسلام، كما سيأتي ذكر ذلك في حينه.

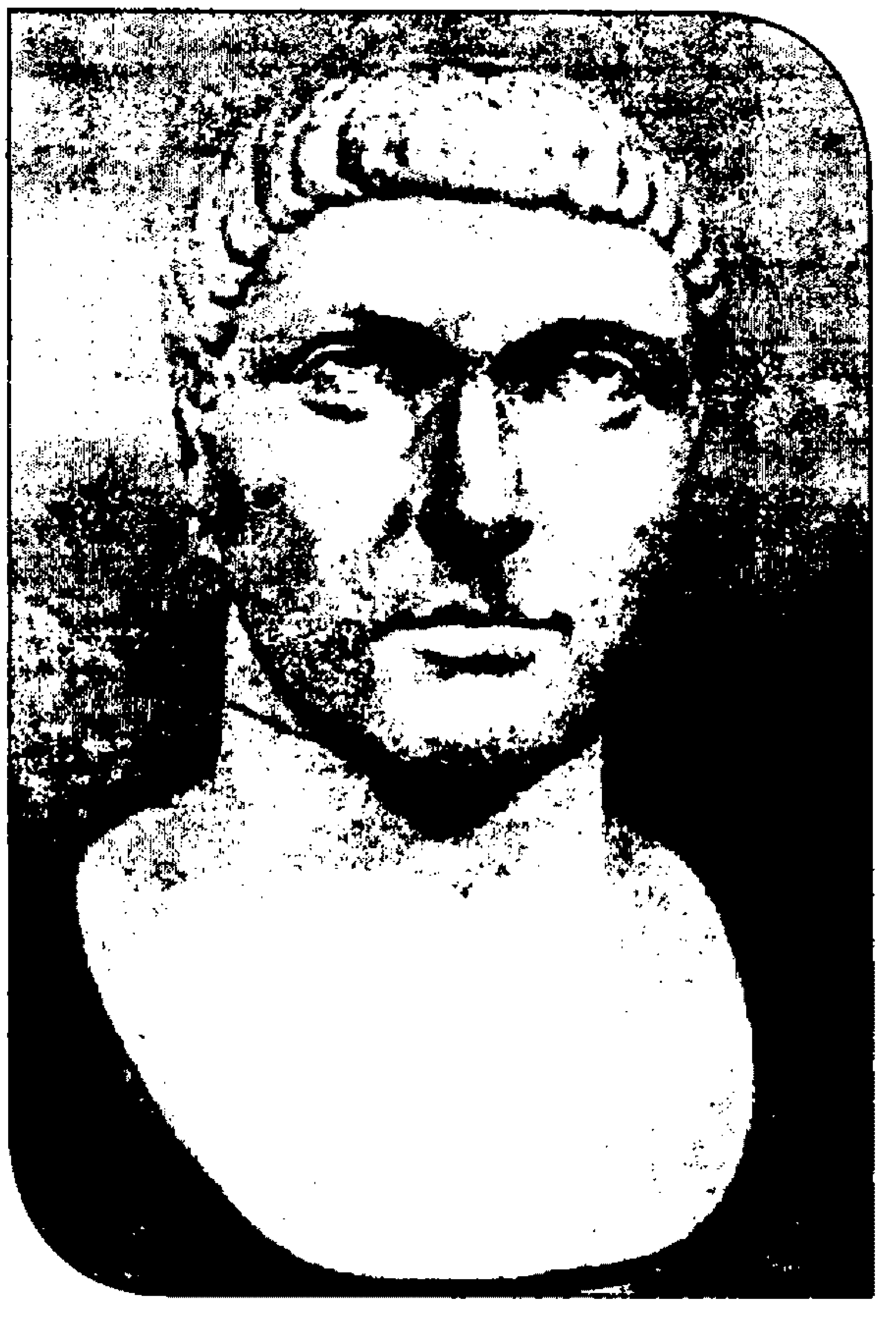
وبعد رجوع هرقل إلى القسطنطينية استقبله أهلُها استقبالَ الأبطال، وحمل له الشعب أغصان الزيتون ورتلوا المزامير وهتفوا باسمه، وبهذا تحقق النصر الذي جاء في الآية: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم: 1 - 5]

وكانت نتيجة هذه الحرب دليل صدق رسالة الإسلام التي جاء بها النبي محمد ﷺ، حيث إن سورة الروم حددت أن نتيجة الحرب تكون في صالح الروم «البيزنطيين»، قبل نهايتها بزمن، حيث نزلت الآيات قبل الهجرة النبوية من مكة عام 622م، وتحقق النصر بسنوات قليلة كما ذكرنا من قبل.

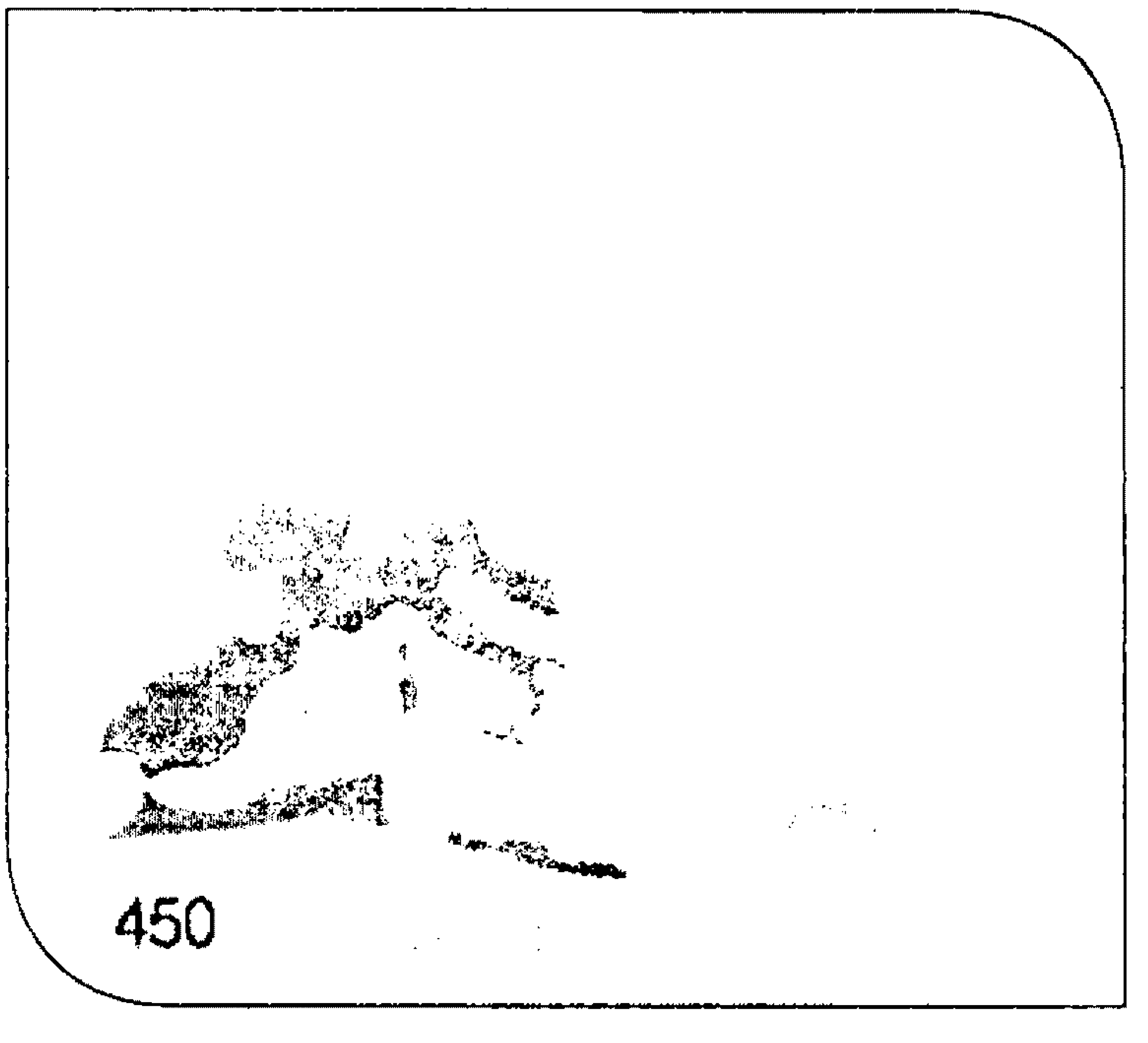
وانتهت إمبراطورية فارس على أيدى الخلفاء الراشدين «أبي بكر وعمر رضي الله عنهما» وقد قتل «شيرويه» الذي قتل أباه كسرى الثاني وجلس على عرشه بعد شهور قليلة من فعلته.

وأدَّى ذلك لدخول مملكة الفرس في حرب أهلية بين أفراد الأسرة المالكة قبل سقوطها بأيدي المسلمين.

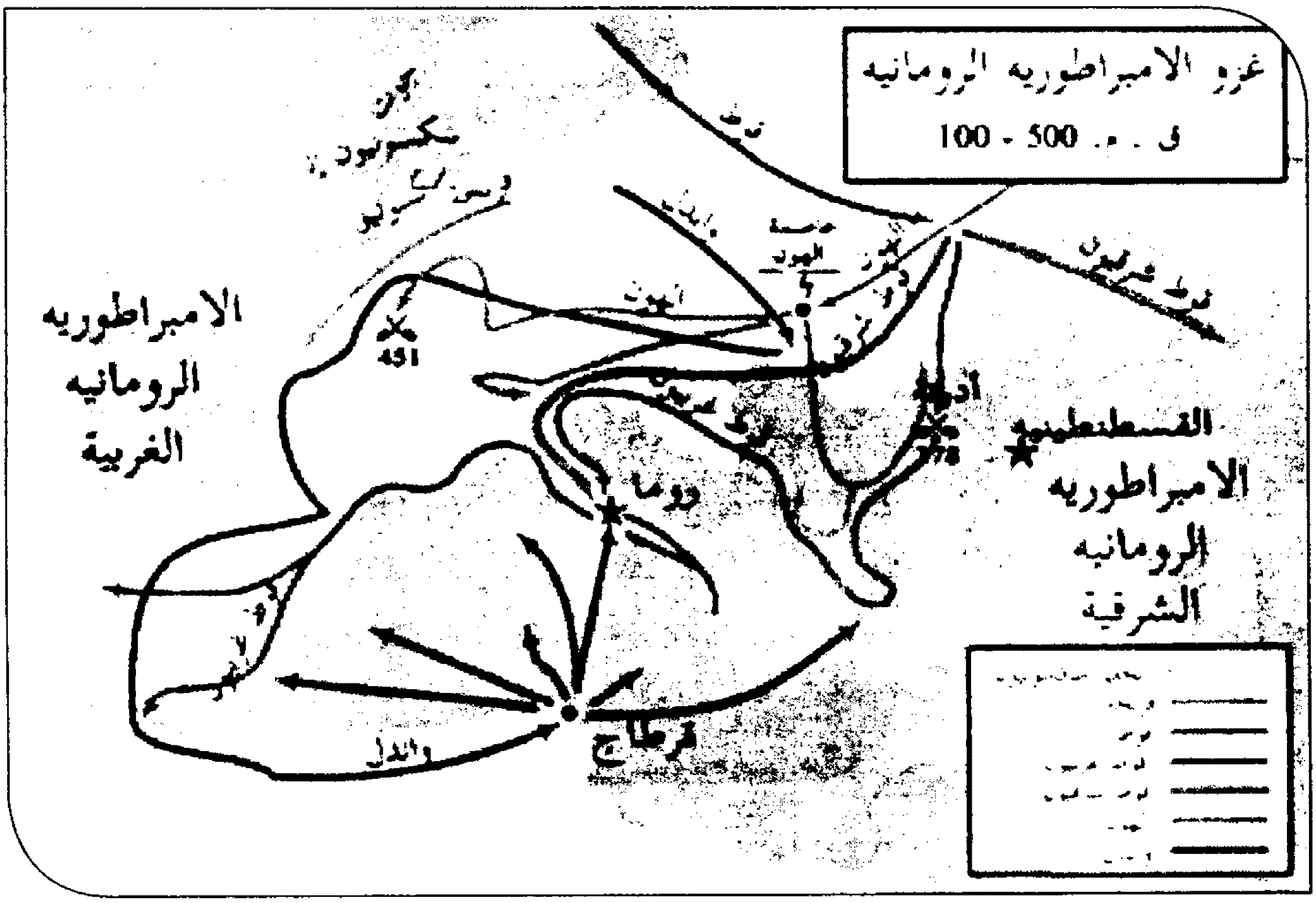
* * *



الإمبراطور قسطنطين الأول



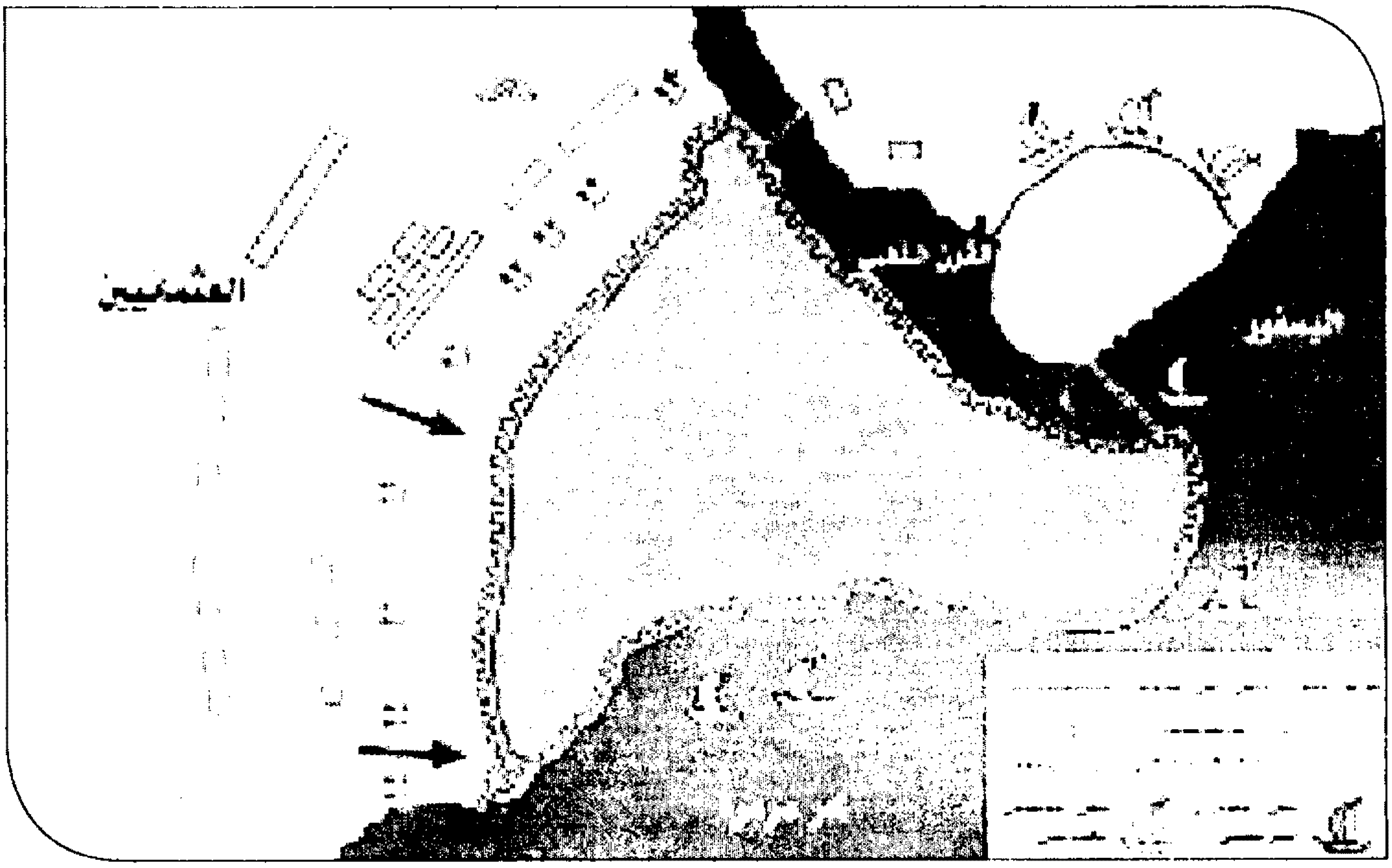
انقسام الإمبراطورية الرومانية عام 395م إلى الإمبراطورية البيزنطية (الرومانية الشرقية) التي استمرت حتى 1453م، والإمبراطورية الرومانية الغربية التي انتهت عام 476م.



الإمبراطورية الرومانية الشرقية والغربية.



عملة أوريوش أغسطس، أول إمبراطور روماني.



الفرس والروم قبل الإسلام.



الإمبراطورية الفارسية في أوج قوتها واتساع رقعتها الجغرافية.

4 أوربا عبر التاريخ القديم والحديث

- الأنظمة والدول التي شهدتها القارة الأوربية في بدايتها.
- اتحاد دول أوربا الغربية إعلان الحروب الصليبية على الشرق العربي.
- فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م.
- أوربا في العصر الحديث.
- حال الإمبراطوريات الأوربية في العصر الحديث.

الأنظمة والدول التي شهدتها القارة الأوربية في بدايتها

مرت القارة الأوربية بعصور متعددة منذ بدء الحياة على الأرض مثلها مثل باقي قارات الأرض كما مرت بالعديد من الحضارات والثقافات مثل جرافتيين، سولتره، ماجدلين التي عاشت بين أعوام 20,000 و 10,000 قبل الميلاد في الفترات الأخيرة للعصر الجليدي في عصور ما قبل التاريخ في أوربا. وبنهاية العصر الجليدي في أوربا في عام 12,500 قبل الميلاد، فقد شهدت أوربا تغييرات جذرية في الظروف الطبيعية والمناخية.

وشهدت معدلات الحرارة زيادة فائقة، وارتفع مستوى البحر. وقد ظهرت التجمعات السكنية الأولى في البلقان في أوربا مع بدايات الألفية السابعة قبل الميلاد.

وقد بدأ العصر الحجري الحديث في شمال أوربا في بدايات الألفية الرابعة والخامسة، لكنه وصل إلى وسط أوربا في بداية الألفية السادسة.

يعتقد أن شعوب الهند الأوربية التي كونت أول مجموعة لغوية في أوربا في ذلك الوقت، هاجرت من وسط آسيا إلى أوربا في هذه الفترة. وأن العصر الحديدي الذى بدأ في عام 1300 قبل الميلاد في الأناضول، وصل إلى أوربا بشكل متأخر في عام 1000 قبل الميلاد. وكانت حضارة الأثوروية التي نشأت في شبه الجزيرة الإيطالية واحدة من أهم الحضارات أوربا في ذلك الوقت.

ويعتقد أن اليونانيين الذين أسسوا دولة اليونان القديمة استقروا في جنوب شبه جزيرة البلقان في عام 3000 قبل الميلاد وبدأت الحضارة اليونانية القديمة في الانتشار والتوسع

عام 23 قبل الميلاد. وعرفت باسم برتو جريك «الفترة اليونانية» في القرن السابع عشر.

أما في الفترة من 1600 إلى 1100 قبل الميلاد، فقد بدأ عصر مكين اليوناني بمحاربة ملك أجيميمنون لتروفا، بطل الملاحم والأساطير اليونانية «هوميروس».

لكن في الفترة من 1100 إلى القرن الثامن قبل الميلاد، لم يوجد أي نص يوناني مكتوب إلا أنه ظهرت بقايا الآثار غير الكاملة في العصر اليوناني المظلم. وظهرت بعض المعلومات الموجزة فيما يخص هذه الفترة وملوكها، مثل تاريخ هيرودت، بوسناس وصف اليونان، ديودروس بيبولتيكا وجيروما كرنيكون.

وببداية عصر الإسكندر الأكبر، انتهى العصر اليوناني القديم، وبدأ العصر الهيلينستي. ووضعت دول المدن اليونانية، التي تأسست في تلك الفترة، أولى أسس الديمقراطية في المنطقة وإن الفلاسفة العظماء أمثال إسخيلوس، أريستوفان، افريبيدس، سوفوكليس، أرسطو، سقراط، هيرودت، كيزنفون. هؤلاء نشأوا في مدن كبيرة مثل أثينا، سبارطة.

أما دولة روما القديمة فتأسست في شبه جزيرة إيطاليا، في القرن التاسع قبل الميلاد، وأصبحت إمبراطورية هائلة تشمل كل منطقة البحر الأبيض المتوسط.. ويعتقد أنه في 27 ابريل 753 قبل الميلاد، قام التوأم رومولوس ورموس أحفاد الأمير أينياس بتأسيس مدينة روما. وبدأت تنهار قوة الأتروسكان القاطنين في شبه الجزيرة الإيطالية. وتخلصت الحضارة الرومانية في عام 509 قبل الميلاد من الملكية، وعادت إلى الديمقراطية بنظام الحكم الجمهوري.

وفي هذه الفترة يحكم جمهورية روما القنَّاصة الرومان ومجلس الشيوخ الرومانى اللذان اختارهما مجلس الشعب.

وفي عام 52 قبل الميلاد، أعلن يوليوس قيصر نفسه ديكتاتورًا، وضم جاليا إلى أراضي الجمهورية الرومانية.

أمّا في عصر أغسطس فقد عادت الدولة تُحكم بالنظام الإمبراطوري وظلت على ذلك النظام حتى نهايتها.

وفي عصر الأباطرة الخمسة الصالحين، توسعت أراضي الإمبراطورية في فترة من «96 إلى 180 قبل الميلاد». وعاشت الإمبراطورية الرومانية أزهى عصورها في المجالات الاقتصادية والثقافية بعيدًا عن التهديدات الداخلية والخارجية.

وفي عصر «تراجان» قامت الإمبراطورية الرومانية بأضخم توسع حدودي بفتح داتكا. وقد شملت الأراضي الرومانية ما يقرب من 6,5 مليون كيلو متر وقد أصبحت اللغة اللاتينية هي اللغة الرسمية في كل الأراضي التابعة للإمبراطورية الرومانية.

وفي عام 330م، قام الإمبراطور قسطنطين بإطلاق اسم القسطنطينية على روما الجديدة، وجعلها عاصمة الإمبراطورية الرومانية. وفي عام 395م، وبعد وفاة ثيودوسيوس الأول انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى الشرق والغرب.

وفقدت الإمبراطورية الرومانية قوتها بعد انقسماها للإمبراطورية الشرقية والغربية. وتعرضت كل من أقوام القوط، الوندال، اللومبارديون، الفرنجة، والسكسون، والجوتيون الذين يقطنون بهسبانيا وجالايا وإيطاليا خارج حدود الإمبراطورية الرومانية الغربية، إلى هجوم أقوام البربرية الالمان.

واستولى القوط الغربيون - الجرمان - في حروبهم ضد الهون على مدينة روما متقدمين إلى جنوب نهر الدانوب بقيادة آلاريك في عام410م.

وسقطت الإمبراطورية الرومانية الغربية في 476م. وبسقوط الإمبراطورية الرومانية بدأت العصور الوسطى.

أوربا في العصور الوسطى:

قام القوط الغربيون، الفرع الغربي من القوطيين الذين تنقلوا من إيطاليا ثم إلى

إسبانيا، بتأسيس مملكة كبيرة لهم هناك. واستولى الوندال، وهم جزء آخر من الشعب الألماني على روما في عام455م، بقيادة أركان حرب جنسيرك.

وتقدم الفرنج -التابعون لقبائل البربر-إلى الغرب مباشرةً، ووصلوا إلى داخل جالايا.

وقام في الوقت نفسه كل من القوط والسكسون بتنظيم الهجوم والغزوات على بريطانيا الرومانية إحدى الولايات في روما.

أمَّا القوط الشرقيون -الفرع الشرقى من القوط- فاستولوا على أراضي روما أيضًا، وأسسوا مملكة كبيرة لهم في إيطاليا. لكن على الرغم من ذلك، لم تستمر هذه الإمبراطورية كثيرًا، وانهارت بعد 60 عامًا من تأسيسها.

وأثناء هجوم البربر لم ينشأ نظام حكم قوى ومتين في إيطاليا. قام الإمبراطور البيزنطي جستنيان بضم إيطاليا إلى أراضي الإمبراطورية الرومانية بعد فترة مستفيدًا من الاوضاع السياسية المتوتِّرة بها ولكن بعد وفاة جستنيان في 565، قام اللومبارديون بالاستيلاء على إيطاليا مرة أخرى.

اعتنق الفرنك -وهم واحدة من القبائل البربرية الألمانية- الديانة المسيحية في القرن السادس الميلادى. وأسست قبائل الفرنك -وهى عضو بالسلالة الكارولنجية الفرنجة اليوم- إمبراطورية الكارولنجية مسيطرة على ألمانيا، وفرنسا، وبلجيكا، وهولندا، وسويسرا، وإيطاليا. وهي تعتمد بشكل أساسي على الإمبراطورية التي أسسها الفرنك ذو الجنس الألماني بفرنسا

وفي عام 768م وصلت حدود الإمبراطورية لأقصى اتساع لها، وذلك بعد تولي شارلمان حكم الفرنجة.

وفي 25 ديسمبر 800م أعلن البابا ليون الثالث في كاتدرائية القديس بطرس في الفاتيكان، «ليو شارلمان» إمبراطورًا للإمبراطورية الرومانية المقدسة. واضطر

البيزنطيون، الحاملون للقب الإمبراطور الروماني، إلى الاعتراف بلقب إمبراطورية «شارلمان».

وانهارات الإمبراطورية الكارولنجية بعد وفاة شارلمان في 814م.

وفي منتصف القرن العاشر الميلادي، قام أوتو الأول من حكام الألمان بالسيطرة على الأراضي الخاضعة لحكم شارلمان، وأسس الإمبراطورية الرومانية الألمانية المقدسة.

وفي عام 962م منح البابا لونوس الثاني عشر لقب الإمبراطور الروماني إلى أوتو الأول. وانضمت الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى الكونفدرالية الألمانية في وسط أوربا. وبسبب عدم قدرتها على المنافسة فقدت سيطرتها وقوتها في عام 1806م، وحلت محلها الإمبراطورية النمساوية.

وحتى عام 774م ظلت زمام الأمور بأيدى اللولمبارديين «الشعب الألماني» بشمال إيطاليا.

وفي عام 751م خاض اللولمبارديون حروبًا في الجنوب وسيطروا على رافينيا وآرادوا دعمًا من البابا بالفرنجة، ولكن هزمت الفرنك اللومبارديون، وعادت إيطاليا إلى البابا مرة أخرى. وتأسست دولة بابوية مستقلة عن مدينة روما.

وردًا على ذلك، قام البابا الثالث ليو باسترداد كرامة ومكانة الفرنك، وذلك باعلان الإمبراطور «شارلمان» ملكا عليها.

أمَّا في القرن الحادي عشر فقد قويت الدولة بضم العديد من الدول مثل: جمهورية البندقية، جمهورية جنوة، اتحاد لومبارد، مملكة نابولي، وجمهورية فلورنسا. وفى ذلك الوقت كانت البابوية والإمبراطورية الرومانية المقدسة من أهم مراكز القوة في العالم.

* * *

توحيد إيطاليا وإمبراطورية ألمانيا

كانت القرارات الصادرة في مؤتمر فينيا الذي عقد بعد حروب نابليون في عام 1815م تهدف لإقامة توازن فيما بين القوى العظمى بأوربا.

حدث العديدُ من الثورات بأوربا فيما بين أعوام 1815-1871 وحركات الوحدة الوطنية والحركات الاشتراكية والأناركية «الثورات».

انتقد الألماني كارل ماركس الرأسمالية الملكية الخاصة في البيان الشيوعي الذي كتبه في عام 1848م فقد حدثت انتفاضات ومظاهرات وأعمال شغب باسم ثورات 1848م في أفلاق والتي تكون وثيقة الصلة بفرنسا والنمسا وبولندا وحتى الإمبراطورية العثمانية وأيضًا في المناطق الألمانية والإيطالية الذين كانوا دويلات منفصلة بأوربا في ذلك الحين.

وخلال الحروب النابليونية انهدمت تلك الدويلات في شبه الجزيرة الإيطالية. واحتلت النمسا جزءًا كبيرًا من إيطاليا وكان مؤتمر فينيا يفكر في إعادة تأسيس الدول القديمة في شبه الجزيرة الكورية مرة أخرى، وبدأ ينتشر بين الشعب فكرة إنشاء دولة واحدة في شبه الجزيرة الإيطالية بدلًا من إعادة تأسيس هذه الدولة.

بدأت الجمعيات السرية «كاربوناري» العمل من أجل توحيد إيطاليا ومن الجدير بالذكر أن جوزيبي كاريبالدي كان بطل هذه الحركة التوحيدية وكان فيتوريو إيمانويل الثاني ملك سردينيا من بين أنصار تلك الحركة التوحيدية.

شعر سردينيا بأمس الحاجة لدعم بريطانيا وفرنسا لطرد النمساويين من إيطاليا

وانضمت لحرب القرم ولكنها لم تجد أي جدوى من هذا.

وقامت حركات ثورية وحروب من أجل طرد الاحتلال النمساوي لإيطاليا، وبالفعل تمكن الثوار من إجلاء الاحتلال النمساوي، حيث لم تتمكن النمسا من تحمل الصمود أمام التمردات الجارية وفي النهاية تخلت عن إيطاليا باستثناء البندقية وأعلن عن قيام مملكة إيطاليا في عام 1861م. وأصبح «فيتوريو إيمانويل» أول ملك لإيطاليا.

أما توحيد ألمانيا فقد تحقق فيما حول بروسيا، وتولى ويلهلم اوتو فون بسمارك رئاسة الوزراء في عام 1862م. وحل مجلس بروسيا وأعلن الحرب على الدنمارك واستولى على الدويلات الألمانية واحدة تلو الأخرى باستخدام قوة بروسيا العسكرية وأسس الاتحاد الألماني الشمالي.

وكانت عاصمة هذه الاتحاد برلين، حيث هزم الجيش الفرنسي بقيادة نابليون الثالث وفاز على منطقتي الألزاس واللورين. وبالتالي، تأسست الإمبراطورية الألمانية في الثامن من يناير 1871م وحكمت سلالة هوهنزولرن الإمبراطورية الجديدة، وكان إمبراطور ألمانيا هو المستشار فيلهلم الأول بسمارك ملك بروسيا وكانت عاصمتها برلين. (1)

* * *

1- موسوعة حضارة العالم وضعها أحمد محمدعوف؛ دراسات في تاريخ أوربا الحيث والمعاصر - فاروق عثمان أباظة.

ظهور الإمبراطورية البيزنطية في شرق أوربا

ظهرت الإمبراطورية البيزنطية مع انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى شرقية وغربية سنة 395م، وعاصمتها تقع في القسطنطينية أي «إسطنبول» واستمر وجودها ما يقرب من ألف عام.

وقعت الإمبراطورية البيزنطية تحت تهديد السلاجقة في الغرب عندما كانت تحارب جيوش المسلمين والفرس في الشرق في القرنين السابع والثامن الميلادي. وتولى هرقل عرش الإمبراطورية البيزنطة في 610م، وأوقف الهجوم على الفرس وعزز قواته للدفاع عن العاصمة. وسحق قوات الآفار وذلك بمروره بالأراضي البيزنطية عابرًا نهر الدَّانوب.

وفي هذه الفترة قام العرب بالعديد من الفتوحات من أجل نشر الدين الإسلامي. وسيطرت الجيوش العربية على سوريا وفلسطين في 632م. ثم مصر في 642م، وأصبحت مصر والشام والعراق وبلاد فارس تحت حكم الخلافة الإسلامية.

وفي الفترة من 674م إلى 678م على الرغم من محاصرة العرب للقسطنطينية العديد من المرات، إلا أنهم لم يستطيعوا اقتحامها وفتحها.

وشهدت الإمبراطورية البيزنطية عصورها الذهبية في الفترة من 867 حتى 1056م عندما حكمتها السلالة المقدونية. وقام الإمبراطور باسيليوس الأول، مؤسس السلالة المقدونية في الفترة من «867 إلى 886»، والذى تعرض للهزيمة قبل ذلك بضم كل الأراضي التابعة للأناضول إلى حدود الإمبراطورية الرومانية.

وقام كل من «باسيليوس الأول» و«ليو السادس» في الفترة من «886 حتى 912» بإعادة وضع النظام القانوني للإمبراطورية مرة أخرى. وقام «نيقفوروس الثاني» في الفترة من «963 حتى 969م» بضم أراضي كريت وقبرص إلى الإمبراطورية، وسيطر على أراضٍ جديدةٍ في سوريا والبلقان.

وكما ذكرنا من قبل فقد انتهى الإمبراطورية البزنطية عام 1453م حين استطاع السطلان العثماني محمد الثاني «الفاتح» من اقتحامها وضمها إلى الإمبراطورية والخلافة الإسلامية العثمانية وذلك بسقوط القسطنطينية التي أصبح اسمها «إسلامبول» ثم إسطنبول وهي الآن إحدى أكبر مدن تركيا.

* * *

ظهور إنجلترا وفرنسا

كانت جزيرة بريطانيا الكبرى ولاية بريطانية مرتبطة بالإمبراطورية الرومانية ما بين أعوام 55 إلى 410 بعد الميلاد. وبدأت الديانة المسيحية بالانتشار في الجزيرة في القرن الخامس الميلادي. وانضمت الشعوب الألمانية الأنجلوسكسونية، الذين هاجروا إلى الجزيرة، إلى تلك الشعوب الأصلية لهذه الجزيرة.

وقام النورمان، القادمون من فرنسا بقيادة ويليم الأول في عام 1066م بالسيطرة على الجزيرة. وذلك بعد انتصارهم في معركة «هاستيجنز» وعلى الرغم من سيادة ثقافة الشعب الألماني في الجزيرة، الا إنه بمجيء النورمان أصحاب الثقافة الفرنسية، انتشرت ثقافتهم في كل أنحاء الجزيرة.

ونشبت الخلافات بين «الأنجلوسكسونية» الأمة البريطانية التي جاءت من قبل إلى الجزيرة، مع النورمان.

وفي عام 1215م، وقع جون ملك إنجلترا وشقيق الملك ريتشارد اتفاقية «ماجنا كارتا» مع نبلاء إنجلترا، ولأول مرة في تاريخ أوربا وهي اتفاقية تقيد السلطة الملكية سلطات الملك مثل إعلان حقوق الإنسان.

وبعد انهيار الإمبراطورية الفرنسية، التي كانت تضم ولايات غليا لقدونسية وغليا أقويتينا التابعتين للإمبراطورية الرومانية، تعرضت إلى غزو الفرنج شعوب ألمانيا. وحَكم المنطقة في الفترة من 481 حتى 687م سلالة «ميروفنجيون».

وخلال الفترة من 751 حتى 840، كانت فرنسا ووسط أوربا أصبحوا جزءًا من الإمبراطورية الكارولنجية.

وفي عام 843، تعرضت الدولة للانقسام وذلك بتوقيع معاهدة فيردان التي وقعها أحفاد شارلمان وأصبح الجزء الغربي من مملكة الفرنج ما يسمى فرنساالآن.

وكان يحكم فرنسا في العصور الوسطى أكثر من مملكة. وفي عام 987، أسس الملك أوغو كابيه «هيو كابيت» سلالة كابيت، التي تحكم جزءًا كبيرًا من فرنسا.

وكذلك حكم فرنسا في هذا الوقت أسرة «فالوا»، وهي فرع من سلالة كابيت وسلالة بوربون حتى عام 1830م أمَّا النورمان فقد حكموا شمال فرنسا، وانتشر نفوذهم وقوتهم بعد ذلك بالسيطرة على إنجلترا وصقلية.

* * *

الأندلس من الحكم الإسلامي
إلى الحكم الغربي المسيحي

في القرن الثامن الميلادي، أرسل موسى بن نصير، والي المسلمين في الدولة الأموية، طارق بن زياد قائد البربر إلى شبة الجزيرة الإيبيرية متخطيًا مضيق جبل طارق.

وفي ذلك الوقت كانت شبه الجزيرة الإيبيرية في أيدي القوط الغربيين «الألمان» وكانت تقع في العاصمة طليطلة، وألحق طارق بن زياد بملك القوط الغربيين «لذريق» هزيمة ساحقة. وبذلك سقطت مملكة القوط الغربيين. وبعد فترة وجيزة أصبحت شبه الجزيرة الإيبيرية في أيدي المسلمين بشكل كامل.

وبسقوط الدولة الأموية في عام 749م «132هـ» هرب الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل والذي يعرف بـ «صقر قريش» من الشام إلى الأندلس، وفي عام 755 بقى بشبه الجزيرة الإيبيرية «أسبانيا». وفى عام 756م أسس الدولة الأموية في الأندلس، وأعلن نفسه خليفة وأميرًا عليها.

قُسمت الأندلس إلى خمس وحدات إداريّة بعد فتحها واستقرار الحكم الإسلامي فيها، وتلك الوحدات تقابل تقريبًا كلًا من: منطقة أندلوسيا، والجمهوريّة البرتغاليّة، ومنطقة جليقية «غاليسيا»، ومنطقة أراگون المعاصرة؛ ومنطقة قشتالة، ومملكة ليون، وكونتيّة برشلونة، ومنطقة سپتمانيا التاريخية.

في بادئ الأمر، تُشكِّلت ولايةً من ولايات الدولة الأمويّة، زمن الخليفة:

الوليد بن عبد الملك، وبعد انهيار الدولة الأمويّة وقيام الدولة العبّاسيّة، كما ذكرنا، استقلّ الأمير الأموي عبدالرحمٰن بن معاوية، بها وأسس فيها إمارة قرطبة، فدامت 179 سنة، وقام بعدها عبد الرحمٰن الناصر لدين الله بإعلان الخلافة الأمويّة عوض الإمارة، لأسباب سياسيّة خارجيّة في الغالب، وقد تفككت الدولة الأخيرة في نهاية المطاف إلى عدّة دويلات وإمارات اشتهرت باسم «الطوائف».

كانت الإمارات والدُّول الأندلسيّة المتعاقبة مرتعًا خصبًا للتحاور والتبادل الثقافي بين المسلمين والمسيحيين واليهود من جهة، وبين العرب والبربر والقوط والإفرنج من جهة أخرى، وقد انصهرت هذه المكونات الثقافيّة في بوتقة واحدة وخرج منها خليط بشري وحضاري ميَّز الأندلس عن غيرها من الأقاليم الإسلاميّة، وجعل لها طابعًا فريدًا خاصًّا. كانت الشريعة الإسلاميّة هي المصدر الأساسي للقضاء وحل المنازعات، وترك المسلمون أهل الكتاب من اليهود والنصارى يرجعون إلى شرائعهم الخاصّة للتقاضي والتظلّم، لقاء الجزية.

كانت الأندلس منارةً للعلم والازدهار في أوروبا، في حين كانت باقي القارّة تقبع في الجهل والتخلُّف، وأصبحت مدينة قرطبة إحدى أكبر وأهم مدن العالم، ومركزًا حضاريًا وثقافيًا بارزًا في أوروبّا وحوض البحر المتوسّط والعالم الإسلامي، منافسةً بغداد عاصمة الدولة العبّاسيّة والقسطنطينيّة عاصمة الإمبراطوريّة البيزنطيّة.

ساهم العلماء الأندلسيّون على اختلاف خلفيّاتهم العِرقيّة والدينيّة بتقدّم مختلف أنواع العلوم في العالمين الإسلامي والمسيحي، ومن هؤلاء على سبيل المثال: جابر بن أفلح في علم المثلثات، وإبراهيم بن يحيى الزرقالي في علم الفلك، وأبو القاسم الزهراوي في الجراحة، وابن زهر في الصيدلة، وغيرهم.

عاشت الأندلس صراعات مريرة مع الممالك المسيحيّة الشماليّة أغلب تاريخها، وبعد أن تفككت دولة الخلافة فيها وقامت دويلات ملوك الطوائف، تشجّعت

الممالك المسيحيّة على مهاجمتها وغزو أراضيها، بقيادة ألفونسو السادس ملك قشتالة، فانتفضت دولة المرابطين بالمغرب الأقصى لنصرة الأندلس، وتمكّنت من صد الهجمات الإفرنجيّة والقضاء على استقلال جميع دويلات الطوائف، فأصبحت الأندلس ولايةً من ولايات الدولة المرابطيّة، وورثتها الدولة الموحديّة من بعدها. تمكّنت الممالك المسيحيّة الإفرنجيّة في نهاية المطاف من التفوّق على جيرانها المسلمين، فتمكّن ألفونسو السادس من السيطرة على طليطلة سنة 1085م، وسرعان ما أخذت باقي المدن الإسلاميّة تتساقط بيد الإفرنج الواحدة تلو الأخرى، وفي سنة 1236م سقطت قرطبة، وأصبحت إمارة غرناطة خاضعة لسلطان مملكة قشتالة وتدفع لها الجزية لقاء عدم التعرّض لها.

وفي سنة 1249م تمكّن ألفونسو الثالث ملك البرتغال من انتزاع منطقة الغرب من المسلمين، الأمر الذي جعل من غرناطة الحصن الوحيد والأخير للمسلمين في الأندلس.

وفي يوم 2 ربيع الأوّل 897هـ الموافق فيه 2 يناير 1492م، استسلم أمير غرناطة أبو عبد الله محمّد الثاني عشر إلى الإفرنج وسلّم المدينة إلى الملكين الكاثوليكيين: إيزابيلّا القشتاليّة وفرناندو الثاني الأراگوني، منهيًا بذلك العصر الإسلامي في أيبيريا. وقد نزح المسلمون واليهود من الأندلس بأعداد كبيرة، وتبعثروا في المغرب ومصر والشَّام والآستانة عاصمة الدولة العثمانيّة.

وكان العثمانيون قد خططوا للهجوم على الأندلس واستردادها، لكنّ الخطة لم تطبّق لانشغال الأسطول العثماني بفتح قبرص ولعدم التوصل إلى اتفاق مع الدولة السعديّة المغربيّة.و انتهى حكم العرب للأندلس وعاد لها اسمها إسبانيا وعادت إلى أحضان أوربا.

* * *

أوربا الغربية وإعلان الحروب الصليبية على الشرق

في القرن الحادي عشر، بدأ الأتراك بالدخول في الإسلام والهجرة إلى الغرب، وبتأسيس الإمبراطورية السلجوقية سيطروا على جزء كبير من الشرق الأوسط. وحتى ذلك الوقت فإن الأوربيين، الذين لم يتصادموا كثيرًا مع العالم الإسلامي، هَزموا البيزنطيين هزيمة ساحقة في معركة ملاذ كرد في 1071م.

وفتحت أبواب الأناضول للأتراك، ومن ثم قام الأتراك بالتقدم مباشرة إلى ضواحي إسطنبول، أسسوا الدولة السلجوقية بالأناضول في نيقية. وطلب الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس الأول كومنينوس من البابا أوربانوس الثاني مساعدته في الحرب على الأتراك.

وخططت الدول الأوربية فيما بينها بالقيام بالحروب الصليبية على المسلمين، وذلك بسبب عدم قبولهم بسيطرة المسلمين على الأراضي المقدسة في القدس.

وفي عام 1095م، اجتمع البابا أوربانوس الثاني مع القادة الأوربيين بمجلس كليرمون في مدينة كليرمون بفرنسا، وحثهم على غزو الشام واحتلال القدس، وقامت الجيوش التي استجابت إلى هذه الدعوة بشن أول الحروب الصليبية على الأناضول عام 1097م. وحققت الدول الأوربية ناجحًا ساحقًا في أولى الحروب الصليبية التي خاضتها ضد المسلمين.

عرفت تلك الحروب بحروب الفرنجة أو الحملات الصليبية أو الحروب الصليبية قام بها أوربيون من أواخر القرن الحادي عشر حتى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر «1096 - 1291»، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى الذين اشتركوا فيه وكانت حملات دينية وتحت شعار الصليب من أجل الدفاع عنه وذلك لتحقيق هدفهم الرئيسي وهو السيطرة على الأراض المقدسة كبيت المقدس، ولذلك كانوا يخيطون على ألبستهم على الصدر والكتف علامة الصليب من قماش أحمر.

كانت الحروب الصليبية سلسلة من الصراعات العسكرية من الطابع الديني الذي خاضه الكثير من أوربا المسيحية ضد التهديدات الخارجية والداخلية. وقد خاض في الحروب الصليبية ضد المسلمين، وثنية من السلاف، والمسيحيين الروسية والأرثوذكسية اليونانية، والمغول، والأعداء السياسيين للباباوات. وكان الصليبيون يبذلون الوعود ويمنحون التساهل.

هدف الحروب الصليبية في الأصل كان الاستيلاء على القدس والأراضي المقدسة التي كانت تحت سيطرة المسلمين، وكانت القاعدة التي أطلقت في الأصل استجابة لدعوة من الإمبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية الشرقية لمساعدتهم ضد توسع المسلمين السلاجقة في الأناضول.

كانت الحروب الصليبية بعيدة المدى السياسي، والاقتصادي، والتأثيرات الاجتماعية، والتي استمر بعضها في الأوقات المعاصرة. بسبب الصراعات الداخلية بين الممالك المسيحية والقوى السياسية، وبعض البعثات الصليبية قد تم تحويلها من الهدف الأصلي، مثل الحملة الصليبية الرابعة، والتي أسفرت عن تقسيم الإمبراطورية البيزنطية بين البندقية والصليبيين. وكانت الحملة الصليبية السادسة أول حملة صليبية دون مباركة البابا، وإرساء سابقة: أن الحكام بخلاف البابا أن يستهلُّوا حملة صليبية.

قسم المؤخون الحملات الصليبية على الشرق العربي إلى الحملات التالية:

أول حملة صليبية كانت حملة شعبية عرفت بحملة الفقراء الصليبية، قام بها الفقراء وعدد قليل من الفرسان، حيث كان الوعد الكنسي بالخلاص والفوز بالغنائم سببًا مقنعًا لمغادرة حياتهم البائسة والتوجه إلى تحرير القدس.

وهذه الحملة قادها بطرس الناسك حتى وصولها إلى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية. وكانت الجموع تندفع دون توقف ودون انتظار أوامر القيادة، تاركةً وراءها خرابًا ونهبًا في المجر والصرب واليونان وآسيا الصغرى، حتى سحقتهم قوات السلاجقة الأتراك في 21 أكتوبر عام 1096م. وكان عدد الصليبيين 25 ألف رجل.

الحملة الصليبية الأولى:

تحركت في أغسطس عام 1096 من اللورين، طوابير قادها جودفري دي بوبون الرابع، وانضم إليها أتباعه «أخوه الأكبر الكونت يوستاس من بولون وأخوه الأصغر بلدوين من بولون أيضا، كما انضم بودوان بورغ ابن عم جودفري، والكونت بودوان من اينو والكونت رينو من تول» على إثر الدعوة التي انطلقت لها حملة الفقراء، مشت هذه الفصائل على طريق الراين-الدانوب التي سارت عليها قبلهم فصائل الفلاحين الفقراء. حتى وصلت القسطنطينية نهاية عام 1096.

وأسفرت الحملة الأولى عن احتلال القدس عام 1099 وقيام مملكة القدس اللاتينية بالإضافة إلى عدّة مناطق حكم صليبية أخرى، كـ «الرها» وإمارة أنطاكية وطرابلس بالشام.

ولعبت الخلافات بين حكام المسلمين المحليين دورًا كبيرًا في الهزيمة التي تعرضوا لها، كالخلافات بين الفاطميين بالقاهرة، والسلاجقة الأتراك بنيقية بالأناضول

وقتها. وباءت المحاولات لطرد الصليبيين بالفشل كمحاولة الوزير الأفضل الفاطمي الذي وصل عسقلان ولكنه تراجع بعدها أمام الجحافل الصليبية التي استكملت السيطرة على بعض البلاد الشامية والفلسطينية بعدها.

الحملة الصليبية الثانية: واحتلال القدس:

بدأت الحملة الثانية عام 1147 وانتهت عام 1192. وكانت قد أعقبت فترة من الهدوء، دعا إليها برنارد دي كليرفو، وكان قادتها لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث هوهنشتاوفن إمبراطور الجرمان «ألمانيا»، وهي أول حملة يشترك فيها الملوك، تعرضت فيها الجحافل الألمانية لضربة قوية تمثلت في الجوع والمرض بعد هزيمة منكرة لحقت بها أمام فصائل الخيالة التابعة لسلطان قونية السلجوقي جوار ضورليوم، كما منيت القوات الفرنسية بهزيمة خطرة بجوار خونة. انهك السلاجقة الصليبيين بغاراتهم المتواصلة.

وفي 24 يونيو 1147 تلاقى لويس السابع وكونراد الثالث وْوصية العرش ميليساندا مع أعيان القدس. ومضوا لحصار دمشق الحصينة، لأن فتحها كان يبشر بغنائم وفيرة، استمر الحصار خمسة أيام «من 23 إلى 27 يوليو»، لكنه فشل. وتخلي ملك القدس بودوان وبارون طبرية عن مطلبهما بعد تدهور موقعهم العسكري بسبب مناورة عسكرية أو لعله برشوة قدمها لهما الوزير الدمشقي معين الدين أنر.

وفي عام 491هـ/ 1097م؛ تجمعت قوات الصليبيين في القسطنطينية، وبعد أن تم إعدادها عبرت البسفور إلى الشام، ودارت بينهم وبين السلاجقة معركة عام 1097م، عند «ضورليوم»، ولكن هزم فيها السلاجقة، ثم استولى الصليبيون على أنطاكية في شمالي الشام، وأسسوا بها أول إمارة لهم، ثم استولوا على الرها في إقليم الجزيرة الشمالي، وأسسوا إمارتهم الثانية واتجهوا إلى مدينة القدس وبها بيت المقدس.

لم يستطع جيش الفاطميين فك حصار المدينة الذي استمر شهرًا كاملًا، ودخلها

الفرنجة في النهاية في 15 يوليو سنة 1099م، وأقاموا فيها مذبحة قضوا على سكانها جميعًا رجالًا ونساءً وأطفالًا وكهولًا، واستباحوا مدينة القدس أسبوعًا يقتلون ويدمرون حتى قتلوا في ساحة الأقصى فقط سبعين ألفًا من المسلمين.

وقتل ريموند القائد الصليبي حين احتل «معرّة النعمان»، مائة ألف مسلم، وأشعل النار فيها، ثم أقاموا دولتهم الكبرى المعروفة باسم مملكة القدس، وفي هذه الحملة، ظلت بعض مدن الشام الهامة مثل حلب ودمشق في أيدي المسلمين.

وأصبح للفرنجة في الشام أربعة أقاليم هي:

إمارة الرّها «1098م»، وتشمل أعالي نهري دجلة والفرات، وتقرب حدودها الجنوبية الغربية من حلب، وكانت عاصمتها الرها التي توجد في بعض الخرائط باسم إدريسّا.

والثانية فهي إمارة أنطاكية، وتقع في الإقليم الشمالي جنوب غرب إمارة الرها. ثم تليها جنوبًا إمارة طرابلس وهي تقع في شريط ضيق على الساحل وهي أصغر هذه الإمارات. أما الرابعة فهي مملكة القدس، وتمتد حدودها الشرقية من قرب بيروت الحالية، ثم تتبع نهر الأردن حيث تتسع قليلا، وتتجه جنوبًا إلى خليج العقبة، وكانت عاصمتها القدس نفسها. وكان لكل إمارة من هذه الإمارات أمير أو حاكم يحكمها.

معركة حطين وتحرير القدس

في 4 يوليو 1187م وقعت معركة حطين التاريخية التي انتصر فيها السلطان صلاح الدين الأيوبي سلطان مصر والشام؛ فحرر القدس في 2 أكتوبر 1187م، الأمر الذي دفع بالبابا غريغوري الثامن إلى دعوة الحملة الصليبية الجديدة.

الحملة الصليبية الثالثة:

دعا إليها البابا جريجوريوس الثامن، عام 1187 ردًا على استرداد صلاح الدين

للقدس وعودتها للمسلمين.وقاد الجيوش الصليبية ملك فرنسا فيليب أوغست، وريتشارد «قلب الأسد» ملك إنجلترا، وملك الجرمان «ألمانيا» فريدريك بربا روسا، لكن بربا روسا غرق في 1190 في نهر اللامس. فتشردت صفوف قواته. أما الفرنسيون والإنجليز، فلم ينتهوا من الاستعداد للحملة حتى 1190، وفي الطريق عمل ريتشارد الأول على توسيع نفوذه في صقلية مما وتر العلاقات مع الملك الفرنسي وأضعف التحالف بينهما.

قام الصليبيون بحصار عكا التي استسلمت في 12 يونيو 1191. وغادر فيليب عائدًا إلى فرنسا، وجرت مذبحة بأمر ريتشارد وتحت قيادته في عكا، بعدها تمت محاولاته لاحتلال مدن أخرى.لكنها باءت كلها بالفشل، وفي عام 1192م عقد الصلح مع صلاح الدين، واحتفظ الصليبيون بشريط ساحلي يمتد من صور إلى يافا، وسمح صلاح الدين للحجاج المسيحيين الأوربيين والتجار بزيارة مدينة القدس والأماكن المقدسة.

الحملة الصليبية الرابعة:

دعا إليها البابا أينوقنتيوس الثالث في 1202. وكانت خطة الصليبيين الأولية تتلخص في دفع القوات إلى مصر، لضرب القوة الإسلامية الكبري في المنطقة.ثم شن الحرب منها باتجاه القدس.لكن البندقيين الذين تولوا أمر توجيه وتوفير وسائل النقل والغذاء للحملة مقابل 85 ألف مارك ذهبي، أثّروا في مسار الحملة ووجهوها إلى القسطنطينية عمدًا، لأن الصليبيين لم يوفروا المبلغ المتفق عليه، وأسفرت الحملة عن تخريب وتدمير القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ومركز الثقافة الإغريقية العريقة، ولم تتخذ البابوية اجراءات فعلية تجاه هذا الحدث.

الحملات الصليبية الطفولية:

حدثت في حدود عام 1212 وكانت هذه الحركة شبيهة بحملة الفقراء الأولى قبل 1096م، ويختلف حولها المؤرخون لقلة ما كتب عنها.

يرى بعض المؤرخين أن هاتين الحملتين لم تكونا سوى جموعا من الأقنان (الفلاحين العبيد) والفقراء الذين استاءوا من الفشل الذي لاقته الحملات السابقة بقيادة الأسياد، وأن تسميتهم بالحملة الطفولية أو حملة الأطفال جاءت كاستعارة صورية لهذه الجموع.

ولم تكن ترتبط حقيقة بكون المشاركين فيها من الأطفال. لكنها تصوير لفظي أصبح فيما بعد وهمًا تاريخيًّا. ويرى البعض من المؤرخين أنها كانت حملتين اشترك فيها أعداد كبيرة من الأطفال، وان لم تقتصر عليهم.

مات العديد من المشاركين بسبب الجوع والظروف القاسية، وتفرقت الجموع وركب بعضهم السفن فوقعوا في أيدي القراصنة وبيعوا كعبيد في أسواق النخاسة. ولم يصل المشاركون في أي من الحملتين إلى الأرض المقدسة.

الحملة الصليبية الخامسة:

سعى البابا أنوسنت الثالث إلى بدء حملة صليبية جديدة عام 1213. فبدأ بحملة وعظ دامت حتى انعقاد المجمع اللاتيني الرابع عام 1215 الذي اتخذ سلسلة من الإجراءات تتعلق بتنظيم الحملات الصليبية. تحركت قوات مجرية وجنوب ألمانية بقيادة اندارش الثاني وقوات نمساوية.ووصلت إلى عكا.وتوقفت هناك حتى انضمت إليها قوات ألمانية وهولندية. فتوجهوا إلى مدينة دمياط في شمال شرق الدلتا بمصر على النيل. واستولوا عليها عام 1219. وتحت إلحاح نائب البابا اونوريوس الثالث والقاصد الرسولي بيلاجيوس استكمل الهجوم نحو المنصورة.وفي ذلك الوقت بالذات بدأ فيضان النيل.وفتح المصريون السد على النهر. وقطع المسلمون طريق التراجع على الصليبيين.وحاصرت قوات المسلمين الصليبيين بأعداد كبيرة.وغرق المئات بمياه الفيضان. ووقع الصلح في 30 أغسطس 1221 لمدة 8 سنوات، وكان على الصليبيين مغادرة دمياط، ونفذوا ذلك في أوائل سبتمبر من نفس العام ومنيت الحملة الصليبية الخامسة بالفشل الذريع.

الحملة الصليبية السادسة:

قادها الإمبراطور فريدريك الثاني هوهنشتاوفن الألماني الذي أراد أن يحقق مقاصده دون أن يسحب سيفه من غمده في صيف 1228، ولم تحظ هذه الحملة بمباركة البابوية بل حرم الإمبراطور من الكنيسة لتأخره في تنفيذ نذره بأخذ الصليب. تفاوض فيها فريدريك مع السلطان الكامل مما أسفر في فبراير 1229 عن صلح لمدة 10 سنوات تنازل بمقابله السلطان عن القدس باستثناء منطقة الحرم، وبيت لحم والناصرة وقسم من دائرة صيدا وطورون «تبنين حاليًا» وكانت الحملة الأولى التي لا تبارك انطلاقها البابوية.

الحملة الصليبية السابعة:

أدت الهزيمة التي لحقت بقصائل الصليبيين عام 1244م وخسارتهم التامة للقدس إلى ترتيب الحملة الصليبية السابعة، فقادها الملك الفرنسي لويس التاسع وتوجه بها إلى مصر واستمرت الحملة بين عامي 1248 و1254، فسيطروا في البدء على دمياط ثم المنصورة، ولكن المسلمين بقيادة السلطان الصالح نجم الدين أيوب نجحوا في تدمير قواتهم وحصر بقاياها في المنصورة حتى استسلموا، ووقع لويس في الأسر حتى تم فديه عام 1250 فعاد إلى عكا وبقي فيها 4 سنوات قبل العودة إلى فرنسا بخفي حنين.

الحملة الصليبية الثامنة على تونس:

انطلق في هذه الحملة لويس التاسع ملك فرنسا في عام 1270 بعد حوالي 3 سنوات من التأخير، وقام بها عدد قليل من البارونات والفرسان الفرنسيين، إذ إن فشل الحملات الجلي وانحطاط سمعتها صدهم عنها، حتى إن مؤرخ سيرة حياة لويس التاسع الذي رافقه في حملته السابقة رفض الانضمام إليه هذه المرة، ويروي هذا المؤرخ أن نبأ الحملة الجديدة كان مفاجئًا للغاية بالنسبة له شخصيًّا وبالنسبة للأشخاص الآخرين المقربين من

الملك، وأنه أذهل البارونات، وكانت المعارضة مجمع عليها تقريبا واضطر الملك إلى شراء حماسة الأسياد بالمال، ونذر مع الملك النذر الصليبي أبناءه الثلاثة وبعض تابعي الملك الآخرين، واتفق على أن توجه الحملة نحو تونس.

بدأت المفاوضات مع المستنصر أمير تونس ولما نزل الصليبيون في تونس وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود، وعندها انضم شارل الأول كونت انجو، الأخ الأصغر للويس وملك مملكة نابولي.. واستولوا على قلعة قرطاجا القديمة، ولكن وباء دب في صفوف الفرسان، وتوفي على أثره الملك وأفراد العائلة المالكة المرافقة باستثناء فيليب الابن البكر للملك الذي شفي، وفي نفس يوم وفاة الملك وهو 25 أغسطس 1270 وصل أخوه شارل الأول، وخاضت قواته برفقة قوات لويس بقيادة خلفه فيليب بضع معارك ناجحة ضد قوات أمير تونس، وفي أول نوفمبر 1270 وقعت معاهدة صلح مع المستنصر ألزمته بدفع جزية مضاعفة إلى ملك الصقليتيين، كما شملت حقوقا تجارية متبادلة، وبعد 17 يوما من التوقيع، ركب الصليبيون السفن وغادروا.

وبحلول نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، انتهت قوة الصليبيين في الشرق الأوسط، واعتبارًا من القرن الرابع عشر الميلادي، بدأت هجمات الأوربيين ضد المسلمين مع ضعف الدولة العثمانية حيث ظهر الاستعمار الفرنسي والبريطاني والإيطالي للدول العربية.

الحملة الصليبية التاسعة للمهرطقين في أوربا:

وهي حملة دعا إليها بابا الفاتكيان وشاركه ملك فرنسا للقضاء على الهراطقة الالبيجيين في جنوب فرنسا بين عام 1209 و1229م، وهم مسيحيون اختلفوا مع بابا الفتايكان حول طبيعة المسيح عليه السلام وتم إعادتهم.

* * *

فتح القسطنطينية عام 1453م

في عام 1453م استطاع السلطان العثماني محمد الثاني فتح القسطنطينة بعد حصارها وبهذا انتهت الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وشكَّل فتح القسطنطينيَّة خاتمة المُحاولات الإسلاميَّة لضم هذه المدينة لحظيرة الخلافة، والتي بدأت مُنذ أوائل العهد الأُمويّ خلال خلافة مُعاوية بن أبي سُفيان واستمرَّت خلال العهد العبَّاسي، إلى أن تكللت بالنجاح في العهد العُثماني، وتحقق النبوءة النبوية بفتحها وضمها إلى العالم الإسلامي.

كما شكَّل الفتح العثماني للقسطنطينية ضربةً موجعةً للعالم المسيحي والبابويَّة الكاثوليكيَّة رَغم الاختلاف والخِلاف المذهبي والعقائدي بين الكنيستين الشرقيَّة الأرثوذكسيَّة والغربيَّة الكاثوليكيَّة، ذلك أنَّ المدينة كانت تُشكِّلُ عائقًا وحاجزًا أمام التوغل الإسلامي في أوروپّا، ولمَّا سقطت أصبح بإمكان العُثمانيين المضي قُدمًا في فتوحاتهم نحو الغرب المسيحي الكاثوليكي وكانت القسطنطينية حائط صد مانع لهم.

نقل السُّلطان محمَّد الثاني عاصمة مُلكه من مدينة «أدرنة» إلى «القسطنطينيَّة»، وسُمِّيت «إسلامبول» أي «تخت الإسلام»، ولُقِّب السُّلطان العثماني محمد الثاني بالفاتح أو «أبو الفتح».

كان فتح القسطنطينيّة حدثًا مُهمًّا على الصعيدين الإسلامي والعالمي، فعلى الصعيد الإسلامي تحققت نبوءة الرسول ﷺ التي بشر بها المسلمين بفتح تلك المدينة فقد ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل عن عبدالله بن بشر الخثعمي، عن أبيه، أنه سمع النبي يقول: «لتفتحنّ القسطنطينيّة فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش».

وفي رواية أخرى نقلًا عن أبي قبيل حي بن هانئ بن ناضر أنّه قال: «كنّا عند عبداللّه ابن عمرو بن العاص، وسئل: أي المدينتين تفتح أولًا: القسطنطينيّة أو روميّة؟ فدعا

عبدالله بصندوق له حلق؛ قال: فأخرج منه كتابًا. قال فقال عبد الله بينما نحن حول رسول الله نكتب إذ سئل رسول الله أي المدينتين تفتح أولًا قسطنطينيّة أو روميّة؟ فقال رسول الله مدينة هرقل تفتح أولًا يعني قسطنطينيّة».

وقد حاول المسلمون طيلة ثمانية قرون تحقيق هذه النبوءة ففشلوا في كلّ مرّة نظرًا لموقع المدينة الحصين وأسوارها السميكة وبسالة المدافعين عنها. وقد بلغ عدد المرّات التي حوصرت فيها المدينة من قبل المسلمين 11 مرّة قبل هذه الأخيرة.

كانت أولى المحاولات الإسلاميّة لفتح القسطنطينيّة سنة 49هـ، الموافقة لسنة 669م، وذلك في عهد معاوية بن أبي سفيان، إذ أرسل حملةً عسكريّةً بريّةً ضخمة لحصار المدينة بقيادة فضالة بن عبيد الله الأنصاري الذي توغّل في عمق الأراضي البيزنطيّة حتّى وصل إلى خلقدونيّة القريبة من العاصمة الروميّة.

وقد أمضى فضالة شتاء تلك السنة في أملاك الإمبراطوريّة وكان معاوية يمدّه بالإمدادات والمؤن. وقد قامت هذه الإمدادات، بقيادة سفيان بن عوف، بتنفيذ الحصار على العاصمة البيزنطيّة.

ونظرًا لجسامة المهمّة وأهميّة الحملة، أردف معاوية القوّات الإسلاميّة بابنه يزيد على رأس قوّة إضافيّة، مما أنعش آمال المسلمين بمواصلة الحصار.

واصطدم الفريقان الإسلامي والرومي في معارك مباشرة تحت أسوار المدينة، إلّا أنّ المسلمين لم يحرزوا انتصارات حاسمة، فاضطرُّوا إلى فك الحصار والعودة إلى دمشق. وتوفي في هذه الغزوة الصحابي أبو أيُّوب الأنصاريُّ رضي الله عنه الذي رافق جيش يزيد، ودُفن عند أسوار القسطنطينيّة.

ثم استمرت المحاولاتُ عبر العصور المتعاقبة حتى تكللت بالنجاح في عهد السلطان العثماني محمد الثاني رحمه الله.

* * *

جانب من صراع الإمبراطوريات في أوربا

في العصرالحديث تُعد أوربا الأكثر نفوذًا في العالم حيث كانت تسيطر على بعضى أراضي الإمبراطورية العثمانية في الشرق، والاتحاد البولندى-الليتوانى والإمبراطورية السويدية في الشمال، وعلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة في وسط أوربا، أما في الغرب فكانت إسبانيا والبرتغال.

أما من ناحية البحر المتوسط فقد سيطرت على كل من جمهورية جنوة والبندقية، والإمبراطورية الإسبانية، شهدت الإمبراطورية العثمانية توسعا كبيرة في أوربا في القرون الخامس والسادس عشر الميلادي ونتيجة لذلك سيطرت على كل من البلقان، ورومانيا، والمجر. وامتدت فتوحاتها حتى حدود ڤيينا.

وأصبح الملك شارل الخامس عضوًا في سلالة هابسبورج في القرن السادس عشر وبالزواج والغزو سيطر على أراضي كل من إسبانيا، والإمبراطورية الرومانية الغربية المقدسة «ألمانيا، النمسا، شمال إيطاليا، بلجيكا». وفى هذه الفترة نشبت العديد من الحروب بين الدولة العثمانية وهابسبورج في البر والبحر.

وفى القرن السادس عشر وصلت السلطة في الإمبراطورية العثمانية إلى ذروتها حيث حاصروا ڤيينا عاصمة دولة هابسبورج المرتبطة بإمبراطورية روما المقدسة-في 1683م وعلى الرغم من ذلك فإنهم لم يوفقوا في حصارهم الثاني لڤيينا.

وتوسع الاتحاد البولندى-الليتواني شرقًا وسيطروا على روسيا البيضاء، وجزء كبير من أوكرانيا. وفي بدايات العصر الحديث حكموا كلا من روسيا وموسكو.

الحرب الشمالية العظمى «1700 - 1721م»:

أرادت إمبراطورية السويد توسيع حدودها وذلك بشن الحروب ضد بولندا، والإمبراطورية الروسية، والدنمارك، والنرويج.

ونتيجة لتعزيز روسيا لقوتها في القرن الثامن عشر فقد فقدت إمبراطورية السويد حروبها التي شنتها على روسيا في الفترة من 1700 إلى 1721.

وعرفت تلك الحرب بالحرب الشمالية العظمى «1700-1721م» كانت حربًا تواجه فيها الإمبراطورية الروسية والدنمارك-النرويج والكومنولث البولندي اللتواني وساكسونيا ضد السويد للهيمنة على بحر البلطيق.

انتهت الحرب بهزيمة السويد في 1721م وتصبح روسيا قوة عظمى في بحر البلطيق وأوربا أيضًا، وتم عقد معاهدة «نيستاد» ومعاهدة «ستوكهولم» 1721م بين الدول المتصارعة.

خلال الحرب الشمالية العظمى، تشكل تحالف من مجموعة من الدول التي أرادت القضاء على التفوق والسيطرة السويدية في منطقة وسط وشرق أوربا، وقد تشكل هذا التحالف «دول الائتلاف» من الإمبراطورية الروسية «بطرس الأكبر»، مملكة الدانمارك-النرويج «فريديريك IV»، ساكسونيا، مملكة بولندا-ليتوانيا «أغسطس الأعظم». وقد انسحب من هذا الائتلاف كل من فريديريك IV وأغسطس وذلك ما بين عامي 1700 و1709 إثر هزيمة روسيا في معركة نارفا، ولكنهما عاودا الانضمام في عام 1709 «بعد هزيمة السويد في معركة بولتافا»، وقد تعزز هذا التحالف بعد انضمام كل من هانوفر «جورج I» ومملكة براندنبورج-بروسيا وبريطانيا العظمى في أعوام 1714 و1715 و1717 على التوالي.

وأما على الجهة السويدية فقد انضمت في حربها كل من هولستين-جوتورب «1704 و1710» ومملكة بولندا-ليثوانيا «تحت حكم الملك ستانيسلو ليبسزينسكي»

في ما بين عامي 1708 و1710، والكوساك، أما الإمبراطورية العثمانية فقد دخلت الحرب بعد أن لجأ إليها الملك السويدي كارل الثاني عشر.

انطلقت الحرب بهجوم ثلاثي على منطقة هولستن-جوتروب في منطقتي لينوفيا وإنجيريا السويديتين، من قبل الدانمارك-النرويج وساكس-بولونيا-ليتوانيا وروسيا، إلا أن تلك الهجمات قد توقفت حيث تمكنت القوات السويدية من رد الهجوم الدنماركي والروسي في موقعتي ترافيندال ونارفا التي هُزمت فيها روسيا، وبعد ذلك ردت السويد الهجوم البولندي حيث دفعت الملك أغسطس إلى الوراء عبر بولندا-ليتوانيا حيث هُزمت قواته في معركة ألترانستادت أما بطرس الأكبر الذي هزم في معركة نارفا فقد عاد إلى روسيا ليجمع جيشه من جديد حيث فرض قوانين صارمة كالرفع من الضرائب وزيادة سنوات الخدمة العسكرية التي وصلت إلى واحد وعشرين سنة ، وبدأ بإرسال قواته في هجمات متقطعة نحو الأراضي السويدية.

ثم هاجم المقاطعات البلطيقية السويدية حيث نجح في الوصول إلى بحر البلطيق وقام ببناء مدينة سانت بطرسبرج.

وبعد ذلك تحرك شارل الثاني عشر من بولندا-ليتوانيا واتجه صوب روسيا كي يواجه بطرس، ولكن هذه الحملة توقفت بعد الهزيمة التي تلقاها الجيش السويدي في معركة بولتافا وعلى إثرها تراجع الملك السويدي شارل الثاني عشر إلى الوراء حيث اتجه مع قواته إلى الإمبراطورية العثمانية.

بعد عودة كارل الثاني عشر من الإمبراطورية العثمانية واستئنافه الإشراف الشخصي للمجهود الحربي، دشن حملتين نرويجيتين، بدأت في فبراير 1716، لإجبار الدنمارك-النرويج على معاهدة سلام منفصلة. علاوة على ذلك، حاول منع بريطانيا العظمى من الوصول إلى بحر البلطيق.

تفاوض كارل الثاني عشر أيضًا مع حزب آل ستيوارت البريطاني.. فأدى هذا

لإعلان بريطانيا العظمى الحرب على السويد سنة 1717. توقفت الحملات النرويجية وانسحب الجيش بعد قتل كارل الثاني عشر أثناء حصار حصن فردركستين النرويجي في 30 نوفمبر 1718. وخلفته شقيقته «أولريكا إليونورا».

وتعرف فترة احتلال فلنلندا بين عامي 1714 - 1721م بالغضب الكبير.

عصر النهضة والإصلاح وظهور المذهب البروتستانتي في غرب أوربا:

شهدت شبه الجزيرة الإيطالية طفرة هائلةً في مجال الفنون والعلوم في النصف الثاني من القرن الخامس عشر. وهذه الحركة التي سميت بالنهضة ربطت مجددًا بين العصور الأوربية الغربية المعاصرة وبين العصور الكلاسيكية القديمة. وقد تعلم العلماء الأوربيون الرياضيات من العالم الاسلامى خلال هذه الفترة، وعادوا مرة أخرى إلى التفكير العقلاني والتجريب بدلًا من المعتقدات الخرافية.

وقد بدأ يوهانس جوتنبرج فترة جذرية من التغيير وذلك بثورة من التقنيات الجديدة التي ظهرت مع تطور الطباعة، والفنون، والشعر، والعمارة وأن أوربا التي تخلفت منذ العصور الرومانية القديمة لم تشهد مثل هذه الطفرة إلا في هذه الفترة بتطور التجارة والاكتشافات الجغرافية التي جعلتها رائده في هذه الفترة. ويمكن أن نعتبر أن هذه الفترة هي بداية عصر النهضة والإصلاح الإيطالية.

أما في ألمانيا فقد بدأت مع عصر النهضة. وتم بحث العديد من القضايا الدينية المتعلقة بالهولندى ايراسموس والألماني مارتن لوثر وقد بدأ مارتن لوثر حركة جديدة من الإصلاح البروتستانتي في المسيحية.

وقد اضطر الفرنسي جان كالفين إلى الانفصال عن باريس وذلك بسبب تبنيه أفكار مارتن لوثر الإصلاحية عام 1534م، ولكن بعد إقامته فترة من الوقت في ستراسبورج وبازل انتقل إلى جنيف في 1541م، واعتنق مذهب الكالفينية. وقد أعطيت العديد من

الحقوق إلى المسيحيين البروتستانت في فرنسا وذلك بموجب فرمان نانت في عام 1598م.

وكتب شكسبير في إنجلترا، وسرفانتس في إسبانيا العديد من الأعمال الشهيرة. وفى نهاية عصر الإصلاح والنهضة هُدمت المفاهيم المحدودة للكنيسة وسيطر التفكير العلمي في هذه الفترة. وقد ظهرت العديد من الحركات الإصلاحية، وقد ظهر في أوربا العديد من المثقفين والفنانيين ذوو الطبقة البرجوازية.

قامت الكنيسة الكاثوليكية بالعديد من المحاولات لمنع انتشار البروتستانتية. وأقيمت الطقوس الدينية المقدسة في 1542م. واستردت فرنسا مرة أخرى مرسوم نانت في عام 1685م.

ونتيجة منع انتشار البروتستانتية في فرنسا عام 1715م، هاجر ما يقرب من 250 ألف بروتستاني فرنسي إلى أمريكا وقاموا بتأسيس مستعمرات خاصة بهم في أمريكا الشمالية.

عصر الاستكشافات الجغرافية وفترة الاستعمار:

بدأ الأوربيون في القرنين 15 و16 في دراسة البحار والمحيطات التي لم تكن معروفة من قبل من أجل العثور على طرق تجارية جديدة. أسفرت هذه الرحلات عن العثور على العديد من المحيطات والقارات الجديدة.

إن أول مساعي الاستكشاف قد قام بها كلٌّ من البحارة الفرنسيين والإيطاليين في مطلع القرن 14 صوب شواطئ المحيط الأطلسي وأفريقيا، ونتج عن هذه المساعي اكتشاف جزر الكناري وجزر الأزور.

توجه كريستوفر كولومبوس للاستكشاف لكي يصل لآسيا من طريق أكثر اختصارًا في النصف الثاني من القرن 15 وقد وصل إلى الأمريكتين في عام 1492.

وبعد أن عثر البرتغاليون على طريق رأس الرجاء الصالح وصل فاسكو دو جاما للمحيط الهندي والهند متجولًا بها. وبعد ذلك، جاء البرتغالي ماجلان حيث إنه بدأ السفر إلى جميع أنحاء العالم، وبالتالي، تمكن من الوصول لاستنتاجات استكشافية ملموسة بشأن التجول حول أنحاء العالم.

قد أثرت الاستكشافات الجغرافية على نشوء هذه الحركات كما تطورت حركات الإصلاح والنهضة بتأثيرها. وفي إثر هذه الاستكشافات قد حظيت أوربا بإمكانية الامتداد لقارات جديدة والاستيلاء على موارد ثرواتها.

تبدأ فترة الاستعمار بهجرة المستوطنين الأوربيين لقارات أمريكا الشمالية وآسيا وأفريقيا وأستراليا وبتشكيل مستوطنات ووحدات إنتاج في هذه الأراضي. وفي ذلك الوقت أصبحت هذه المستعمرات إمبراطورية استعمارية، والتي تمركزت في أوربا، وامتدت لجميع أنحاء العالم.

* * *

أهم الحروب الطائفية في أوربا «حرب الثلاثين عامًا» بين الكاثوليك والبروتستانت

أدت حركات الإصلاح الديني التي برزت في المسيحية بأوربا إلى زعزعت استقرار أوربا السياسي والديني وأضعفت سلطة الفاتيكان وأدت إلى حرب طائفية دينية مذهبية بين أنصار المذهب البروتستانتي والمذهب الكاثولوكي وعرفت بحرب الثلاثين عامًا التي هي عبارة عن سلسلة من الحروب التي اندلعت بين أعوام 1618 و1648م وانضم إليها أغلب الدول الأوربية.

وفي الواقع، فعلى الرغم من الصراع الطائفي البروتستانتي -الكاثوليكي، إلا أن معظم الدول المتصارعة قد صارعت من أجل أغراض سياسية وليست دينية وهي حرب داخلية نظرًا لأنها صراع إمارات تابعة للإمبراطورية الألمانية الرومانية المقدسة في أنحاء مختلفة.

وانتهت الحرب بانتصار البروتستانت في عام 1648م، وانقسمت الإمبراطورية الرومانية – الألمانية المقدسة التي تشكلت في ألمانيا إثر الحرب مع صلح ويستفاليا للعديد من الدول الصغيرة التي أصبح كلٌّ منها مستقلًّا عن الآخر وتقلصت صلاحيات السلطة الإمبريالية.

مزقت تلك الحرب الطائفية الدينية أوربا ووقعت معاركها بدايةً وبشكل عام في أراضي أوربا الوسطى «أراضي ألمانيا» العائدة إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة،

ولكن اشتركت فيها تباعًا معظم القوى الأوربية الموجودة في ذاك العصر، فيما عدا إنجلترا وروسيا.

في الجزء الثاني من فترة الحرب امتدت المعارك إلى فرنسا والأراضي المنخفضة وشمال إيطاليا وكاتالونيا.

خلال سنواتها الثلاثين تغيرت تدريجيًّا طبيعة ودوافع الحرب: فقد اندلعت الحرب في البداية كصراع ديني بين الكاثوليك والبروتستانت وانتهت كصراع سياسي من أجل السيطرة على الدول الأخرى، بين فرنسا وهابسبورج، بل ويعد السبب الرئيسي في نظر البعض، ففرنسا الكاثوليكية تحت حكم الكردينال ريشيليو في ذلك الوقت ساندت الجانب البروتستانتي في الحرب لإضعاف منافسيهم «آل هابسبورج» لتعزيز موقف فرنسا كقوة أوربية بارزة، فزاد هذا من حدة التناحر بينهما، ما أدى لاحقا إلى حرب مباشرة بين فرنسا وإسبانيا.

كان آثار حرب الثلاثين عامًا والتي استخدمت فيها جيوش مرتزقة على نطاق واسع، تدمير مناطق بأكملها تركت جرداء من نهب الجيوش. وانتشرت خلالها المجاعات والأمراض وهلاك العديد من سكان الولايات الألمانية وبشكل أقل حدة الأراضي المنخفضة وإيطاليا، بينما أفقرت العديد من القوى المتورطة في الصراع.

استمرت الحرب ثلاثين عامًا ولكن الصراعات التي فجرتها ظلت قائمة بدون حل لزمن أطول بكثير. انتهت الحرب بمعاهدة مونستر وهي جزء من صلح وستفاليا الأوسع عام 1648م.

وخلال الحرب انخفض عدد سكان ألمانيا بمقدار 30 ٪ في المتوسط ؛ وفي أراضي براندنبورج بلغت الخسائر النصف، في حين أنه في بعض المناطق مات ما يقدر بثلثي السكان، وانخفض عدد سكان ألمانيا من الذكور بمقدار النصف تقريبًا. كما انخفض عدد سكان الأراضي التشيكية بمقدار الثلث. وقد دمّر الجيش السويدي

لوحده 2000 من القلاع و18000 قرية و1500 مدينة في ألمانيا، أي ثلث عدد جميع المدن الألمانية.

وجاء في موسوعة «قصة الحضارة» تحت عنوان: «إعادة تنظيم ألمانيا «1648-1715م»:

«هبطت حرب الثلاثين بسكان ألمانيا من عشرين مليونا إلى ثلاثةَ عشرَ ونصفِ مليون، وبعد عام أفاقت التربة التي روتها دماء البشر، ولكنها ظلت تنتظر مجيء الرجال. وكان هناك وفرة في النساء وندرة في الرجال. وعالج الأمراء الظافرون هذه الأزمة البيولوجية بالعودة إلى تعدد الزوجات كما ورد في العهد القديم. ففي مؤتمر فرنكونيا المنعقد في فبراير 1650م بمدينة نورنبيرج اتخذوا القرار الآتي:- «لا يقبل في الأديار الرجال دون الستين... وعلى القساوسة ومساعديهم «إذا لم يكونوا قد رسموا»، وكهنة المؤسسات الدينية، أن يتزوجوا... ويسمح لكل ذكر بأن يتزوج زوجتين، ويذكر كل رجل تذكيرًا جديًّا، وينبه مرارًا من منبر الكنيسة، إلى التصرف على هذا النحو في هذه المسألة».

* * *

حال الإمبراطوريات في نهاية العصر الحديث

إمبراطوية بريطانيا وإمبراطورية هولندا وإمبراطورية أسبانيا

وُحِّدت أسبانيا كدولة مسيحية مرة أخرى بعد مرور 800 عام بعد زواج فرناندو الثاني ملك أراجون بإيزابيل الأولى ملكة قشتالة وتوحيده للدولتين وفي إثره أيضًا قضى على إمارة غرناطة المسلمة في عام 1492.

بدأت محاكم التفتيش الأسبانية في عام 1478م إجبار المسلمين واليهود الذين يعيشون في البلاد على إعتناق المسيحية. وصادرت أموال المسلمين واليهود الذين لم يعتنقوا المسيحية في البرتغال وأسبانيا والذين غادروا البلاد.

تعد إمبراطورية أسبانيا التي استولت على قارات أمريكا الوسطى والجنوبية وقارة أفريقيا وجنوب شرق آسيا لأجل تأسيس إسطول كبير.

وقد اقتدت إمبراطورية هولندا الاستعمارية بإمبراطوريات البرتغال وأسبانيا الاستعمارية. وقد أسس الهولنديون مستعمرات في أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية وأفريقيا وجنوب شرق آسيا.

وكانت إنجلترا حتى عام 1588م أضعف بكثير من تلك الدول. ومع ذلك، فقد قويت المملكة المتحدة البريطانية في عهد أسرة تيودور وغادرت إسكتلندا.

وقد وضعت اليزابيث الأولى ملكة بريطانيا أسس الإمبراطوية البريطانية من خلال إلحاق الهزيمة بالأرمادا الأسبانية الذي تعد أقوى أسطول بأوربا في عام 1588م.

وهكذا فقد انتهت الهيمنة الأسباينة على المستعمرات الأمريكية، وبعد هذا

التاريخ، استولت القوات الهولندية والإنجليزية واحد تلو الأخرى على المستعمرات التي توجد في أمريكا.

وهولندا بعد هزيمتها في المعركتين البحريتين التي أجريت مع بريطانيا فقد اضطرت للانسحاب من أمريكا الشمالية في عام 1667م.

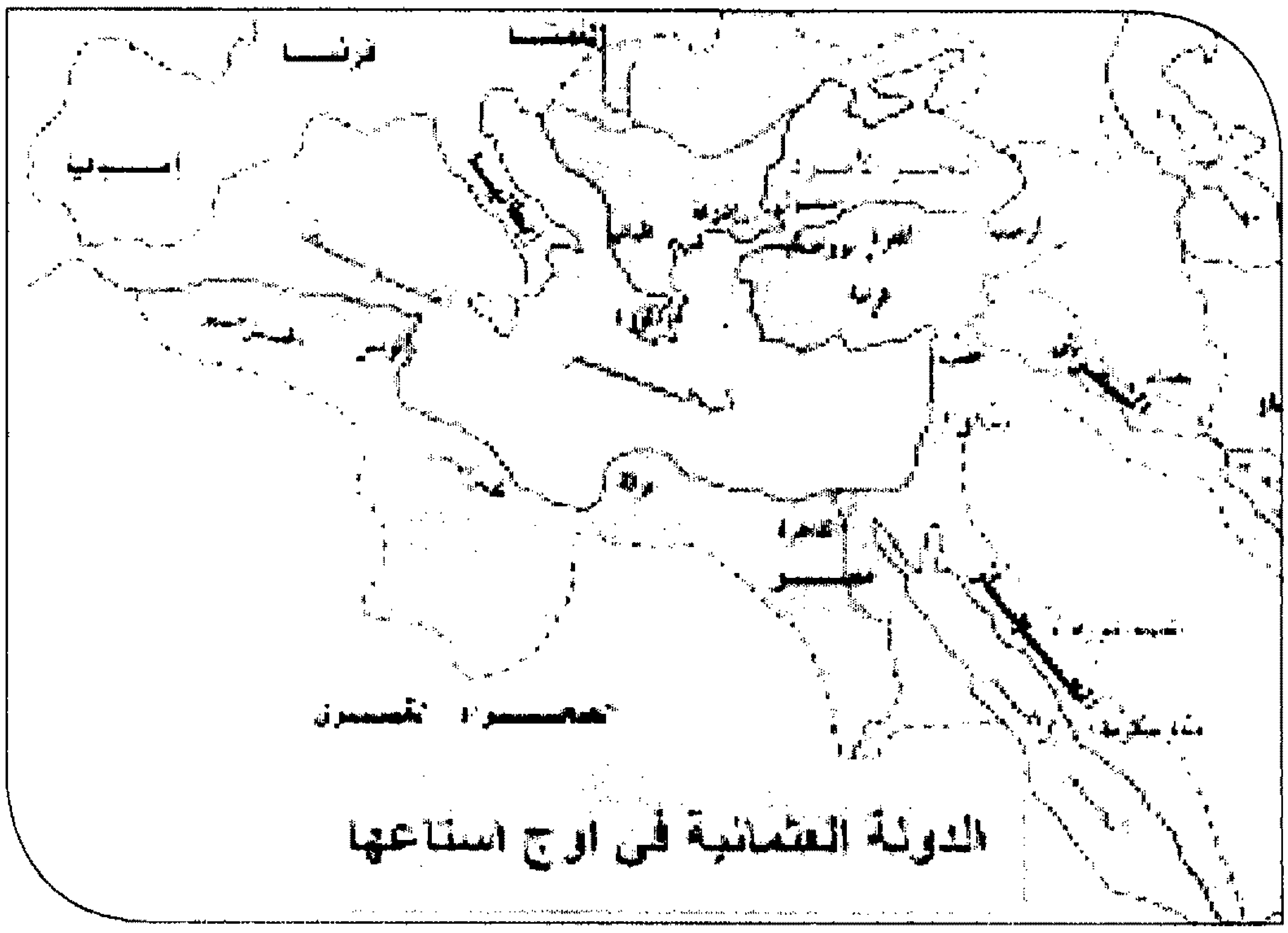
وأما فرنسا فقد تركت كل مستعمراتها في أمريكا الشمالية لإنجلترا بمعاهدة باريس التي أبرمت في نهاية حرب الأعوام السبعة بتاريخ 1763 وهكذا فقد استولت إنجلترا على كل المستعمرات التي توجد في أمريكا الشمالية.

والجدير بالذكر أنه قد أسست مملكة بريطانيا العظمى من خلال توحيد إنجلترا وإسكتلندا في عام 1707. وقد أسست المملكة المتحدة البريطانية والإيرلندية العظمى من خلال ضم إيرلندا لهذا الاتحاد في عام 1800م.

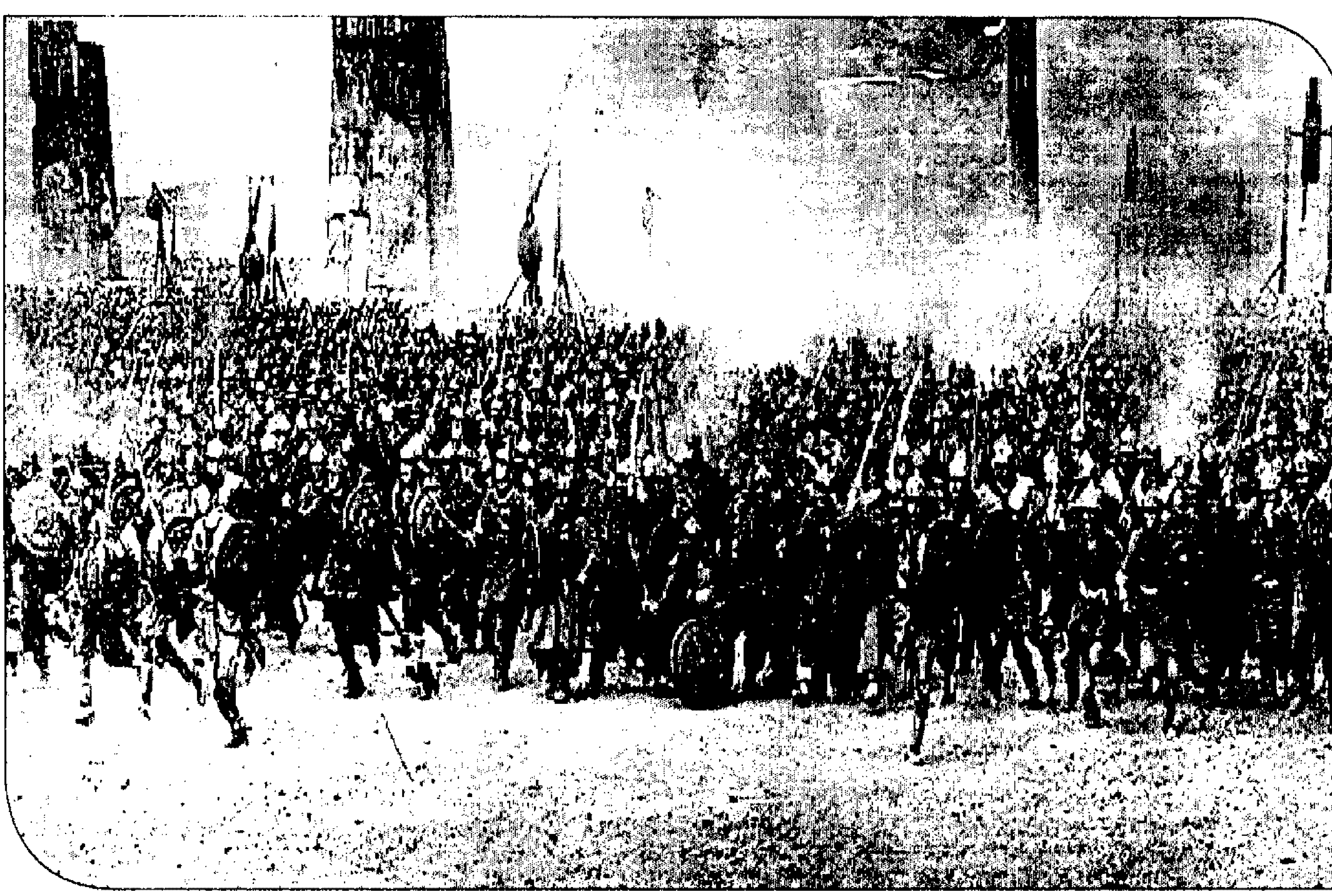
وأصبحت المملكة المتحدة في العصر الفيكتوري التي حكمت ما بين أعوام 1837م و1901م إمبراطورية لا تغرب عنها الشمس. وعندما حل عام 1921م، استولت على عدة مناطق تبلغ مساحتها 36,6 مليون كيلو متر بما في ذلك الهند وأمريكا الشمالية والشرق الأوسط وأستراليا، وكانت تحكم 458 مليون شخص، ولكن هذه الشمس قد أفلت عن ملك الإمبراطورية بعد تحرر تلك الدول من الاستعمار البريطاني في منتصف القرن العشرين. (1)

* * *

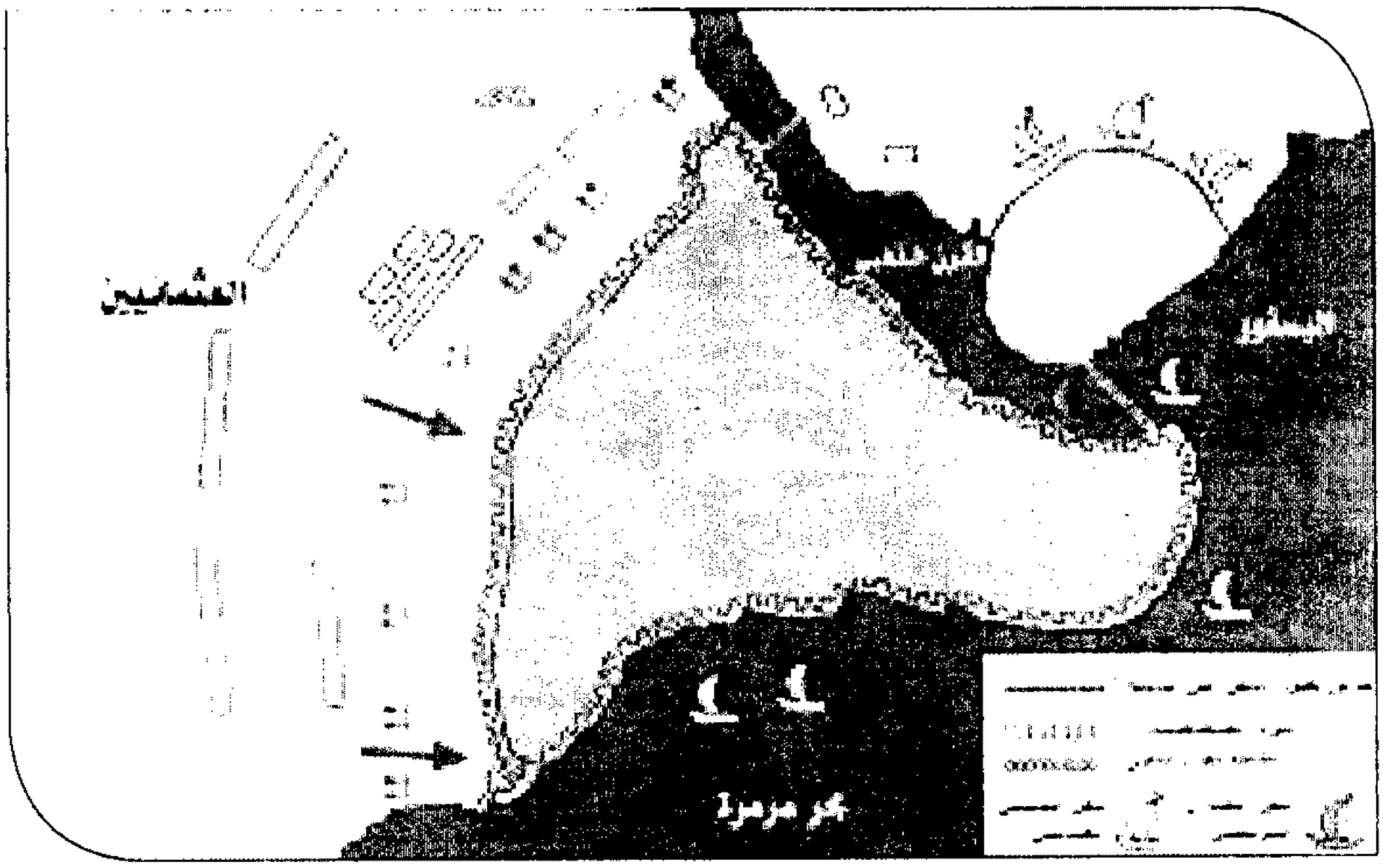
1- موسوعة حضارة العالم، أحمد محمد عوف؛ دراسات في تاريخ أوربا الحديث والمعاصر، فاروق عثمان أباظة.



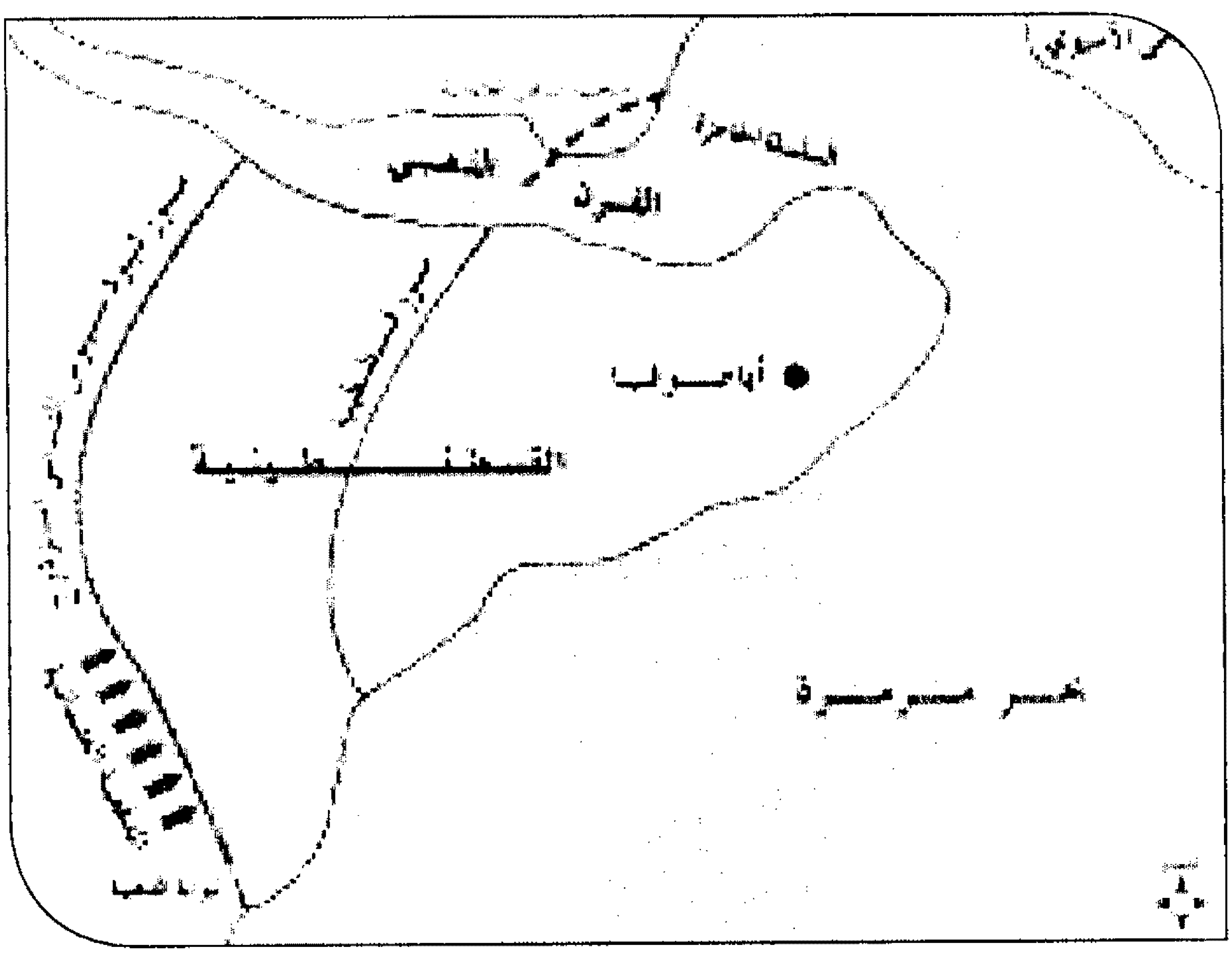
الدولة العثمانية وتوسعها داخل القارة الأوربية.



صورة زيتية عن فتح الجيش العثماني للقسطنطينية 1453م.



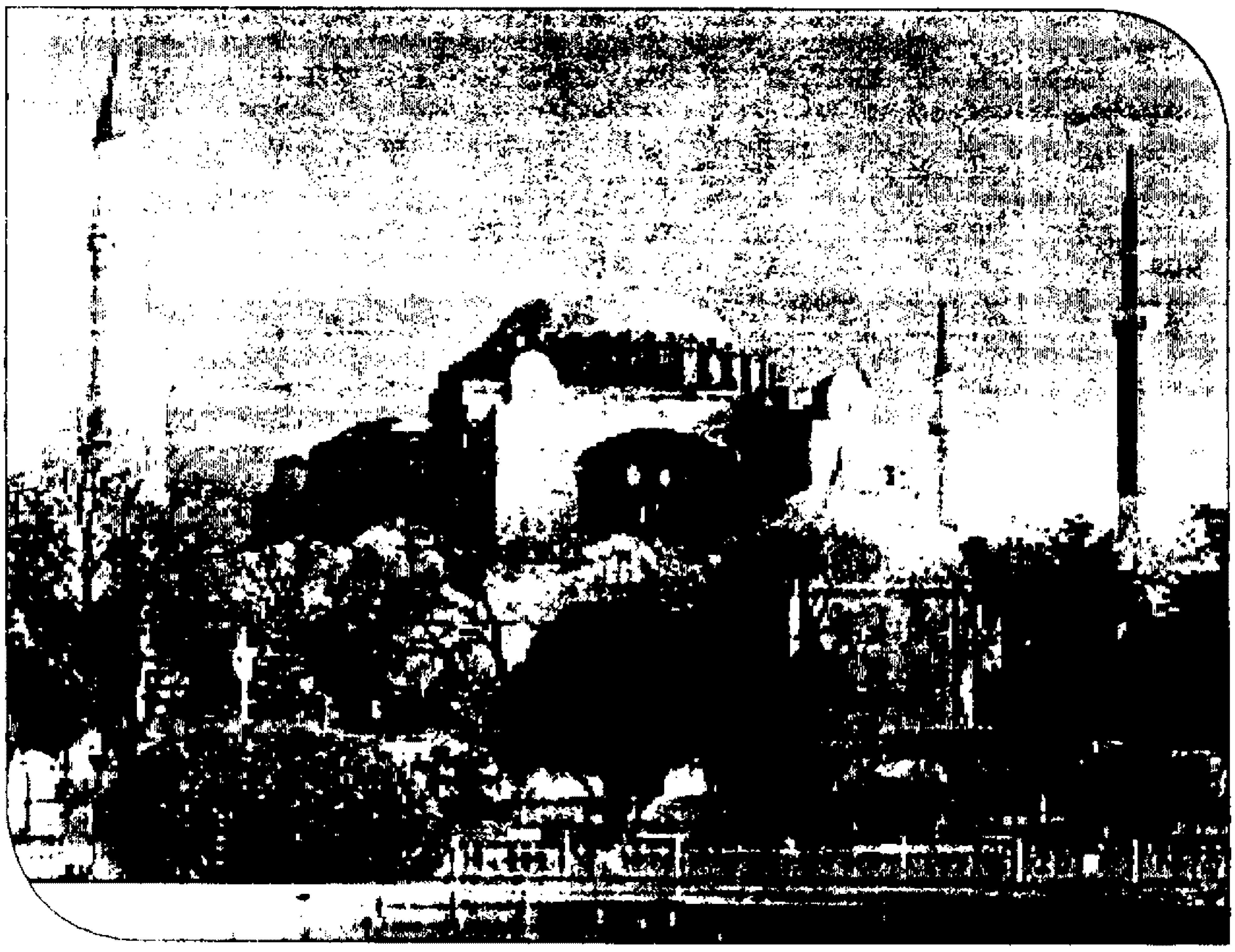
خريطة تبين موقع القسطنطينية ومعركة فتحها عام 1453م.



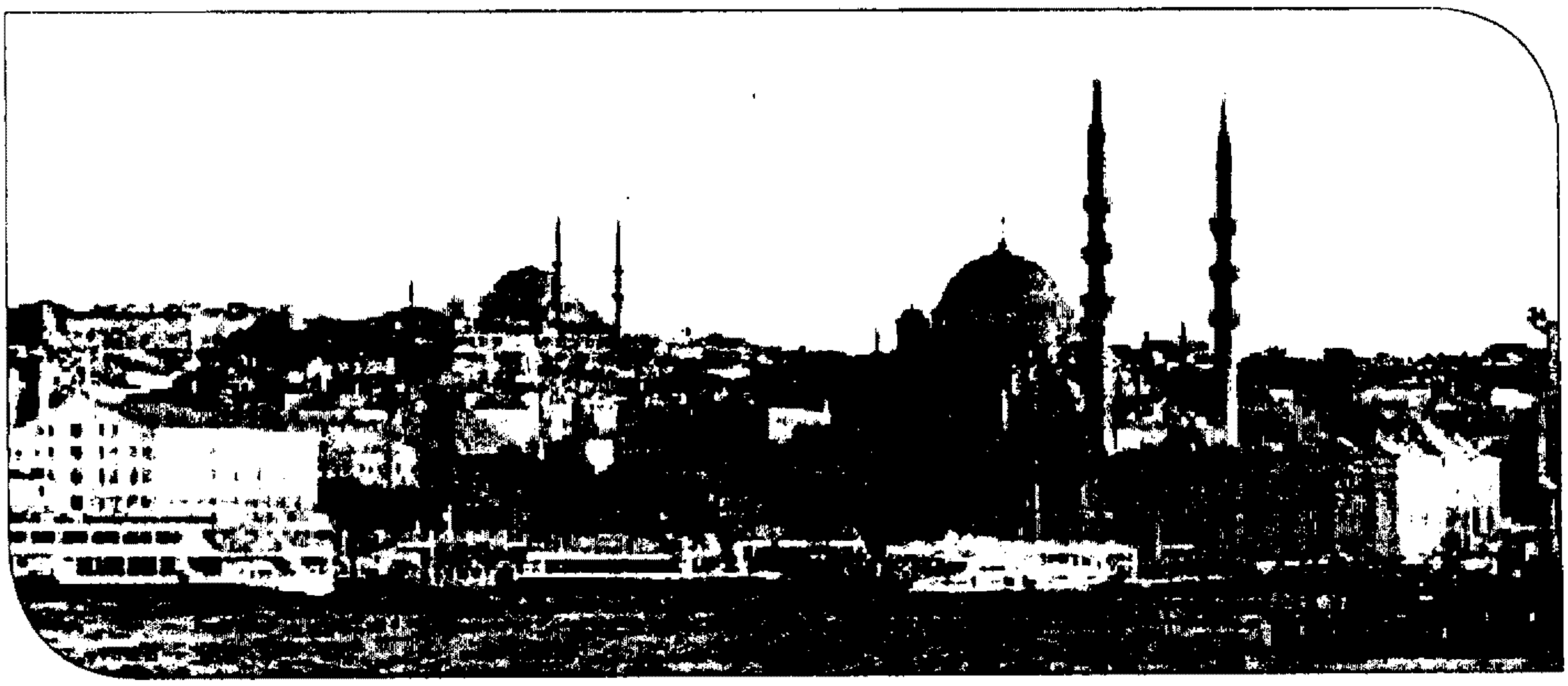
موقع القسطنطينية.



السلطان محمد الفاتح.



جامع أيا صوفيا بإسطنبول - كان كنيسة للنصارى ثم حوله محمد الفاتح إلى مسجد بعد فتح القسطنطينية.



إسطنبول حاليًا القسطنطينية سابقًا.

5 الروم البيزنطيون وصراعهم مع المسلمين الأوائل

- هرقل إمبراطور الروم الشرقيين في زمن النبوة.
- بين هرقل والرسول ﷺ.
- غزوة مؤتة وأول مواجهة مع الروم البيزنطيين في عصر النبي ﷺ.
- غزوة تبوك بقيادة الرسول ﷺ ومواجهة الروم.
- معركة اليرموك وطرد الروم من بلاد الشام في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
- الفتوحات الإسلامية في بلاد الروم بعد عصر الخلفاء الراشدين.

هرقل إمبراطور الروم الشرقيين في زمن النُّبوَّة

هرقل ملك الروم.. اسمه فلافيوس أغسطس هرقل «Flavius Heraclius Augustus؛ 575 - 11 فبراير 641م»، وهو إمبراطور الإمبراطورية البيزنطية، بدأ صعوده إلى السلطة عام 608م، بعد أن قاد ثورة ناجحة ضد الإمبراطور «فوقاس»، الذي تسلَّم السلطة بعد خلع الإمبراطور «موريس»، ودون شعبية تذكر في ظل القلاقل التي عانت منها الإمبراطورية البيزنطية وقتها.

كان هرقل الابن البكر للوالي هرقل الأكبر، من عائلة أرمينية الأصل من منطقة كبادوكية، ومن جذور ترقَى لعائلة الأرسكيد التي حكمت أرمينيا.

عمل هرقل الأكبر ضابطًا في الجيش الروماني، وساعد الإمبراطور «موريس» في حروبه ضد بهرام والدولة الساسانية أواخر القرن السادس، ونتيجة دوره في الحرب عيّنه الإمبراطور بعد نهايتها نائبًا إمبراطوريًّا على أفريقيا، ومقر الولاية قرطاج «تونس».

في خريف 602م تمرَّد الجند على الإمبراطور «موريس» في البلقان وساروا نحو العاصمة الخالية من الجند، فحاصروها، وسط ترحاب من سكان العاصمة الذين ضجوا من ظلم الإقطاع وتحكم ذوي الأراضي الواسعة بسياسة الدولة، ومظاهر الترف الإمبراطوري، وإذ تخوّف الإمبراطور موريس من موالاة سكان العاصمة للمتمردين وكذلك لامبالاة ابنه ثيودوسيوس ونسيبه جرمانوس، فرّ من العاصمة إلى نيقوميديا عبر البوسفور مع عائلته، ودخل المتمردون إلى العاصمة «ناثرين الذهب

على الطرقات نثرًا»، ونادى شيوخ الشعب وأعيانه في 23 نوفمبر 602 بأحد قادة التمرد وهو «فوقاس» إمبراطورًا جديدًا؛ أما الإمبراطور «موريس» فلم تفلح محاولته التحصّن بنيقوميديا، إذ أدركه المتمردون وقتلوه وعائلته فيها.

في عام 608م تخلى هرقل الأكبر والد الإمبراطور هرقل والنائب الإمبراطوري على أفريقيا عن دعمه للإمبراطور «فوقاس»، وأرسل ابن عمه الأصغر نيكيتاس إلى مصر فملكها بحلول عام 609م هازمًا السلطة الموالية للإمبراطور «فوقاس» فيها، وفي الوقت نفسه أوفد ابنه الأكبر هرقل مع أسطول صغير إلى العاصمة عن طريق صقلية وقبرص وقبل وصوله إلى العاصمة، أجرى هرقل اتصالات مع قادة بارزين في الجيش مخططًا للإطاحة بالحكم القائم في المدينة، ووالاه عدد من كبار الضباط، تُوِّج إمبراطورًا حال وصوله إلى المدينة، دون مقاومة جدية من قبل المقاومين للإمبراطور «فوقاس»، وحينما التقى الإمبراطور المتوَّج هرقل بسلفه «فوقاس» أمر بقطع رأسه وقطع أعضائه التناسلية، كعقوبة على اغتصاب «فوقاس» لزوجة فوتيوس أحد سياسيي القسطنطينية البارزين.

بعد مقتل «فوقاس»، وفي 5 أكتوبر 610، توّج «هرقل» في كنيسة القديس إسطفان داخل القصر الإمبراطوري في العاصمة، وتزوج من فابيا التي اتخذت اسم الإمبراطورة إيدوكيا؛ وبعد وفاتها عام 612م تزوج من ابنة أخته مارتينا عام 613م، ولكون هذا الزواج محظورًا تراجعت شعبية هرقل بين الشعب، «ورغم الكراهية الواسعة النطاق التي واجه بها الشعب مارتينا، ورغم ضغوط البطريرك سرجيوس لحَلّ زواجه منها، إلا أن هرقل بقي متزوجًا بها، ومصطحبًا إياها في جميع حملاته العسكرية».

بعد أن تقلَّد هرقل منصبَ الإمبراطور، كتب إلى كسرى بزوال سبب الحرب وداعيًا إلى السلام فرفض كسرى، وجرّد حملة عسكرية أخرى على سوريا، فأوفد الإمبراطور جيشين الأول بقيادة فيليبيقوس نحو كيليكيا والثاني بقيادته مع أخيه ثيودوسيوس لاستعادة أنطاكية عاصمة سوريا الرومانية من الحكم الفارسي، غير أن

جيش هرقل كُسر وهُزم في هذه المعركة، وهو ما أدى لترسيخ سيطرة الفرس على المدينة، ومعها اللاذقية وطرطوس ولبنان، واكتساح الجيش الفارسي للحاميات البيزنطية حيثما وجدت بدءًا من حمص ثم دمشق التي نهبت عام 613م وقتل الفرس عشر سكانها بمساعدة من اليهود المحليين أيضًا، وسار الجيش بعدها جنوبًا نحو فلسطين، فدخل القدس عام 614 بعد حصار دام عشرين يومًا، هدموا خلالها كنيسة القيامة وسلبوا «الصليب الحقيقي»، وقتلوا من سكانها حسب بعض المصادر سبعة وخمسين ألفًا، وأسروا خمسة وثلاثين ألفًا.

وفي ربيع 617م حاصر الفرس بقيادة شهربراز الإسكندرية، وبسطوا سيطرتهم تدريجيًّا على مصر، ما أدى إلى انقطاع القمح عن العاصمة، وبحلول منتصف عام 621م كانت مصر بأكملها في أيديهم.

عقد هرقل سلامًا مع الفرس مقابل ضريبة سنوية كبيرة، وبعدها التفت إلى الشأن الداخلي بدأ إصلاحاته العسكرية والمدنيّة، التي أطلق هرقل في أعقابها حملته العسكرية المضادة في آسيا الصغرى وأرمينيا، متوغلًا في أراضي الدولة الساسانية، ومحرزًا نصرًا نهائيًّا عليها في معركة نينوى عام 627م، والتي مهدت لعقد السلام عام 629 بعد أن أطيح بالملك الفارسي كسرى الثاني، ونصّت معاهدة السلام لعام 629 على العودة إلى حدود ما قبل الحرب عام 602م.

واجه هرقل الهزيمة بعد فترة قصيرة من انتصاره على الفرس، هذه المرة من قبل الخلافة الراشدة التي تمكنت من الإطاحة بالحكم البيزنطي عن سوريا، ومصر، وليبيا، ومناطق أخرى.

شهد عهد هرقل العديد من الحملات العسكرية، ففي العام الذي تُوِّج فيه هرقل، كان جيش الإمبراطورية الساسانية قد بلغ قلب الإمبراطورية البيزنطية في الأناضول، ولذلك كان هرقل المسئول الأول عن إصلاح سياسة الدولة، وتعبئة الجيش، ومن ثم محاربة الفرس الساسانيين؛ انتهت الجولة الأولى من المعارك بهزيمة الدولة

البيزنطية، واقترب الجيش الفارسي من مضيق البوسفور، ولأن القسطنطينية كانت محمية بشكل جيد، بحيث لا يمكن اختراقها بسهولة من قبل المحاصرين، استطاع هرقل تجنب الهزيمة الكاملة.

وهرقل كان إمبراطور الروم الذين جاء ذكرهم في سورة الروم وهم الذين حاربهم الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده وانتصروا عليه وتم طرده من الشام في معارك عديدة أهمها اليرموك في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

أنجب هرقل من زوجته الأولى فابيا طفلين، في حين أنجب من مارتينا تسعة أطفال، توفي اثنان منهم في الصغر، في حين كان فابيوس فلافيوس مصابًا بالشلل في الرقبة، وثيودوسيوس كان أصمَّ وابكمَ، فقد نظر إلى ذلك بوصفه عقابًا أو لعنة إلهية لكون زواج هرقل من ابنة أخته غير مشروع.

تزوج ثيودوسيوس من نايك ابنة القائد الفارسي شهربراز؛ وغدا اثنان من أبنائه أباطرة بعده هرقلوناس بين 638 – 641م ابن مارتينا، وقسطنطين الثالث ابن إيدوكيا من فبراير وحتى مايو 641م.

كان لهرقل أيضًا ابنٌ واحدٌ على الأقل غير شرعي، ومن أم غير معروفة في التاريخ، ولربما انخرط في مؤامرة لخلع هرقل مع ابن عمه وعدد من رجال البلاط منهم النبيل الأرمني ديفيد ساهاروني، غير أن هرقل اكتشف المؤامرة، وقام بجدع أنف وقطع يدين المتآمرين ثم قام بنفيهم إلى جزيرة برينكيبو.

في السنوات الأخيرة من حكم هرقل، غدا الصراعُ على وراثة العرش شديد الوضوح في البلاط مع محاولات مارتينا الدفع بأبنائها نحو العرش، وقد انتهى الأمر بقرار هرقل وضع «هرقلوناس»، و«قسطنطين الثالث» ليحكما مناصفة بالاشتراك مع مارتينا كإمبراطورة للدولة.

* * *

محاولة هرقل رأب الصراع المذهبي عند الروم البيزنطيين

بعد تحقيقه الانتصار على الفرس الساسانيين، أدرك هرقل كما سلفه يوسطيان الأول من قبل، أهمية حل الخلاف حول مجمع «خلقيدونية» حفاظًا على وحدة الإمبراطورية ولرأب الصدع الكبير الذي طرأ على المجتمع بنتيجتها والذي وصف «بأكبر صدع طرأ على الإمبراطورية البيزنطية وأشده خطورة»؛ كان الخلاف حول مجمع «خلقيدونية» منذ عام 450 يتعلق بين القائلين «في المسيح طبيعتان متحدتان في شخص واحد»، وبين القائلين «بأن شخص المسيح ذو طبيعة واحدة من جوهرين أو طبعين مختلفين»، وكانت الصيغة الأولى قد أقرت في مجمع «خلقيدونية» ودعمها كرسي روما والقسطنطينية، والملكيون في أنطاكية والإسكندرية وأقلية من السريان، والصيغة الثانية تمسك بها رافضو المجمع الخليقدوني، ودعمتها غالبية السريان والأقباط والأحباش والأرمن.

وعلى الرغم من مناقشة قضية الإرادة الواحدة أو المشيئة الواحدة في المسيح من قِبَلِ عدد من اللاهوتيين في القرن السادس، إلا أنه من غير المعروف على وجه الدقة المصدر الذي استقى منه هرقل ومعه سرجيوس بطريرك العاصمة بين 610 و638م فكرة التعليم الجديد بشكل مباشر، وينصّ على القول بمشيئة واحدة في المسيح، أي «إن طبعية المسيح متحدان في مشيئة واحدة وشخص واحد بعد الاتحاد»، بمعنى آخر «إن الطبع البشري والطبع الإلهي في المسيح قد أفضت نتيجة اتحادهما إلى مشيئة

واحدة أو قدرة واحدة»، وحسب تعريف اللاهوتي الألماني أدولف هارباك «إن طبعيْ المسيح أديا النتيجة نفسها عن طريق قدرة إلهية بشرية واحدة».

وكان القديس كيرلس الإسكندري قد ذكر في معرض تفسيره الفصل الرابع من إنجيل يوحنا أن «المسيح أظهر مشيئة واحدة متجانسة نتيجة اتحاد طبيعتيه».

أصدر هرقل مرسومًا إمبراطوريًّا بتبني المونوثيلية كعقيدة رسمية في الدولة، ونصّ المرسوم الإمبراطوري على القبول بمجمع «خلقيدونية» وشرعية انعقاده، وقد اعتمدت عدة كنائس ومنها روما والقسطنطينية هذا التعريف، في حين رفضته أقلية من اللاهوتيين ذوي النفوذ في الجانب الخلقيدوني ومنهم القديس «صفرونيوس» بطريرك القدس اللاحق «633 – 634م» ومكسيموس المعترف الذي دافع عن القول بالمشيئتين في المسيح.

أما الرفض الأكبر والذي أجهض مساعي الإمبراطور التوحيدية فعليًّا، كان أثناسيوس الجمال، بطريرك غير الخلقيدونيين في سوريا، وذلك ليس رفضًا للمشيئة الواحدة بحد ذاتها بل رفضًا لصيغة الطبعين بعد الاتحاد؛ على الرغم أنه يسود الاعتقاد بين عدد من المؤرخين ومنهم يوهانس وسهايم بأن الإمبراطور ما كان ليجترح الصيغة الجديدة لو لم يوح له المناوئون لمجمع «خلقيدونية» أنهم قد يقتنعون بقبول مجمع خلقيدونية، إن اعترف الخلقيدونيون بأنه لم تكن في المسيح بعد اتحاد طبعتيه سوى مشيئة واحدة وفعل إرادي واحد، خصوصًا بعد لقاء هرقل مع البطريرك الجمّال في منبج عام 631 حيث فاوضه على الاعتراف بالمشيئة والمجمع الخليقدوني مقابل الاعتراف به بطريركًا موحدًا لأنطاكية.

وقد أدى رفض أصحاب الطبيعة الواحدة للمرسوم الإمبراطوري، لإثارة قلاقل في الرها ومنبج وحمص لاسيّما بعد صدور مرسوم آخر بجدع أنف ومصادرة أملاك كل من يرفض شرعية الاعتراف بمجمع خلقيدونية، وهي رواية ضعيفة عند بعض

المؤرخين المعاصرين أمثال أسد رستم، ولم يذكرها من القدماء سوى ابن العبري وديونيسيوس التلمحري.

وعلى الرغم من الإجراءات الإمبراطورية السابقة لنشر عقيدة المشيئة الواحدة والتي أرفقها الإمبراطور بزيارة سوريا حتى دير مارون قرب حماه عام 628م، على ما يذكره سعيد بن البطريق، ولقائه كاثوليكوس الأرمن في قبرص والذي قبل بالصيغة تمامًا كرغبة الإمبراطور، فإنه وبعد وفاته سرعان ما أخذت الكنيسة الجامعة ترتد عنها بوصفها هرطقة، فرفضتها روما أولًا عام 649م، ثم رفضها مجمع القسطنطينية الثالث نهائيًّا عام 680 وأقرّ صيغة المشيئتين في المسيح «إن الاعتراف بطبعين في المسيح كما في المجمع الرابع، يستلزم منطقيًّا الإقرار بمشيئتين في المسيح كما في المجمع السادس».

اعترف المؤرخون لهرقل بالعديد من الإنجازات على صعيد إنقاذ الإمبراطورية من حالة الفوضى والترهل التي كانت تمرّ بها من ناحية؛ وانتصاره على الفرس ودحره كسرى الثاني عن حدود العاصمة واستعادة أملاكه في الشرق من ناحية ثانية، وإقرار إصلاحات في البنية المالية والإدارية للدولة، مؤسسًا بذلك السلالة الهراقلية التي استمرت في حكم الإمبراطورية حتى عهد «جستنيان الثاني» عام 711م.

أحد أهم إنجازات هرقل كان الاعتراف باللغة اليونانية كلغة رسمية للإمبراطورية البيزنطية عام 620م بدلًا عن اللغة اللاتينية؛ وتبادله بعثات دبلوماسية مع شعوب الصرب والكروات، وتحوّل سكان مقدونيا إلى المسيحية بشكل كامل حوالي عام 626م بعد أن طلبوا من هرقل إيفاد رجال كنسيين لنشر الديانة وتعميدهم، وهو ما تمّ بعد أن نسّق هرقل مع البابا يوحنا الرابع في إرسال مبشرين لمناطق السلاف والكروات والمقدونيين.

إلى جانب الإصلاحات الزراعية وتمليك الفلاحين للأراضي البور إن قاموا

باستصلاحاتها، كذلك فقد أنشأ هرقل جهازًا حكوميًّا موحدًا لصك وضبط العملة، ويعود له وضع التقسيمات الإدارية الجديدة للإمبراطورية البيزنطية والمعروفة باسم الثيمة، وإن كان بعض المؤرخين الحديثين أعادوا نظام الثيمات لعهد خلفه كونستانس الثاني؛ وإن فشل في حل الخلاف الديني حول مجمع «خلقيدونية» عن طريق المونوثيلية، فقد نجح بإعادة الصليب الحقيقي، أحد أهم المقدسات المسيحية إلى القدس.

بعد انتصاره على الفرس، اتخذ هرقل لنفسه لقب «ملك الملوك» وهو اللقب التقليدي لملوك فارس؛ وبدءًا من عام 629م، أضاف لألقابه لقب باسيليوس الكلمة اليونانية التي تفيد معنى السيادة والاستقلال، واستمرّ استخدام هذا اللقب من قبل الأباطرة الرومان خلال القرون الثمانية التالية؛ يرى البعض المؤرخين أن اختيار اللقب جاء من قبل هرقل تخليدًا لانتصاراته كما فعل سلفه أغسطس قيصر، البعض الآخر يعزو اللقب إلى أصوله الأرمينية.

يظهر هرقل أيضًا في عدد من أعمال عصر النهضة الفنية، ولعلّ أهمها جدَّارية «تاريخ الصليب» لبيير يدلا فرانسيسكا في إيطاليا، والتي قام آدم إليثمير برسم مثيل لها في فرانكفورت. لإدوارد جيبون في كتابه «انحدار وسقوط الإمبراطورية الرومانية» كتب عن هرقل يصفه: «رجل استثنائي، وغير قابل للتكرار، قضى عهده الطويل في حل المشاكل التي واجهت الدولة البيزنطية وإزالة الضغوط عليها، خصوصًا تلك المشكلات التي تهم عامة الشعب»، ومن ناحية عسكرية يضيف جابون بأنه «من أيام جنابعل، لم تشهد الإمبراطورية الرومانية قائدًا عسكريًّا كهرقل».

بين هرقل والرسول ﷺ:

بعد صلح الحديبية بين النبي ﷺ وكفار قريش، في عام 6هـ حين أتى المسلمون لأداء العمرة في ذلك العام، فمنعتهم قريش، فأجرى النبي صُلحًا بين المسلمين

والمشركين، ومن بنود هذا الصلح: وقف الحرب بين الطرفين عشر سنوات وأن يعود المسلمون في العام التالي لأداء العمرة وغير ذلك من الشروط، قام رسول الله ﷺ بدعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام مع مطلع السنة السابعة للهجرة وأسل رسالاته مع رسله فكتب لهم كتبًا لكل من:

المقوقس حاكم مصر، هرقل عظيم الروم، كسرى ملك فارس، المنذر بن ساوى أمير البحرين، هوذة الحنفي أمير اليمامة، ملكا عُمان، الحارث الحميري حاكم اليمن، الحارث الغساني أمير الغساسنة، النجاشي ملك الحبشة.

جاءت رسالة الرسول ﷺ لهرقل والتي حملها إليه الصحابي دحية الكلبي رضي الله عنه كما ذكرها البخاري في صحيحه بالنص التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعوة الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين.

ثم كتب قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64]. (1)

ولما جاء قيصر كتاب رسول الله ﷺ قال حين قرأه التمسوا لي ها هنا أحدا من قومه لأسألهم عن رسول الله ﷺ قال ابن عباس فأخبرني أبو سفيان بن حرب أنه كان بالشأم في رجال من قريش قدموا تجارا في المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش (هدنة الحديبية).

1- انظر تاريخ الأمم والملوك: الطبري؛ وتاريخ الواقدي: 2 / 33 وما بعدها؛ والروض الأُنُف: عبد الرحمن السهيلي؛ والسيرة النبوية: لعبد الملك بن هشام 2 / 352، 353.

قال أبو سفيان: فوجدَنا رسول قيصر ببعض الشأم فانطلق بي وبأصحابي حتى قدمنا إيلياء فأدخلنا عليه فإذا هو جالس في مجلس ملكه وعليه التاج وإذا حوله عظماء الروم، ودعا بترجمانه.

فقال «هرقل»: أيكم أقرب نسبا إلى هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟

قال أبو سفيان فقلت: أنا أقربهم إليه نسبًا.

قال ما قرابة ما بينك وبينه.

فقلت هو ابن عمي وليس في الركب يومئذ أحد من بني عبد مناف غيري.

فقال «هرقل»: ادنوه مني وقرِّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه قل لهم إني سائل هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه.

قال أبو سفيان: والله لولا الحياء يومئذ من أن يأثر أصحابي عني الكذب لكذبته حين سألني عنه ولكني استحييت أن يأثروا الكذب عني فصدقته. [1]

قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول أحد منكم قبله.

قلت: لا.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا.

قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم.

فقلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون.

1- وكان ذلك قبل إسلام أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه.

قال: فهل يرتد أحد سُخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

قلت: لا.

قال: كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟

قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.

قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة.

قال: فهل قاتلتموه؟

قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟

قلت: الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه.

قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها.

وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت أن لا فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله.

وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب مُلك أبيه.

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل.

وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

وسألتك أيرتد أحد سُخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك هل قاتلتموه وقاتلكم فزعمت أن قد فعل وأن حربكم وحربه تكون دولًا ويدال عليكم المرة وتدالون عليه الأخرى وكذلك الرسل تبتلَى وتكون لها العاقبة.

وسألتك بما يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدميَّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه.

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه.

قال أبو سفيان، فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأُخرجنا، فلما أن خرجت مع أصحابي وخلوت بهم قلت لقد أمر أمر ابن أبي كبشة (كنية كانت تطلقها قريش عليه ﷺ) هذا ملك بني الأصفر يخافه قال أبو سفيان: والله ما زلت ذليلًا مستيقنًا بأن أمره سيظهر حتى أدخل الله قلبي الإسلام وأنا كاره.

ومع انشغال النبي ﷺ بعمرة القضاء حسبما قضى صلح الحديبية، مع مواجهة مشاكل بعض القبائل العربية التي كانت تتربص بالمسلمين الدوائر من: بني مرّة وبني

فزارة وبني القشير، فقد ظلت طريق الشام تشغل حيِّزًا هامًا في خطّته ﷺ؛ إذ حاول أن يوطّد علاقاته بفروع من جذام؛ حيث أعطى كتابًا بالأمان لرهط رافعة بن زيد الجذامي الذي قدم عليه في هدنة الحديبية قبل خيبر، واتصل بفروة بن عمرو الجذامي الذي كان عاملًا لقيصر على عمان من أرض البلقاء، وقد دخل في الإسلام وسجنه الروم.

بدأ النبي ﷺ بمحاولة استطلاع الأوضاع في الشام بعد عودة السيطرة البيرنطية مباشرة»، وعلى هذا الأساس يمكن فهم إرساله سريّة بقيادة عمرو بن كعب الغفاري على رأس خمسة عشر فارسًا إلى ذات أطلاح في الشام. [1]

وخبر هذه السريّة يدلّ بوضوح على تتبُّع الرسول ﷺ لأخبار الروم في الشام؛ حيث إن جيش فارس انسحب من الشام وسلم الإدارة للروم البيزنطيين في شهر يونية سنة 629م الموافق شهر صفر سنة 8 هـ، بينما أرسلت سرية ذات أطلاح بعد ذلك مباشرة في شهر ربيع الأول سنة 8 هـ.

* * *

1- انظر: المغازي - للواقدي، وابن سعد في طبقاته.

غزوة مؤتة ومواجهة الروم البيزنطيين

تعد غزوة مؤتة أول واقعة يصطدم فيه المسلمون بالبزنطيين مباشرة، جرت الغزوة في جمادي الأولى من العام الثامن للهجرة «أغسطس 629م» بسبب قتل الصحابي الحارث بن عمير الأزدي رسول النبي محمد ﷺ إلى ملك بُصْرَى على يد شرحبيل بن عمرو بن جبلة الغساني والي البلقاء الواقع تحت الحماية الرومانية؛ إذ أوثقه رباطا وقدمه فضرب عنقه.

وكان قَتْل السفراء والرسل من أشنع الجرائم، يساوي بل يزيد على إعلان حالة الحرب، فاشتد ذلك على النبي محمد ﷺ حين نقلت إليه الأخبار، فجهز إليهم جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وهو أكبر جيش إسلامي لم يجتمع مثله قبل ذلك إلا في غزوة الخندق.

أمّر النبي ﷺ على هذا البعث زيد بن حارثة، وقال: «إن قُتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة»، وعقد لهم لواءً أبيضَ، ودفعه إلى زيد بن حارثة. وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم، وقاتلوهم، وقال لهم: «اغزوا بسم الله، في سبيل الله، من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأة، ولا كبيرًا فانيًا، ولا منعزلًا بصومعة، ولا تقطعوا نخلًا ولا شجرة، ولا تهدموا بناء».

وقد خرجت نساء المسلمين لتوديع أزواجهن وهن يقلن، ردكم الله إلينا صابرين».

فرد عبد الله بن رواحة وقال: «أما أنا فلا ردني الله».

وتحرك الجيش الإسلامي في اتجاه الشمال حتى نزل معان، من أرض الشام «الأردن حاليًا»، مما يلي الحجاز الشمالي، وحينئذ نقلت إليهم الاستخبارات بأن هرقل نازل بمآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلي مائة ألف.

لم يكن المسلمون قد أدخلوا في حسابهم لقاء مثل هذا الجيش العرمرم الذي بوغتوا به في هذه الأرض البعيدة وهل يهجم جيش صغير قوامه ثلاثة آلاف مقاتل فحسب على جيش كبير عرمرم مثل البحر الخضم قوامه مائتا ألف مقاتل؟ حار المسلمون، وأقاموا في معان ليلتين يفكرون في أمرهم، وينظرون ويتشاورون، ثم قالوا: نكتب إلى رسول الله، فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له. ولكن عبد الله بن رواحة عارض هذا الرأي، وشجع الناس، قائلًا: يا قوم والله إن التي تكرهون للّتي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة. وأخيرًا استقر الرأي على ما دعا إليه عبد الله بن رواحة.

وحينئذ بعد أن قضى الجيش الإسلامي ليلتين في معان، تحركوا إلى أرض العدو، حتى لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها «شارف» ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى مؤتة فعسكروا هناك، وتعبأوا للقتال، فجعلوا على ميمنتهم قطبة بن قتادة العذري، وعلى الميسرة عبادة بن مالك الأنصاري. وكان عددهم ثلاثة آلاف وقدر الغسانيون والروم مئتا ألف. (1)

وهناك في مؤتة التقى الفريقان، وبدأ القتال المرير، ثلاثة آلاف رجل يواجهون هجمات مائتي ألف مقاتل.

1- بلدة مؤتة تقع ضمن لواء المزار الجنوبي في محافظة الكرك وتبعد عن مدينة الكرك مسافة 12كم، وتبعد 140 كم جنوب العاصمة الأردنية عَمان، ارتفاعها عن سطح البحر 1.100 مترًا وتبلغ مساحة الأراضي التابعة لحدود بلية مؤءتة 16كم.

أخذ الراية زيد بن حارثة وجعل يقاتل بضراوة بالغة، فلم يزل يقاتل حتى شاط في رماح القوم، وخر صريعًا. وحينئذ أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، وطفق يقاتل قتالًا منقطع النظير، حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها، ثم قاتل حتى قطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، ولم يزل بها حتى قُطعت شماله، فاحتضنها بعضديه، فلم يزل رافعًا إياها حتى قتل. يقال إن روميًّا ضربه ضربةً قطعته نصفين، وأثابه الله بذراعيه جناحين في الجنة يطير بهما حيث يشاء، ولذلك سمي بجعفر الطيار، وبجعفر ذي الجناحين.

روى البخاري عن نافع، أن ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر يؤمئذ وهو قتيل، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة، ليس منها شيء في دبره، يعني ظهره. وفي رواية أخرى قال ابن عمر: كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعًا وتسعين من طعنة ورمية. وفي رواية العمري عن نافع زيادة فوجدنا ذلك فيما أقبل من جسده.

ولما قُتل جعفر بعد أن قاتل بمثل هذه الضراوة والبسالة، أخذ الراية عبد الله بن رواحة، وتقدم بها وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد، حتى حاد حيدة ثم قال:

أقسمت يا نفس لتنزلنَّهْ ... كارهة أو لتطاوعنَّهْ

إن أجلب الناس وشدوا الرنة ... مالي أراكِ تكرهين الجنةْ

ثم نزل فأتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال: شد بهذا صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده فانتهس منه نهسة، ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه فتقدم، فقاتل حتى قُتل.

وحينئذ تقدم رجل من بني عجلان اسمه ثابت بن أقرم فأخذ الراية وقال: يا معشر

المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية قاتل قتالًا مريرًا.

فقد روى البخاري عن خالد بن الوليد قال: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية.

وفي لفظ آخر: لقد دُق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية. (1)

وقد قال النبي يوم مؤتة مخبرًا بالوحي، قبل أن يأتي إلى الناس الخبر من ساحة القتال: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب وعيناه تذرفان حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم». (2)

وهكذا نجح هذا الجيش الصغير في الصمود أمام ذلك الجيش الكبير من الروم، ففي ذلك الوقت أظهر خالد بن الوليد مهارته في تخليص المسلمين مما لقوه في تلك المعركة حين أُوكل له أمر القيادة.

نجح خالد بن الوليد في الصمود أمام جيش الرومان طول النهار، في أول يوم من القتال. وكان يشعر بمسيس الحاجة إلى مكيدة حربية تلقي الرعب في قلوب الرومان حتى ينجح في الانحياز بالمسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة. فقد كان يعرف جيدًا أن الإفلات من براثنهم صعب جدًّا لو انكشف المسلمون، وقام الرومان بالمطاردة.

فلما أصبح اليوم الثاني اعتمد خالد بن الوليد في خطته على الحرب النفسية حيث أمر عددًا من الفرسان بإثارة الغبار خلف الجيش، وأن تعلو أصواتهم بالتكبير والتهليل وقام كذلك بتبديل الرايات وغير أوضاع الجيش، وعبأه من جديد، فجعل مقدمته

1- رواه البخاري.

2- رواه البخاري.

ساقة، (مؤخرة) وميمنته ميسرة، وهكذا دواليك، فلما رآهم الأعداء أنكروا حالهم، وقالوا: جاءهم مدد، فرعبوا، وسار خالد بعد أن تراءى الجيشان وهجم على الروم وقاتل حتى وصلوا إلى خيمة قائد الروم ثم أمر خالد بانسحاب الجيش بطريقة منظمة وأخذ يتأخر بالمسلمين قليلًا قليلًا، مع حفظ نظام جيشه، ولم يتبعهم الرومان ظنًّا منهم أن المسلمين يخدعونهم، ويحاولون القيام بمكيدة ترمي بهم في الصحراء ولم يتبعوا خالدًا في انسحابه. وهكذا انحاز العدو إلى بلاده، ولم يفكر في القيام بمطاردة المسلمين ونجح المسلمون في الانحياز سالمين، حتى عادوا إلى المدينة.

استشهد يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلًا، أما الرومان فقتل منهم ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمسون رجلًا.

قال ابن إسحاق في السيرة [1]: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير، قال لما دنوا من حول المدينة تلقاهم الرسول والمسلمون، قال ولقيهم الصبيان يشتدون والرسول مقبل مع القوم على دابة فقال: «خذوا الصبيان فاحملوهم، وأعطوني ابن جعفر. فأتى بعبد الله فأخذه فحمله بين يديه.. قال وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون يا فُرار فررتم في سبيل الله، قال فيقول رسول الله ﷺ ليسوا بالفرار ولكنهم الكرَّار إن شاء الله».

وأضاف ابن إسحاق رحمه الله: وحدثني عبد الله بن أبي بكر، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، عن بعض آل الحارث بن هشام، وهم أخواله، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قال: قالت أم سلمة لامرأة سلمة بن هشام بن العاص بن المغيرة «مالي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ومع المسلمين؟ قالت والله ما يستطيع أن

1- ابن إسحاق المؤرخ وهو الإمام أبو بكر محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار المدني. كان مولى لقيس بن مخرمة بن المطلب القرشي، ولد في المدينة سنة 85 هـ/ 703م.
انظر: كتابه السيرة النبوية المسمَّى «السِّيَر والمغازي» جمع وتحقيق الشيخ طه عبدالرءوف سعد – الناشر دار أخبار اليوم – القاهرة.

يخرج كلما خرج صاح به الناس يا فرار فررتم في سبيل الله حتى قعد في بيته فما يخرج».

وكانت هذه المعركة بداية اللقاء الدامي مع الرومان، فكانت توطئة وتمهيدًا لفتح بلاد الشام التي كان يحتلها ويسيطر عليها الروم.

وتتجلى أهمية مؤتة باعتبارها أول معركة مهمة بين المسلمين من جهة، والروم وحلفائهم من القبائل العربية في الشام من جهة ثانية.

وقد أفاد المسلمون دروسًا وخبرة من هذا اللقاء الأول مع الروم في مستقبل جهادهم معهم؛ حيث تعرفوا على عددهم وعدَّتهم وخططهم العسكرية، وطبيعة الأرض التي وقع فيها القتال، وقد وجه النبي ﷺ بعد ذلك مباشرة سرية بقيادة عمرو ابن العاص رضي الله عنه المعروف بحنكته وتأنّيه، وقد وصلت هذه السرية إلى ذات السلاسل في أطراف الشام في جمادى الثانية سنة 8هـ وحققت ما طُلب منها وأثبتت أن للمسلمين شوكة ثم كانت غزوة تبوك بقيادة النبي ﷺ..

* * *

غزوة تبوك [1] نصر بلا قتال

تعد غزوة تبوك أهم غزوة قادها الرسول ﷺ على الإطلاق كانت غزوة تبوك، وهي باتجاه الشام أيضًا، فمن حيث العدد بلغ الجيش حسب ما ذكرته المصادر قرابة ثلاثين ألفًا. واستغرقت هذه الغزوة قرابة شهرين «رجب وشعبان سنة 9هـ»، منها عشرون يومًا أقامها المسلمون في راحة في تبوك نفسها، وهي أطول مدة يقيمها جيش إسلامي في عهد الرسول ﷺ في موقع واحد.

ترك رسول الله ﷺ على إمارة المدينة الصحابي محمد بن مَسْلَمة رضي الله عنه، وعلى أهله علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وقطع الجيش المناضل المسافة البعيدة في صبر جميل،لقد كانوا يقسمون الثمرة الواحدة بين الرجلين لقلة الزاد، وكان يتعاقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد، وكانوا يدخرون الماء لندرته، حتى كانوا ينحرون الإبل ليشربوا الماء الذي تدخره في باطنها! ابتلاء كبير، ويُبتلى المرء على قدر دينه.

وتظهر أهمية تبوك من الناحية الاقتصادية والجغرافية في كونها واحة كبيرة على طرف الشام، وأهم محطة وراء خيبر وتيماء وفدك ووادي القرى، ومن الناحية الاستراتيجية، فهي تشكّل مركزًا مهمًا يمكن الاتصال منه بمراكز كثيرة في الشمال، كما حصل فعلًا أثناء الغزوة.

1- مدينة تبوك مقر إمارة منطقة تبوك وكبرى مدن شمال السعودية، وحولها بعض من أهم الآثار في الجزيرة العربية، تعد منطقة تبوك البوابة الشمالية للجزيرة العربية، وطريقًا حيويًا للتجارة والحجاج والمعتمرين من خارج الجزيرة العربية.

وقد حدثت أحداث كثيرة في الطريق ليس المجال لتفصيلها، منها بعض المعجزات لرسول الله مثل تكثير الطعام، والاستسقاء، ونزول المطر مباشرة، إخباره عن مكان شرود ناقته مع بُعد مكانها عنه، خروج الماء من وادي المشقّق مع عدم وجوده في البداية، ومثل إخباره عن ريح قبل أن تهب، ومنها إبطاء أبي ذر لضعف بعيره، ثم إكماله الطريق إلى تبوك ماشيًا على أقدامه. ومنها مواقف متعددة خبيثة من المنافقين، كالاستهزاء بالرسول وآيات الله، ونزول آيات قرآنية تكشف مكرهم وتدبيرهم.

ومنها نوم الصحابة، ومعهم الرسول عن صلاة الصبح في يوم من الأيام، ثم صلاة الصبح قضاءً، ومنها موت الصحابي الجليل ذي البجادين رضي الله عنه.

وصل الرسول ﷺ ومعه الجيش إلى أرض تبوك، فوجد أن الجيوش الرومانية قد فرت من أرض المعركة فكان ذلك نصرًا بلا قتال قال تعالى: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا ﴾ [آل عمران: 151] .

لقد علمت الرومان بقدوم ثلاثين ألف مسلم فيهم رسول الله ﷺ، فتذكروا ما حدث لهم في موقعة مُؤتة التي لم يمر عليها عامان، حيث ارتبكت الجيوش الرومانية أمام ثلاثة آلاف مسلم في تحقيق نصر، فماذا سيفعلون أمام ثلاثين ألفًا يتزعمهم ويقودهم رسول الله ﷺ فما كان منهم إلا الفرارُ رعبًا.

لم يكتف الرسول بهذا النجاح الباهر، بل أصر على البقاء في تبوك بضعة عشر يومًا، وفي رواية عشرين يومًا؛ ليثبت للجميع أنه ليس خائفًا من الرومان وأعوانهم، مع أنه كان من عادة الجيوش في ذلك الزمن أن يمكثوا في أرض المعركة ثلاثة أيام فقط لإثبات جرأتهم على عدوهم، ولكن رسول الله ضاعف المدة مرات إلى عشرين يومًا كاملة لضبط الأمن في كل المنطقة.

وتوّج رسول الله رحلته بإرسال سرية من المسلمين قوامها أربعمائة وعشرون فارسًا بقيادة خالد بن الوليد إلى دومة الجندل، والتي تبعد حوالي 335 كيلو مترًا عن

تبوك، وذلك لأسر أكيدر بن عبد الملك الكندي، وكان ملكًا نصرانيًّا ساعد الرومان في حربهم ضد المسلمين.

وقد أخبر رسول الله خالد بن الوليد أنه سيجد أكيدر يصطاد البقر خارج حصنه، فليأت به، وسبحان الله! كما أخبر الرسول الكريم وجد خالد بن الوليد أكيدر خارج الحصن يصطاد فأسره، وأتى به إلى رسول الله، ثم صالحه رسول الله بعد ذلك على الجزية، وحقن له دمه.

ولم يقف نجاح هذه الحملة العسكرية عند هذا الحد، بل أتى ملوك وأمراء مدن الشام المتاخمة للجزيرة العربية يصالحون رسول الله على الجزية، ومن هؤلاء صاحب أيلة يحنَّة بن رؤبة، وكذلك أتاه أهل جرباء، وأهل أذرح، وأهل مقنا.

لقد تم هذا النصر المبين دون أن يُرفع سيف، عدا المناوشات البسيطة التي تمت عند أسر أكيدر بن عبد الملك.

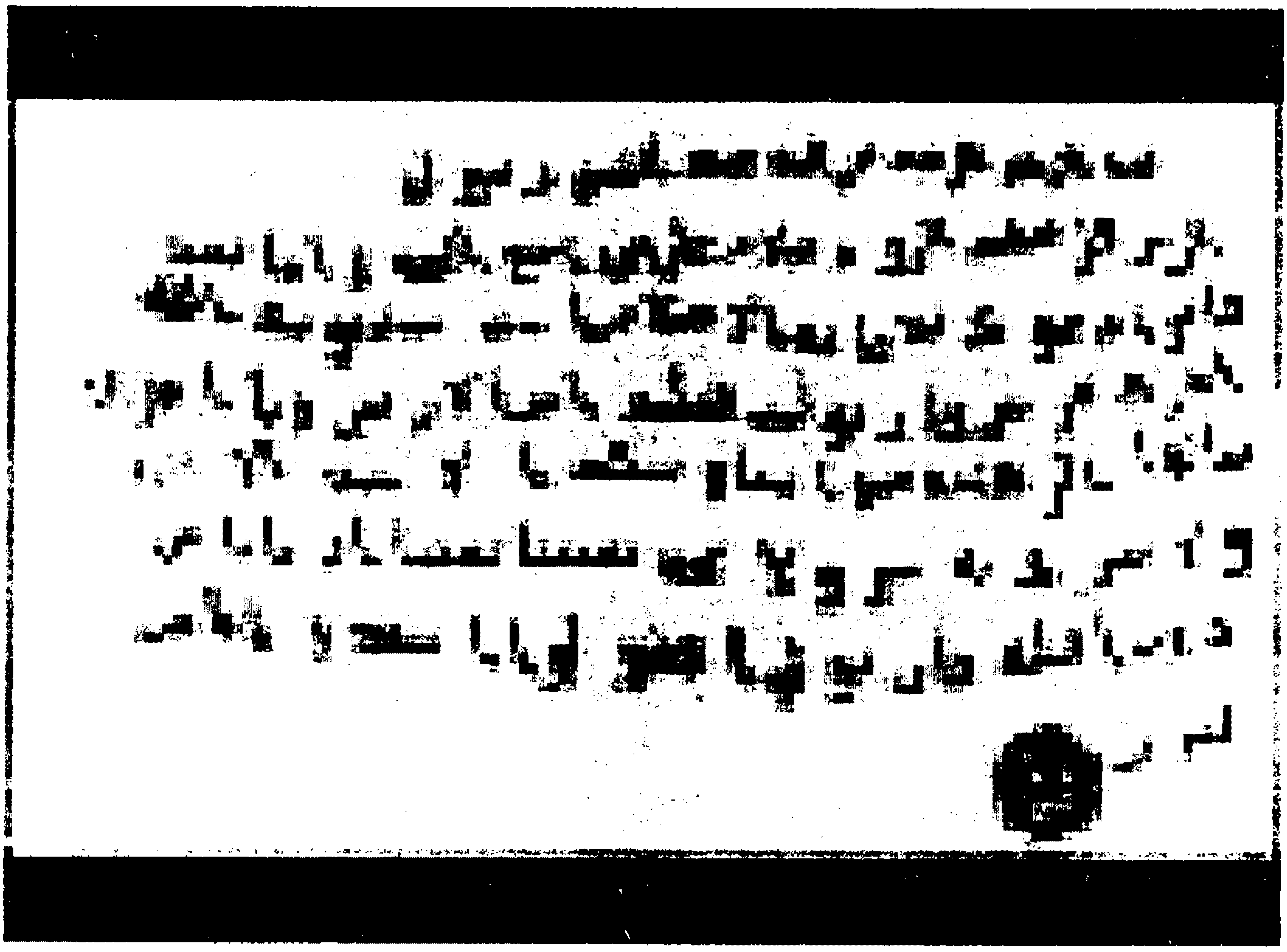
وقد فكر رسول الله في استكمال المسير شمالًا، ومطاردة الرومان في بلاد الشام، ولكنه قبل أن يتحرك استشار المسلمين، فأشار عليه عمر بن الخطاب بالرجوع إلى المدينة، وقال له: يا رسول الله، إن للروم جموعًا كثيرة، وليس بالشام أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم، وقد أفزعهم دنوك، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى، أو يحدث الله أمرًا.

فعمر بن الخطاب رأى -وكان رأيه صائبًا- أن دخول الشام مخاطرة كبيرة، وخاصةً أن أراضي الشام ليست صحراوية، وقتال المسلمين فيها سيكون جديدًا عليهم، بينما سيكون قتال الرومان أكثر ضراوة ومهارة، كما أن أعداد الرومان في الشام لا تقل عن مائتين وخمسين ألف جندي، وهذه أعداد هائلة، غير القبائل المساعدة من العرب.

وقد أخذ رسول الله بمشورة عمر، فآثر العودة بعد أن حقق هذه المكاسب الهائلة. (1)

* * *

1- ابن هشام في السيرة، والطبري: التاريخ وابن سعد في الطبقات وتاريخ الطبري.



صورة من رسالة الرسول ﷺ لهرقل.

معركة اليرموك وطرد الروم من بلاد الشام

في خلافة الخليفة الأول أبي بكر الصديق توجهت الجيوش الإسلامية نحو بلاد الشام لفتحها وتحريرها من احتلال الروم ونشر الإسلام هناك، فدارت معارك كثيرة أهمها للمعركة الفاصلة معركة اليرموك، كانت سنة «13 هـ» والتي يعتبرها المؤرخون من أهم المعارك في تاريخ العالم لأنها كانت بداية أول موجة انتصارات للمسلمين خارج جزيرة العرب، وآذنت لتقدم الإسلام السريع في بلاد الشام. والمعركة حدثت بعد وفاة الرسول ﷺ عام 632م بعامين وشهور في آخر خلافة أبي بكر الصديق.

قررت الجيوش الإسلامية الانسحاب من الجابية بالقرب من دمشق إلى اليرموك بعد تقدم جيش الروم نحوهم. تولّى خالد بن الوليد القيادة العامة للجيش بعد أن تنازل له أبوعبيدة بن الجراح، كانت قوات جيش المسلمين تعدّ 36 ألف مقاتل في حين كانت جيوش الروم تبلغ 240 ألف مقاتل.

وسميت بهذا الاسم نسبة إلى الوادي الذي وقعت فيه، وهو وادي «اليرموك»، واليرموك: نهر ينبع من جبال حوران، يجري قرب الحدود بين سوريا وفلسطين، وينحدر جنوبًا ليصب في غور الأردن ثم في البحر الميت، وينتهي مصبُّه في جنوب الحولة، وقبل أن يلتقي بنهر الأردن بمسافة تتراوح بين ثلاثين وأربعين كيلومترًا يوجد وادٍ فسيح تحيطه من الجهات الثلاث جبال مرتفعة بل شاهقة الارتفاع وتقع في الجهة اليسرَى لليرموك.

اختار الروم الوادي؛ لأنه المكان الذي يتسع لجيشهم الضخم، الذي يبلغ عدده

مائتين وأربعين ألف مقاتل تقريبًا، وأما المسلمون فقد عبروا النهر إلى الجهة اليمنى، وضربوا معسكرهم هناك في واد منبطح يقع على الطريق المفتوح لجيش الروم، وبذلك أغلقوا الطريق أمام الجيش المزهو بعدده وعدته، فلم يعد للروم طريق يسلكونه، أو يفرون إذا اضطروا للفرار، لأن جيش المسلمين قد أخذ عليهم مسلكهم الوحيد.

قسم قائد الجيش الإسلامي خالد بن الوليد -رضي الله عنه- الجيش إلى «36-40» كردوسًا، كل كردوس فيه 1000 مقاتل، ثم قسم كراديس الجيش إلى قلب وميمنة وميسرة وجعل على كل منها أميرًا.

قادة الجيش الإسلامي في تلك المعركة:

1- أبو عبيدة عامر بن الجراح -رضي الله عنه- يقود كراديس القلب.

2- عمرو بن العاص -رضي الله عنه- يقود كراديس الميمنة.

3- يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه يقود كراديس الميسرة.

عن سماك بن حرب، عن عياض الأشعري -رضي الله عنه-، قال: «شهدت اليرموك، وعليها خمسة أمراء أبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل ابن حسنة، وخالد بن الوليد، وعياض، - وليس عياض صاحب الحديث الذي يحدث سماك عنه -». صحيح ابن حبان -كتاب السير- باب التقليد والجرس للدواب، ذكر ما يستحب للإمام أن يستنصر بالله جل وعلا عند قتال العدو.[1]

وأما جيش الروم فكان قائد جيش الدولة البيزنطية «الرومية»: باهان وهو رجل من أبناء فارس تنصر ولحق بالروم.

كانت إقامة هرقل في أنطاكية فقرر جمع ما يستطيع من مقاتلي الروم من القسطنطينية

1- انظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لأبي الفرج ابن الجوزي؛ وتاريخ الأمم والرسل والملوك، ابن جرير الطبري.

وبلاد الشام وروميا، لخوض معركة فاصلة يوقف من خلالها المد الإسلامي في أراضي الشام، وبالفعل استطاع أن يجمع حشودًا هائلة من الجند أتوه من جميع أنحاء مملكته وتجمعوا في وادي اليرموك في الشام.

وانضم مع جيش الروم «جبلة بن الْأَيْهَم» العربي الغساني لقتال أبناء عمومته من العرب المسلمين، فخرج في ستين ألفًا من متنصرة العرب فقدمهم الروم، فانتقى لهم خالد رجالًا من أشراف العرب فقاتلوهم يومًا كاملًا ثم نصر الله المسلمين وهرب جبلة ولم ينج منهم إلا القليل.

أما فيما يتعلق بالجيش الإسلامي، فقد وقع اختيار أمير المؤمنين أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- على خالد بن الوليد -رضي الله عنه- لقيادة جيوش المسلمين، وقال الصديق -رضي الله عنه- مقالته المشهورة: «والله لأشغلن النصارى عن وساوس الشيطان بخالد بن الوليد». [1]

وأصدر أبو بكر -رضي الله عنه- أوامره لخالد بن الوليد -رضي الله عنه- بأن يترك العراق، ويتوجه على وجه السرعة إلى بلاد الشام ويستلم القيادة من أبي عُبيدة ابن الجراح -رضي الله عنه-، «وبعد وصول خالد بن الوليد -رضي الله عنه- إلى بلاد الشام، أمر الخليفة أبو بكر -رضي الله عنه- خالدًا أن يتولى أمر القيادة فيها، حيث كانت قوات المسلمين موزعة في الأقاليم المخصصة لها، أما القوات الرومية فقد توزعت في ناحيتين: الناحية الأولى على الساحل وهدفها ملاقاة عمرو بن العاص في أرض فلسطين، أما الناحية الثانية فوجهتها حمص وبعلبك ودمشق، والهدف من ذلك هو شل قوات عمرو بن العاص ثم الالتفاف حول بقية قوات المسلمين وتدميرها، لذلك قرر خالد بن الوليد -رضي الله عنه- أن تتجمع جيوش المسلمين في «سهل

1- انظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين الذهبي، ج3؛ والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم، أبو الفرج ابن الجوزي، ج4؛ وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبدالحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي ج1؛ والبداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي.

اليرموك» على أن تبقى بعض قوات عمرو بن العاص في فلسطين لصد تقدم القوات الرومية تجاهه».

ضرب قادة وجنود الجيش الإسلامي نماذج رائعة في التطبيق العملي لمبادئ ما آمنوا به، فلقد كان من تلك المبادئ أن الإسلام يشجع أن يقوم المسلم بتقديم الآخرين على النفس في المصالح، أو على الأقل أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه، فعن حبيب بن أبي ثابت، «أن الحارث بن هشام، وعكرمة بن أبي جهل، وعياش بن أبي ربيعة ارتوا (طلبوا الماء) يوم اليرموك، فدعا الحارث بماءٍ ليشربه فنظر إليه عِكرمة، فقال الحارث: ادفعوه إلى عكرمة، فنظر إليه عياش بن أبي ربيعة، فقال عكرمة: ادفعوه إلى عياش، فما وصل إلى عياش ولا إلى أحد منهم، حتى ماتوا وما ذاقوه». (1)

وأما نساء المسلمين فقد كُنَّ نماذج رائعة للشجاعة والبطولة ونافسن الرجال في خدمة الإسلام، فقد قتلت أسماء بنت يزيد بن السكن سبعة من جيش الروم، فعن عمرو بن مهاجر، عن أبيه، «أن أسماء بنت يزيد الأنصارية شهدت اليرموك مع الناس، فقتلت سبعة من الروم بعمود فسطاط ظلتها». (2)

واستثمر بعض الصحابة -رضي الله عنهم- ظروف المعركة واشتداد خطوبها للوفاء بالعهود التي قطعوها لرسول الله محمد - ﷺ - قبل وفاته، ومن أولئك عكرمة ابن أبي جهل -رضي الله عنه-، حيث نزل من فرسه وقاتل قتال الأبطال الأفذاذ وضحى بحياته من أجل إعلاء كلمة الله، فإنه كان: «لما أسلم عكرمة بن أبي جهل فأتى النبي - ﷺ - فقال: يا رسول الله: والله لا أترك مقامًا قمته ليُصد به عن سبيل الله إلا قمت مثليه في سبيل الله، ولا أترك نفقة أنفقتها ليصد بها عن سبيل الله إلا أنفقت مثلها في سبيل الله، فلما كان يوم اليرموك نزل فترجل فقاتل قتالًا شديدًا فقتل، فوجد به بضع وسبعون من بين طعنة ورمية وضربة» رضي الله عنه. (3)

1- المستدرَك على الصحيحين للحاكم، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنه، ذكر مناقب عكرمة بن أبي جهل واسم أبيه مشهور.

2- سنن سعيد بن منصور، كتاب الجهاد، باب ما جاء في سهمان النساء.

3- مصنف ابن أبي شيبة، كتاب فضل الجهاد.

يقول ابن جرير الطبري رحمـه اللـه: «شهد اليرموك ألف من أصحاب رسول الله - ﷺ - فيهم نحو من مائة من أهل بدر -رضي الله عنهم-، وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس فيقول: الله الله إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك، اللهم إن هذا يوم من أيامك اللهم أنزل نصرك على عبادك». [1]

وقاتل أبو سفيان بن حرب -رضي الله عنه- تحت راية ولده يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما لهو مشهد مؤثر ويؤكد صحة العمل وسلامة الصدر من حظوظ الدنيا، وهذه هي حقيقة الإيمان المقترن بالعمل، فليس المهم أين يكون الفرد ليخدم دينه، المهم أن ينتصر الجمع ويرتفع شأن الدين، وكان أبو سفيان -رضي الله عنه- قد فقد عينه الثانية في هذه المعركة بعد أن كان فقد الأولى في غزوة الطائف.

وانتهت المعركة بانتصار المسلمين على جيش الروم انتصارًا عظيمًا، غير مجرى التاريخ الإسلامي، يقول ياقوت الحموي رحمه الله: «نصر الله المسلمين بفحل وقدم المنهزمون من الروم على هرقل بأنطاكية، فدعا رجالًا منهم فأدخلهم عليه، فقال: حدثوني ويحكم عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشرًا مثلكم؟، قالوا: بلى، قال: فأنتم أكثر أو هم؟ قالوا: بل نحن، قال: فما بالكم؟ فسكتوا. فقام شيخ منهم وقال: أنا أخبرك، إنهم إذا حملوا صبروا ولم يكذبوا، وإذا حملنا لم نصبر، ونكذب وهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويرون أن قتلاهم في الجنة وأحياءهم فائزون بالغنيمة والأجر، فقال: يا شيخ لقد صدقتني ولأخرجن من هذه القرية وما لي في صحبتكم من حاجة، ولا في قتال القوم من أرب فقال ذلك الشيخ: أنشدك الله أن لا تدع سورية جنة الدنيا للعرب وتخرج منها ولم تُعذر، فقال: قد قاتلتم بأجنادين ودمشق وفحل وحِمص كل ذلك تفرون ولا تصلحون، فقال الشيخ: أتفر وحولك من الروم عدد النجوم؟ وأي عذر لك عند النصرانية! [2]

1- تاريخ الأمم والرسل والملوك، ابن جرير الطبري.
2- المرجع السابق.

«فثناه ذلك إلى المقام، وأرسل إلى رومية وقسطنطينية وأرمينية، وجمع الجيوش فقال لهم: يا معشر الروم إن العرب إذا ظهروا على سورية لم يرضوا حتى يتملكوا أقصى بلادكم ويسبوا أولادكم ونساءكم ويتخذوا أبناء الملوك عبيدًا، فامنعوا حريمكم وسلطانكم، وأرسلهم نحو المسلمين فكانت وقعة اليرموك وأقام قيصر بأنطاكية فلما هُزم الروم وجاءه الخبر، وبلغه أن المسلمين قد بلغوا قنسرين فخرج يريد القسطنطينية، وصعد على نشز وأشرف على أرض الروم، وقال: سلام عليك يا سورية سلام مودع لا يرجو أن يرجع إليك أبدًا، ثم قال: ويحك ما أنفعك أرضًا، ما أنفعك لعدوك لكثرة ما فيك من العشب والخصب ثم إنه مضى إلى القسطنطينية».

كما كان قائد جيش المسلمين خالد بن الوليد -رضي الله عنه- يوضح لأفراد جيشه بأن النصر من الله - جل جلاله -، فقد «قال رجل لخالد: ما أكثرَ الروم وأقلَّ المسلمين! فقال خالد: ما أقل الروم وأكثر المسلمين!، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال». (1)

- أصاب جيش الروم اضطراب ورعب شديدان من شدة قتال الجيش الإسلامي:

فعن أبي واقد الليثي، صاحب النبي - ﷺ - أخبر في حديث رواه وهو قد شهد اليرموك، قال: وكانت أسماء بنت أبي بكر مع الزبير، قال: فسمعتها وهي تقول للزبير: «يا أبا عبد الله؛ والله إن كان الرجل من العدو ليمر يسعى فتصيب قدمه عروة أطناب خبائي فيسقط على وجهه ميتًا ما أصابه السلاح». (2)

ومن أحداث «معركة اليرموك» اللافتة للنظر إسلام القائد «جرجة» وهو أحد قادة الجيش البيزنطي، حيث خرج من أجل المبارزة وكان خالد بن الوليد -رضي الله عنه- قد خرج له، وقبل القتال دار حديث جميل بينهما كانت نتيجته أن أسلم جرجة

1- تاريخ الأمم والرسل والملوك، ابن جرير الطبري.
2- الطبقات الكبرى لابن سعد - طبقات البدريين من الأنصار- تسمية النساء المسلمات المبايعات من قريش وحلفائهم ومواليهم وغرائب نساء العرب -أسماء بنت أبي بكر الصديق بن أبي قحافة.

وعاد مع خالد -رضي الله عنه- مقاتلًا في سبيل الله كجندي من جنود جيش المسلمين.

روى ابن جرير الطبري رحمه الله: «وخرج جرجة حتى كان بين الصفين ونادى ليخرج إليَّ خالد فخرج إليه خالد وأقام أبا عبيدة مكانه، فوافقه بين الصفين، حتى اختلفت أعناق دابتيهما وقد أمن أحدهما صاحبه.

فقال جرجة: يا خالد أصدقني ولا تكذبني فإن الحُر لا يكذب، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله، هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم؟

- قال خالد -رضي الله عنه-: لا.

- قال جرجة: فبم سميت سيف الله؟

- قال خالد -رضي الله عنه-: إن الله عز وجل بعث فينا نبيه فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعًا، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه وبعضنا باعده وكذبه، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه، فقال ﷺ: «أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين» ودعا لي بالنصر فسميت سيف الله بذلك فأنا من أشد المسلمين على المشركين.

- قال جرجة: صدقتني، ثم أعاد عليه جرجة: يا خالد أخبرني إلام تدعوني؟

- قال خالد -رضي الله عنه-: إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من عند الله.

- قال جرجة: فمن لم يجبكم؟

- قال خالد -رضي الله عنه-: فالجِزية ونمنعهم.

- قال جرجة: فإن لم يعطها؟

- قال خالد -رضي الله عنه-: نؤذنه بحرب ثم نقاتله.

- قال جرجة: فما منزلة الذي يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم؟

- قال خالد -رضي الله عنه-: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا.

- ثم أعاد عليه جرجة: هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل مالكم من الأجر والذخر؟

- قال خالد: نعم وأفضل.

- قال جرجة: وكيف يساويكم وقد سبقتموه؟

- قال خالد -رضي الله عنه-: إنا دخلنا في هذا الأمر، وبايعنا نبينا وهو حي بين أظهرنا، تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالكتب، ويرينا الآيات، وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا.

- قال جرجة: بالله لقد صدقتني ولم تخادعني ولم تألفني؟

- قال خالد -رضي الله عنه-: بالله لقد صدقتك، وما بي إليك ولا إلى أحد منكم وحشة وإن الله لولي ما سألت عنه.

- فقال جرجة: صدقتني، وقلب التِّرس ومال مع خالد، وقال علمني الإسلام.

- فمال به خالد إلى فسطاطه فشن عليه قربة من ماء ثم صلى ركعتين، وحملت الروم مع انقلابه إلى خالد وهم يرون أنها منه حملة فأزالوا المسلمين عن مواقفهم إلا

المحامية عليهم، عكرمة، والحارث بن هشام، وركب خالد ومعه جرجة والروم خلال المسلمين فتنادى الناس فثابوا وتراجعت الروم إلى مواقفهم فزحف بهم خالد حتى تصافحوا بالسيوف، فضرب فيهم خالد، وجرجة من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب، ثم أصيب جرجة ولم يصل صلاة سجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما» رحمه الله تعالى. [1]

لقد حاول قادة جيش الروم إمساك زمام المبادرة في المعركة، مستثمرين الفرق العددي الهائل بينهم وبين جيش المسلمين، فباشروا بالهجوم من أول أيام المعركة، وبالفعل استطاعوا اختراق كراديس الجيش الإسلامي في أول الأمر من الميمنة والميسرة والنفاذ إلى مقر القيادة خلف القلب، والاقتراب كثيرًا من خيمة القائد خالد بن الوليد -رضي الله عنه-، والتحم خيالة الجيش الإسلامي ورجاله مع الروم وأظهروا صورًا عجيبة في القتال، والتضحية والفداء.

ومن الأمور التي لا بد من ذكرها أن قادة الروم قد ربطوا كل عشرة «أو أقل من ذلك» من جنودهم في سلسلة حديدية واحدة من أجل أن لا يهربوا أثناء المعركة فرادًا، فلما كان اشتداد القتال استطاع المسلمون أن يسحبوهم للقتال إلى قرب وادٍ فحين يقتل من الروم جندي أو يدفع ليقع في الوادي يسحب معه بقية العشرة فيسقطوا جميعًا، فسقط كم غفير بلغوا عشرات الألوف من مقاتلة الروم في الوادي.

يقول الذهبي رحمه الله: «وكانت الروم قد سلسلوا أنفسهم الخمسة والستة في السلسلة لئلا يفروا، فلما هزمهم الله - جل جلاله - جعل الواحد يقع في نهر اليرموك فيجذب من معه السلسلة حتى ردموا في الوادي واستووا فيما قيل بحافتيه، فداستهم الخيل وهلك خلق لا يحصون». [2]

1- المصدر السابق.

2- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين الذهبي.

وفي حين كانت المعركة على أشدها في حوض اليرموك، والخليفة أبو بكر -رضي الله عنه- في المدينة عاصمة الدولة الإسلامية، وقد مرض وأوصى إن مات فالخليفة من بعده عمر بن الخطاب -رضي الله عنه.

وتوفي أبو بكر رضي الله عنه وتولى الأمر من بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقرر استبدال قيادة الجيش الإسلامي في الشام من خالد بن الوليد -رضي الله عنه- إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح -رضي الله عنه-، وبعث بكتابه الذي يتضمن الأمر بذلك.

يقول ابن الأثير، رحمه الله في كتابه الكامل في التاريخ: «قدم البريد من المدينة واسمه محمية بن زنيم وأخذته الخيول فسألوه الخبر، فأخبرهم بسلامة وإمداد، وإنما جاء بموت أبي بكر وتأمير أبي عبيدة، فبلغوه خالدًا فأخبره خبر أبي بكر سرًّا، وأخبره بالذي أخبر به الجند، قال:أحسنت فقف، وأخذ الكتاب وجعله في كنانته وخاف إن هو أظهر ذلك أن ينتشر له أمر الجند».

فلما انتهت المعركة جاء خالد -رضي الله عنه- ليعلن مضمون الكتاب على الملأ، ويضع نفسه جنديًّا مطيعًا للقائد الجديد للجيوش أبي عبيدة بن الجراح -رضي الله عنه- الذي عينه أمير المؤمنين.

قال ابن كثير في البداية والنهاية: وكانت رؤية عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- في تغيير منصب القائد لسببين:

السبب الأول: تعلق المسلمين بخالد بن الوليد -رضي الله عنه- شخصيًّا، وافتتانهم به، فخالد بن الوليد -رضي الله عنه- لم يدخل معركة في الإسلام، ولا في الجاهلية إلا وانتصر فيها، وذلك لقوته وخبرته العسكرية وحسن تدبيره -رضي الله عنه- ودهائه بتوفيق الله - جل جلاله -، حتى أن بعض الناس كانوا يعتقدون أن خالدًا كان يحمل سيفًا أنزله له الله - عز وجل - من السماء، وهكذا كانت تروج الإشاعات،

ومن أسس السياسة في الإسلام أن يأخذ الناس بالأسباب ثم تكون النتائج على الله عز وجل - فتتعلق القلوب بالله وليس بالبشر، لذلك فقد كتب عمر-رضي الله عنه- كتب إلى الأمصار: «إني لم أعزل خالدًا عن سُخطة ولا خيانة، ولكن الناس فُتنوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع».

السبب الثاني: إن عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- عُرِفَ بشدته وقوته، وكذلك خالد بن الوليد -رضي الله عنه- عرف بهما، فرأى عمر أن يكون الخليفة شديدًا وقائد الجيوش شديدًا أمرًا ليس فيه مصلحة للأمة.

وبعد انتهاء المعركة وقد قتل عشرات الآلاف من الروم، وأسر الآلاف، قرر قيصر الروم «هرقل» أن يهرب نحو «القسطنطينية»، وهي عاصمة الدولة البيزنطية، يقول ابن الأثير في كتابه «الكامل»: «وسار هرقل فنزل بشمشاط ثم أدرب منها نحو القسطنطينية فلما أراد المسير منها علا على نشز ثم التفت إلى الشام فقال: السلام عليك يا سورية، سلام لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك رومي أبدًا إلا خائفًا».

* * *

الفتوحات الإسلامية في بلاد الروم بعد عصر الخلفاء الراشدين

تلقى الروم الصدمة الأولى الكبرى منذ عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق، فخسرت تباعًا معاركها الكبرى في أجنادين واليرموك، وتساقطت عواصم الشام الرومية القدس ودمشق وأنطاكية، ثم جاء عهد عمر بن الخطاب فخسر الروم أملاكهم في مصر والشمال الأفريقي كذلك، ثم جاء عهد عثمان بن عفان فخسروا جزائر في البحر المتوسط أهمها جزيرة قُبرص.

ثم تراجعت الفتوحات حين وقعت الفتنة بين المسلمين أواخر عهد عثمان وطوال عهد علي، حتى اجتمع المسلمون في عام الجماعة، وبدأت الدولة الأموية، أو لنقل: العاصفة الأموية التي هبت على دولة الروم البيزنطيين فزلزلتها، ففضلا عن الاستنزاف المستمر لقوى الروم، فتح المسلمون عددا من الجزر أهمها رودس وصقلية وهددوا جزيرة كريت، وصارت الغزوات برية وبحرية، والأهم من ذلك بل المفاجأة غير المتوقعة أنهم هددوا عاصمة الدولة ذاتها: القسطنطينية، وذلك أكثر من مرة «49هـ» فانطلق الجيش الإسلامي إلى القسطنطينية وظل يحاصرها لسبع سنوات «54 – 60هـ»، لكن المدينة العتيقة استطاعت الصمود هذه المرة.

وبعد وفاة معاوية ودخل المسلمون في فتنة أخرى اضطر عبد الملك بن مروان أن يتنازل ويصالحهم على أموال يدفعها لهم، فلما استقرت له الأمور فيما بعد، استأنف هو وأولاده من بعده تهديد الدولة البيزنطية وعاصمتها أكثر من مرة.

وفي عهد الوليد بن عبد الملك؛ فتح المسلمون الأندلس وتوغلوا في جنوب فرنسا، وكادوا أن يصلوا إلى باريس لولا أن هزمت جيوشهم في معركة شارل مارتل «بلاط الشهداء».

وفي عهد الدولة العباسية التي انتقلت عاصمتها إلى بلاد ما بين النهرين «بغداد» مما أثر بالضعف على الفتوحات في جبهة الروم، وفي ذات الوقت انفصلت الأندلس بقيادة بقية الأمويين عبد الرحمن بن معاوية الداخل، فتجمدت فتوحات المسلمين على الجبهتين، وتحولت إلى الضربات المستمرة والاستنزاف المستمر وإلقاء الهيبة في قلوب الروم، واستقرت الحدود بين الدولة الإسلامية وبين دولة الروم الشرقية.. وإن لم يخل الأمر من غارات متبادلة وحملات غير مستقرة وتوغلات بعضها خطير، وفي كل هذا كانت اليد العليا لدولة الإسلام والخلافة.

كان التفوق العسكري للمسلمين طوال العصر العباسي الأول، وصدرا من العصر العباسي الثاني، وحتى لما ضعفت الخلافة العباسية في بغداد قامت الدولة الطولونية ثم الإخشيدية «وكلتاهما في مصر والشام» ثم الحمدانية «في الشام» بواجب جهاد الروم، إلا أنه دائر في مجال الاستنزاف والغارات ولم يحقق تقدما حقيقيا في أرض الروم، وبقدر ما عجز الروم عن استغلال ضعف الخلافة العباسية في ذلك الوقت في تحقيق تقدم على حساب الدولة الإسلامية، بقدر ما عجزت الخلافة العباسية عن تحقيق تقدم مثله، إذ كان كل طرف منشغلًا بما يهدده؛ كتمردات الزنج والصفاريين والقرامطة بالنسبة للعباسيين، وتمردات البلغار والأرمن والنزاعات الداخلية في بلاط القسطنطينية.

في الربع الأول من القرن الرابع الهجري:

زاد ضعف الخلافة العباسية وسيطر عليها البويهيون، وبرز في الدولة البيزنطية أباطرة أقوياء -أهمهم نقفور فوكاس- استطاعوا تحقيق تقدم مفاجئ وخطير داخل

الأراضي الإسلامية، وهزموا الحمدانيين في الشام، واستولوا على مدن الثغور، بل على عاصمة الجهاد في الثغور «طرسوس»، واجتاحوا حتى حلب عاصمة سيف الدولة الحمداني وأنطاكية التي هي أحصن مدن الشام، ثم حالت الاضطرابات في بلاط بيزنطة دون استكمال هذا التقدم إلى أخطر من ذلك، حتى جاءت العاصفة السلجوقية.

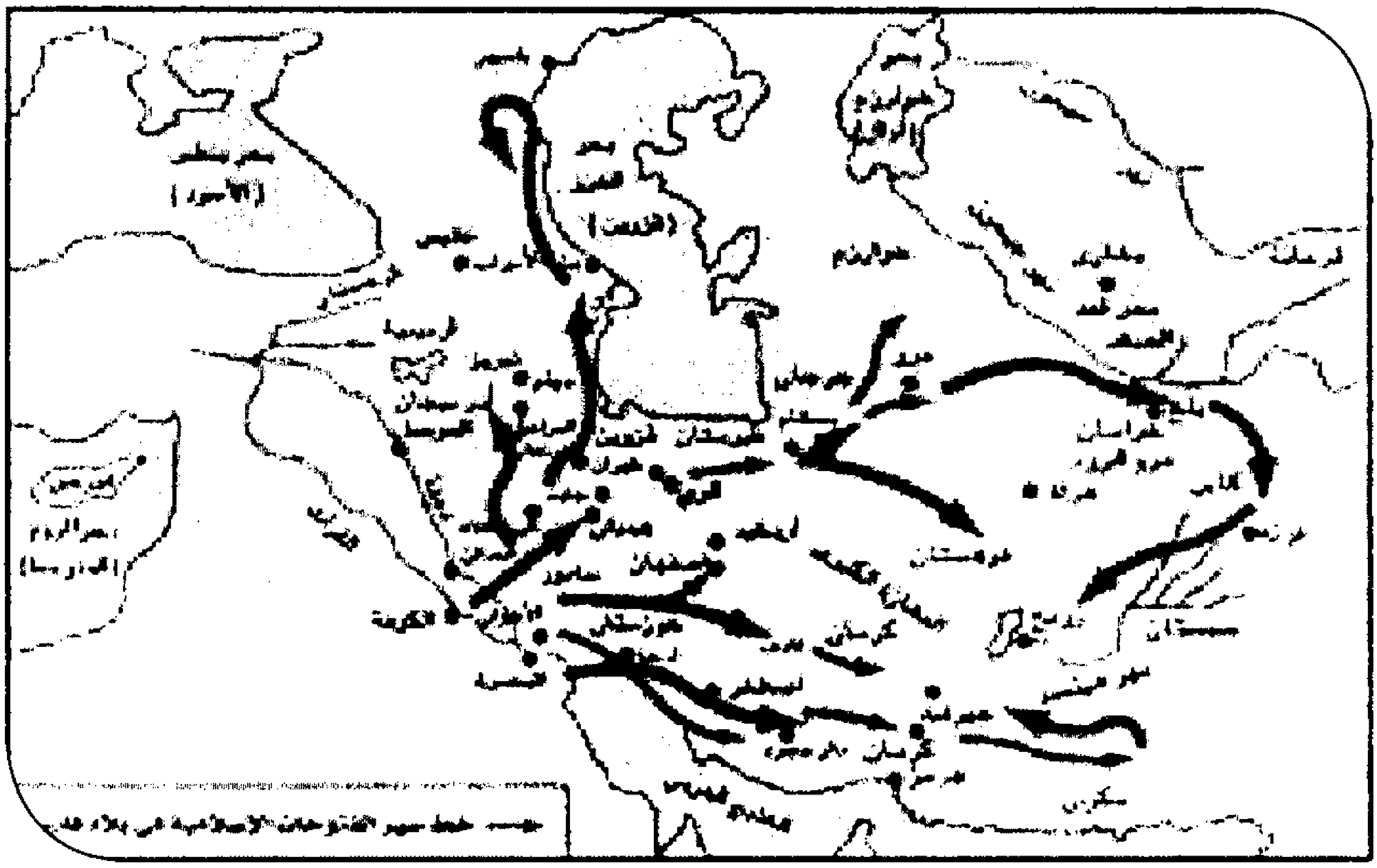
ظهرت الدولة السلجوقية من الشرق، ثم تقدمت بسرعة كبيرة تجاه الغرب فأزالت الدول التي في طريقها، بما فيها البويهيين، وسيطر السلاجقة على الخلافة العباسية ذاتها، وانطلقوا غربًا وشمالًا، واقتحموا بلاد الروم، وأنزلوا بهم إحدى الهزائم التاريخية الساحقة في موقعة ملاذ كرد «463هـ» التي قضت على كل أمل في التوسع داخل الأراضي الإسلامية بل وأعادت في أذهان البيزنطيين ذكر العاصفة الأموية والتهديد الوجودي، وكانت اندفاعة الدولة السلجوقية من القوة بحيث إنها لما انقسمت على نفسها كان قسم منهم عُرف بـ «سلاجقة الروم» قد استولى على نصف آسيا الصغرى. ثم ضعف سلاجقة الروم وتفرقوا حتى كانت أوربا الكاثوليكية تتمخض عن واحد من أهم حوادث التاريخ وأكثرها شهرة: الحروب الصليبية.

أما علاقة المسلمين بالشطر الغربي من أوربا، من جهتيْ الغرب والجنوب، ففي الغرب فقد مثلت جبال البرنييه «وتسمى البرانس» ذات الحد الطبيعي الفاصل الذي مثلته جبال طورسوس بين المسلمين والروم، لكن الجزء الصغير في شمال غرب الجزيرة الإيبرية الذي لم -يفتحه المسلمون أول أمرهم- مثل جبهة الغرب في الصراع الإسلامي الغربي، إذ ظل هذا الجزء يكبر وبالذات في لحظات الضعف والتمزق الأندلسي، حتى تحول إلى مملكة ليون، ثم صار يشمل كل الجزء الشمالي من الجزيرة، ورغم أنه انقسم على نفسه إلى ممالك كثيرة، ورغم أن فترات القوة الإسلامية -وذروتها في القرن الرابع الهجري- أعادت كل هذه الأجزاء إلى

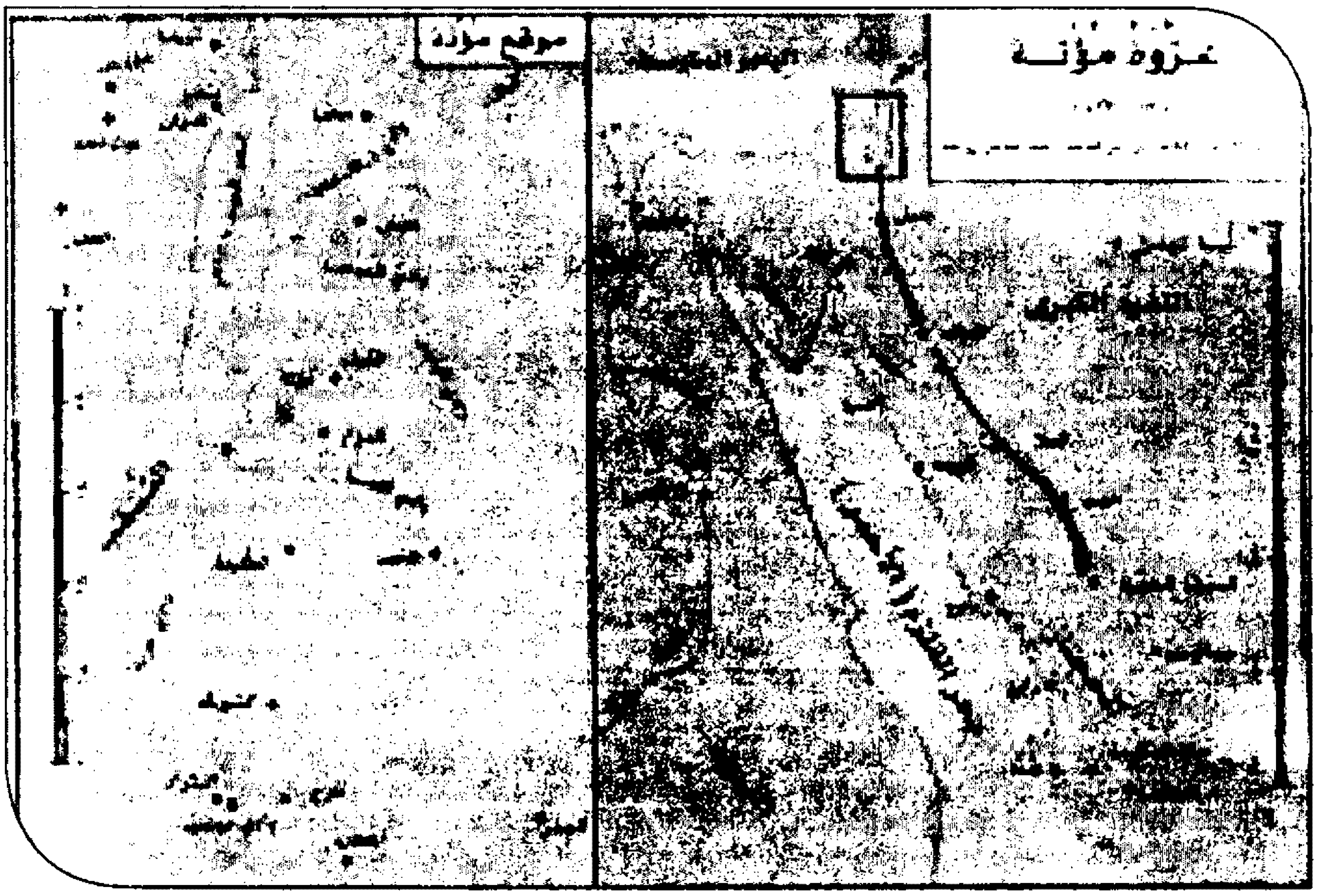
الانكماش الجغرافي والضعف السياسي، إلا أن النظرة العامة لمسيرة التاريخ تشهد بأن هذا الجزء صار يتسع رويدًا رويدًا حتى تحول إلى خطر حقيقي وتهديد وجودي في منتصف القرن الخامس الهجري، وقد كانت الأندلس حينئذ في عصر ملوك الطوائف، واستطاعوا إسقاط أول عاصمة كبرى للمسلمين «طليطلة 478هـ»، لولا أن جاء المدد من المرابطين بالمغرب فأوقف هذا التقدم الإسباني لقرن على الأقل.

وأما في الجنوب فقد تضافرت عدة عوامل على دخول المسلمين على خط الصراع بين والي صقلية والإمبراطور الروماني، التجأ على إثرها قائد الأسطول الصقلي إلى الأغالبة «الذين كانوا يحكمون إفريقية -تونس- آنذاك»، وآل هذا إلى أن يفتح المسلمون صقلية «212هـ»، واستمر حكمهم لها أكثر من قرنين من الزمان «حتى 484هـ»، وشهدوا في بعض الأوقات تفوقا وقوة هددوا بها أملاك البابوية في إيطاليا حتى لقد كانت لهم حملة على روما ذاتها «232هـ»، إلا أن توسعهم في الأراضي الإيطالية لم يكن مستقرًّا، ثم جاءت عاصفة النورمان التي دخلت أول الأمر على خط الصراع الأوربي الداخلي ثم تكونت لهم مملكة استولت -ضمن ما استولت- على صقلية، وأنهت الحكم الإسلاميَّ فيها.

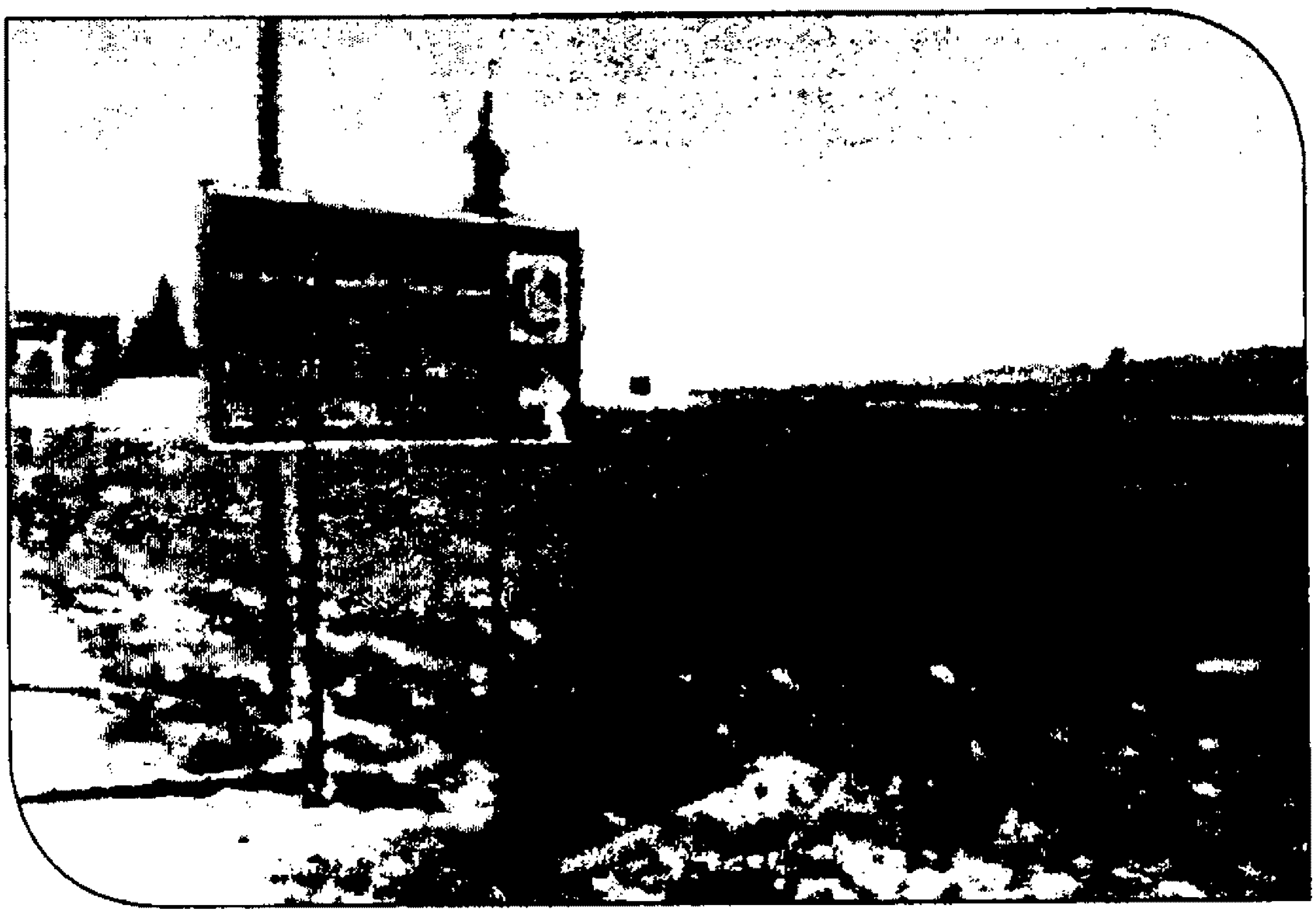
* * *



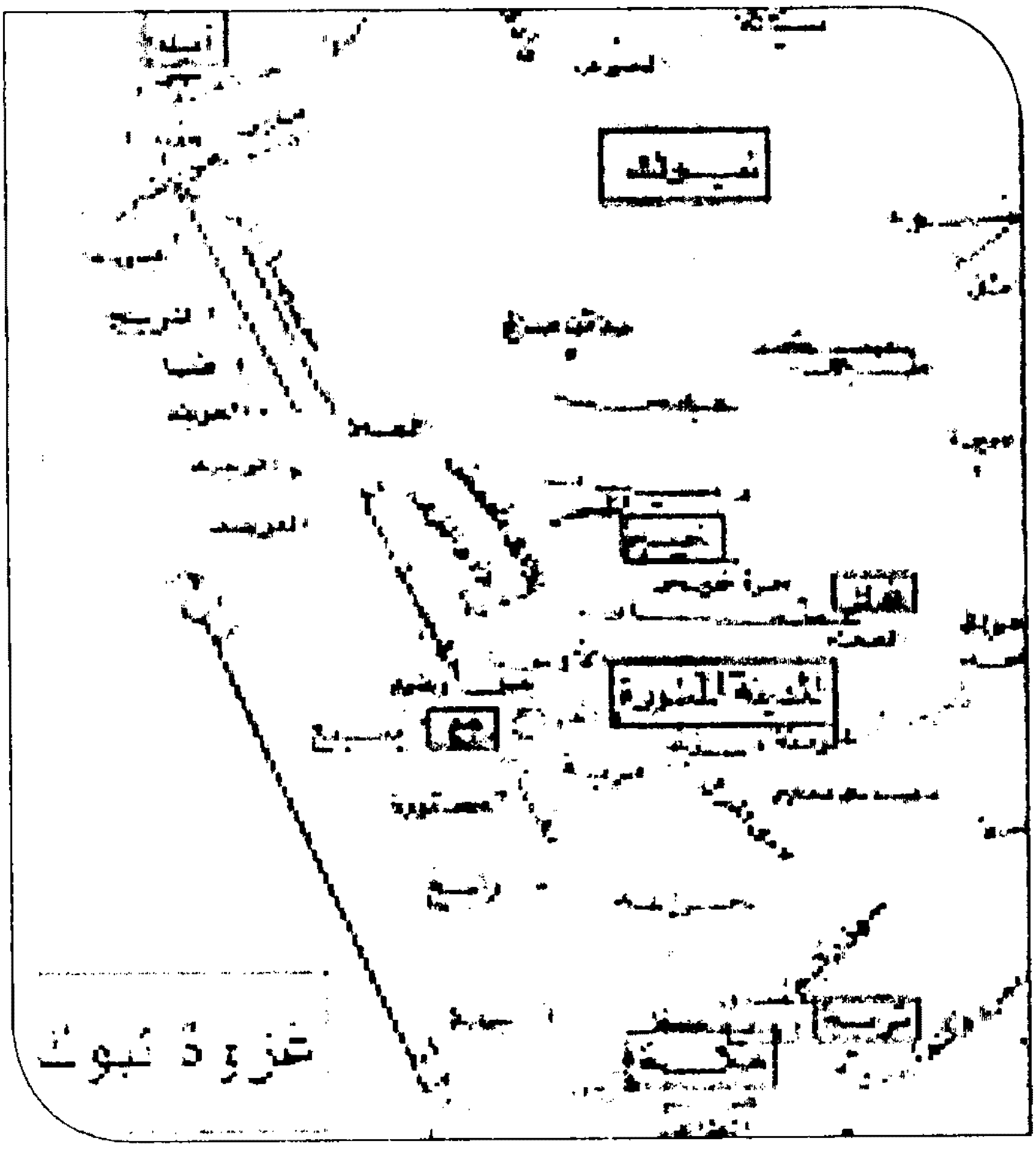
خط سير الفتوحات الإسلامية في بلاد فارس.



غزوة مؤتة.



أرض مؤتة التي جرت عليها موقعة مؤتة (بالأردن حاليًا).

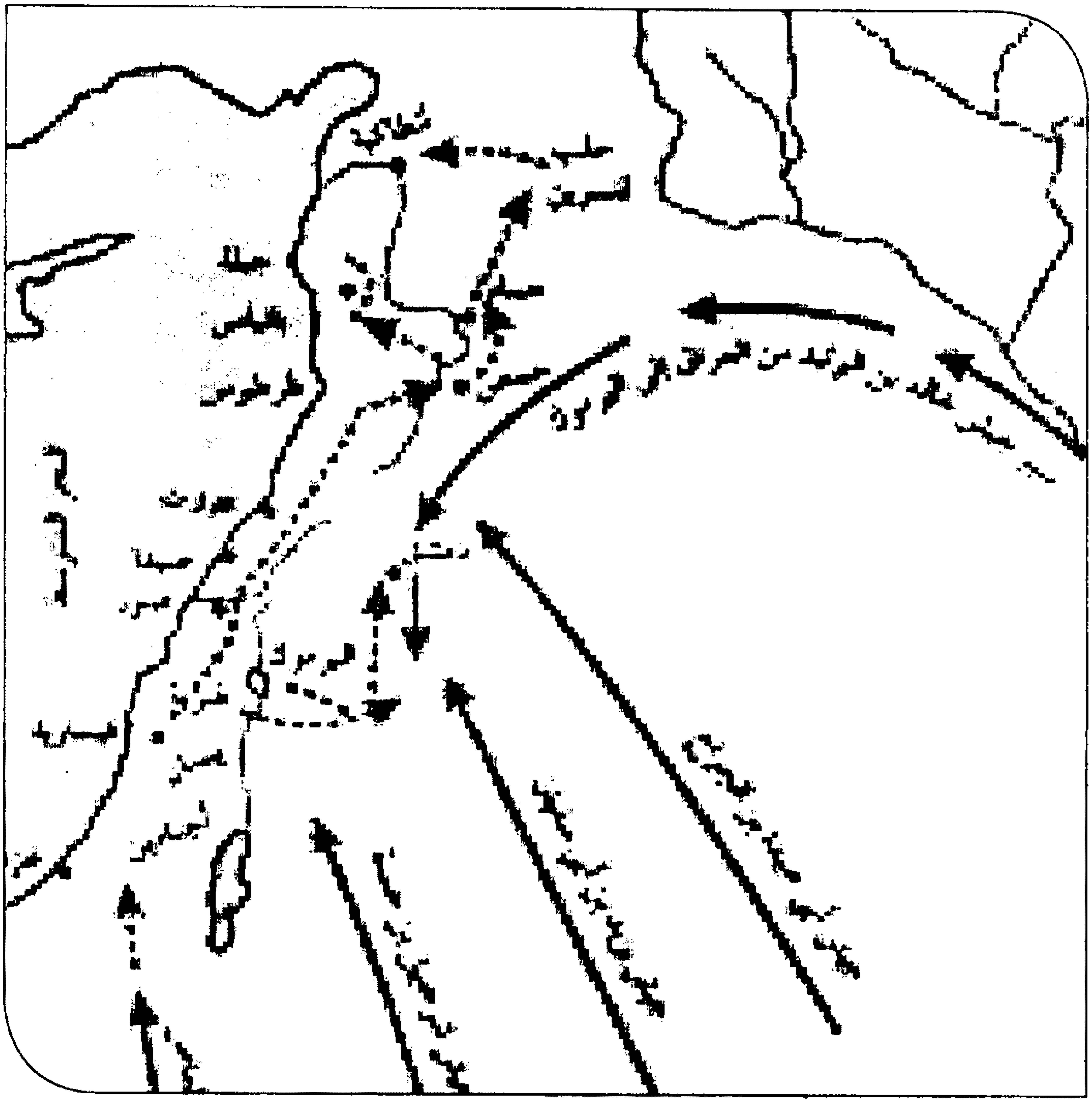


غزوة تابوك.

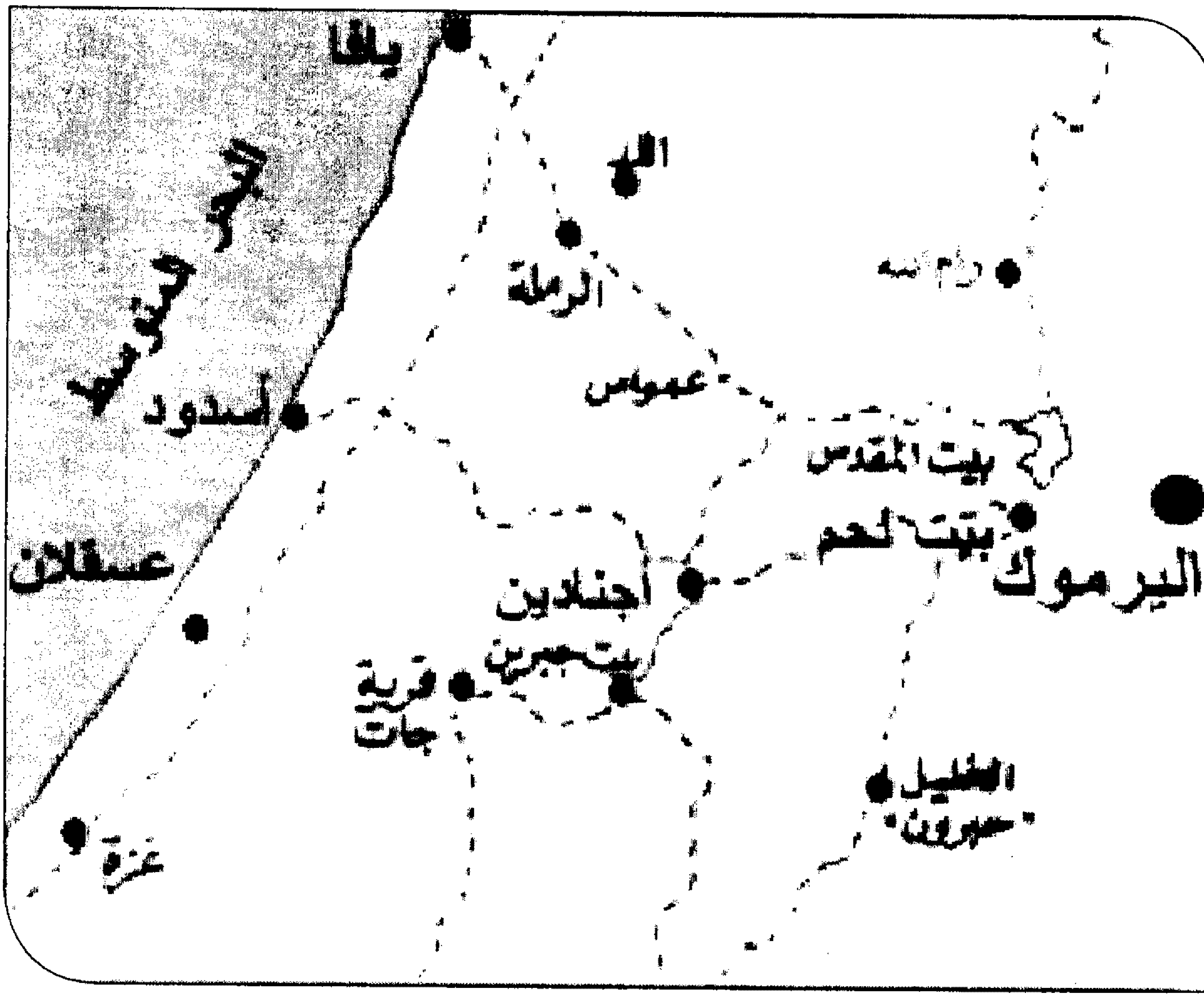




الأرض التي شهدت معركة اليرموك.



الجيوش الإسلامية في بلاد الشام.



معركة اليرموك (15هـ/ 636م) هي معركة بين العرب المسلمين والإمبراطورية البيزنطية ويعتبرها بعض المؤرخين من أهم المعارك في تاريخ العالم.

6 أصول الروس وأجناسهم وتأسيس دولتهم

- أصول الشعب الروسي.
- أعراق وأجناس الروس: الفايكينج والصقالبة والآريون.
- رحلة أحمد بن فضلان لبلاد الصلاقية عام 1921م.
- تأسيس الدولة الآسيوية.
- مراحل تأسيس الدولة الروسية والغزو المغولي.

أصول الشعب الروسي عِرقيًّا وتاريخيًّا

كان الإقليم الواسع الذي أصبح فيما بعد روسيا مسكونًا من قبل شعوب قبلية عرفت لاحقًا مجتمعة بالسلاف (Slavs) والتي منها ينحدر الروس، تلك الشعوب إليها امتداد تلك السهول فهاجرت إليها في فترة عام 300م إلى عام 900م، أثناء تلك الهجرات حصلت نزاعات وغزوات متعاقبة أدت إلى تأسيس المستوطنات التي استوعبت الشعوبَ المختلفة اللغات.

قبل الميلاد أنشأ اليونان منذ القرن السابع على سواحل شواطئ البحر الأسود الغربي والشمالي نحو عشرين بلدة-ألبيا Albia، وتانيس Tanais، وثيودوسيا Theodosja، وبنتيكبيوم Panticapium «كرتش Kerche». واقتتلوا مع السكوذيين الضاربين وراء هذه البلاد أو ناصروهم. وأكبر الظن أنهم من أصل بلاد فارس، بل إنهم قد خرج من بينهم فيلسوف -أناخارسيس «Anacharsis» 600ق. م- وقدم إلى أثينا وتناقش مع صولون الفيلسوف اليوناني المشهور.

ثم أقبلت في القرن الثاني قبل الميلاد قبيلة إيرانية أخرى هي قبيلة «السرماتيين»، وهزمت «السكوذيين» وسكنت ديارهم؛ واضمحلت المستعمرات اليونانية في هذا الاضطراب.

ودخل البلاط القوط من الغرب في القرن الثاني بعد الميلاد، وأنشأوا مملكة القوط الشرقيين، ثم قضى الهُون على هذه المملكة حوالي عام 375، ولم تكد سهول روسيا الجنوبية تشهد بعد هذا الغزو أية حضارة، بل شهدت هجرات متتابعة من أقوام بدو-

هم البلغار، والآفار، والصقالبة، والخزر، والمجر، والبتزيناك Patzinaks، والكومان Cumans، والمغول.

وكان الخزر من أصل تركي زحفوا في القرن السابع مخترقين جبال القفقاس إلى جنوبي روسيا، وأنشأوا ملكًا منظمًا امتد من نهر الدنبير إلى بحر قزوين «بحر الخزر»، وشيدوا عاصمة لهم في مدينة إتيل itil على مصب نهر الفلجا Volga بالقرب من أستراخان الحاضرة، واعتنق ملكهم هو والطبقات العليا منهم الدين اليهودي وكانت تحيط بهم الدولتان المسيحية والإسلامية، ولكنهم فضلوا اعتناق اليهودية وعرفوا بيهود الخزر.

استقرت قبائل من السلاف الشرقيين في وقت مبكر في غرب روسيا على دفعتين: واحدة تحركت من «كييف» نحو سوزدال وموروم، والأخرى من «بولوتسك» نحو «نوفجورود» و«روستوف».

بدءًا من القرن السابع، شكل السلاف الشرقيون الجزء الأكبر من السكان في غرب روسيا، وببطء تم استيعابهم من قِبَل القبائل الفنلندية الأوغرية الأصلية.

في أوائل قرون العصر المسيحي، أزاح القوط الجرمانيون Germanic Goths الشعوب الآسيوية لسيثيا Scythia وأسَّسوا مملكة القوط الشرقية Ostrogothic على البحر الأسود.

وفي القرن الرابع غزا الهون Huns وهم من قبائل التُّرم من آسيا واحتلوا مملكة القوط الشرقية.

ضمَّ الهون Huns إليهم الإقليم الذي يشكّل أوكرانيا الحالية ومعظم مولدوفيا الحالية حتى هزيمتهم في أوروبا الغربية في منتصف القرن الخامس. جاء بعد ذلك المغول التتار، ثم تبعهم مجريو آسيا البدو - من وسط نهر الفولجا-.

وبعد ذلك في القرن السابع جاء الترك الخزر Khazars Turkic – من منطقة القوقاز–، الذين بقوا حتى حوالي منتصف القرن العاشر.[1]

في هذه الأثناء، وبعد فترة الغزوات المتعاقبة، بدأت القبائل السلافية سلسلة من الهجرات في المنطقة الشمالية الشرقية من منطقة جبال كارباثية Carpathian.

من هذه الهجرات توزع السلاف على عدة مناطق حيث القبائل في المنطقة الغربية كونوا: المورافيون Moravians، والبولنديون، والتشيكيون، والسلوفاكيون؛ والقبائل الجنوبية مثل الصرب، والكرواتيون، والسلوفينيون.

أما القبائل الشرقية فهم الذين كونوا الروس، والأوكرانيون، والبيلاروس.

السلاف الشرقيون أصبحوا تجارًا مشهورين ساعدهم في ذلك نظام الأنهار والممرات المائية التي تمتد عبر المنطقة من تلال فولدي Valday وسهلت تأسيس المحطات التجارية للسلاف التي هي بشكل خاص مدن «كييف» Kyiv، التي هي في يومنا الحاضر عاصمة أوكرانيا، ونوفجورود Novgorod التي تقع مباشرة شمال «كييف» Kyiv. عبر هذه الممرات المائية تنقل السلاف جيدًا بين بحر البلطيق والبحر الأسود.

والسؤال الذي يتبادر إلى أذهان الكثير منَّا:

هل الدولة الروسية تنتمي حضاريا إلى الحضارة الأوربية الغربية أم إلى الحضارة الآسيوية الشرقية؟ فمن العجب أن الدولة الروسية تقع حدودها جغرافيًّا في قارة آسيا وقارة أوربا.

1- اقرأ كتابنا: القبيلة الثالثة عشرة تحكم إسرائيل والعالم –الناشر: دار الكتاب العربي – دمشق/ القاهرة، والكتاب يتحدث عن قبيلة الخزر التي اعتنقت الديانة اليهودية والتي كونت دولة الخزر التي انتهت في القرن العاشر الميلادي على يد الروس الجدد «الفايكينج الاسكندنافيين» الذين ضموا أراضيهم إلى دولتهم وتشتت اليهود الخزر في أوربا الشرقية وروسيا ثم هاجروا إلى فلسطين ليأسسوا دولة إسرائيل الحالية وعرفوا باليهود الإشكناز.

في العهود القيصرية تبنت الجهات الرسمية الروسية النظرية «النورماندية» معتمدة في ذلك على مخطوطة «رواية الأعوام السالفة» التي كتبها القس نيستور في نهاية القرن الثاني عشر وأكد فيها على أن الروس هم مجموعة من قبائل«الفارياغ» النورماندية الجرمانية الشمالية التي سيطرت بقيادة زعيمها، «ريوريك» في بداية القرن العاشر الميلادي على القبائل السلافية«الصقالبة» المتناحرة المستوطنة في حوض نهر الدنيبر وأن«الروس الفارياجيين» لعبوا دورًا أساسيًّا في تشكيل دولة «كييف الروسية» القديمة وشكلوا فيها لاحقًا النخبة الحاكمة العليا ممثلة في سلالة «ريوريك» التي حكمت الدولة الروسية حتى نهاية القرن الخامس عشر عندما توفى «ديمتري» ابن إيفان الرابع «الرهيب» آخر قيصر من هذه السلالة ودخلت الدولة الروسية على إثر ذلك في مرحلة الفتنة «سموتا». وفي عام 1613 انتقل زمام السلطة في الدولة الروسية إلى عائلة، رومانوف» القيصرية.

في منتصف القرن الثامن عشر وعلى إثر تشكل الإمبراطورية الروسية تأسست النظرية «السلافية» على أيدي العالم الروسي الموسوعي لومونوسوف الذي رفض النظرية «النورماندية» وأكد على الأصول التاريخية السلافية للدولة الروسية معبرًا بذلك عن بداية بزوغ الشعور القومي السلافي وطموح الدولة الروسية لتزعم الشعوب السلافية الأرثوذكسية في مواجهة الدول الأوربية الغربية والإمبراطورية العثمانية، وقد ازدهرت النظرية «السلافية» القومية، في النصف الثاني، للقرن التاسع عشر وأصبحت سائدة في أوساط المثقفين والسياسيين الروس وحظيت بتأييد قوي من الكنيسة الروسية الأرثوذكسية.

وفي العهد السوفييتي تبنى الشيوعيون النظرية «السكيفية» ومفادها أن الروس والسلاف ينتمون إلى القبائل السكيفية والسارماتية ذات الأصول الإيرانية التي كانت تقطن في جنوب أوكرانيا على السواحل المطلة على البحر الأسود في الألف الأولى

قبل الميلاد والتي ذكرها هيرودوت في كتاباته التاريخية. وبذلك أراد الشيوعيون السوفييت أن يربطوا الروس بالشعوب المحلية القديمة ورفضوا بشدة مقولة «الروس الفارياجيين» الوافدين إلى منطقة حوض نهر الدنيبر. ويعتبر الأكاديمي السوفييتي ريباكوف أبرز ممثلي النظرية «السكيفية».

ثم مؤخرًا في مرحلة البيروسترويكا وبعد إطلاق قليل من الحريات الفكرية والسياسية ظهرت آلاف الدراسات تتبنى وجهتي النظر الأساسيتين: «النورماندية»، التي تبناها ممثلو التيار الليبرالي التغريبي، و«السكيفية»، إذ يدافع عنها ممثلو التيارات القومية والشيوعية. (1)

تعود البدايات لنشأة الدولة الروسية وتتميز إلى ظهور مدينة «كييف» الروسية القديمة في القرن العاشر الميلادي بوضعية جغرافية فريدة من نوعها، فهي شبه مغطاة بالغابات ومليئة بالبحيرات والمستنقعات والأنهار الصغيرة والمتوسطة وفيها تجري ثلاثة أنهار كبرى: الفولجا والدنيبر ودفينا الغربي المتصلة مع بعضها البعض من خلال المنبع من ناحية وتصب في بحارمختلفة.

فهذه الأنهار الثلاثة تنبع من منطقة واحدة وهي منطقة الفالداي الواقعة في مقاطعة نوفجراد الروسية، التي تقع شمال غرب موسكو على بعد أربعمائة كيلو متر.

وفي هذه المنطقة يقع منبع نهر الفولجا الذي ينحدر نحو الشرق ومن ثم ينعطف نحو الجنوب ليصب في بحر قزوين. ومنها ينبع نهر الدنيبر الذي ينحدر نحو الجنوب ويصب في البحر الأسود. وفيها أيضًا يقع منبع نهر دفينا الغربي الذي يتجه نحو الغرب ويصب في بحر البلطيق.

1- تاريخ روسيا، إصدار معهد تاريخ روسيا التابع لأكاديمية العلوم الروسية تحت إشراف الأكاديمي ساخروف، موسكو 2000 بالروسية ج1.

والجدير بالذكر أن البحار الثلاثة: البلطيق والأسود وقزوين مرتبطة بعضها ببعض منذ أقدم العصور من خلال الملاحة النهرية في أحواض الأنهار الثلاثة: الفولجا والدنيبر ودفينا الغربي. وهذا الواقع الجغرافي يجب أخذه بعين الاعتبار عند دراسة مسألة أصول الروس وعلاقاتهم مع شعوب وقبائل المنطقة في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين.

من خلال حروب العرب مع الفرس والروم الشرقيين وانتصارهم عليهم فقد كسب العرب خبرة من ذلك حين قامت الدولة الروسية في مدينة «كييف» القديمة.

توسعت حدود الخلافة العربية الإسلامية في فترة زمنية قصيرة في العصر الأموي ثم العباسي وشملت مساحات من قارات آسيا وأفريقيا وأوربا امتدت من إسبانيا في الغرب إلى أواسط آسيا في الشرق ومن ضمنها شعوب ما وراء القفقاس «أرمينيا وجيورجيا» حيث انضوت تحت لواء الخلافة العربية الإسلامية شعوب تنتمي إلى مختلف الأعراق والأجناس. وهيمنت الدولة العربية الإسلامية على معظم الطرق وخطوط المواصلات التجارية التاريخية ومن ضمنها طريق الحرير العظيم.

ففي كتاب «مروج الذهب» كتب المسعودي المؤلف عن شعوب أوربا الشرقية من خلال تجربته الخاصة بعد أن تواجد شخصيا في منطقة القفقاس وتجول في أرجائها في العقد الرابع من القرن العاشر الميلادي. وكذلك فعل ابن فضلان في رسالته.

وكان المسعودي قد توجه إلى شرق أوربا في عام 314هـ الموافق 932م وأقام فيها عدة سنوات، ومن ثم عاد إلى مصر وكتب فيها عمله، «مروج الذهب ومعادن الجوهر» واطلع المسعودي على أعمال من سبقه من الرحالة والجغرافيين العرب المسلمين الذين زاروا المنطقة وكتبوا عنها قبله ومن ضمنهم ابن فضلان، ولكن المسعودي على عكس ابن فضلان كان رجل علم ذا ثقافة موسوعية ودقيقا في معلوماته التاريخية والجغرافية.

ورغم أن المسعودي خصص لكل شعب من شعوب أوربا الشرقية بندًا خاصًا به، إلا أنه يذكر هذه الشعوب مرة أخرى في سياق الوصف الجغرافي للمنطقة وخلال حديثه عن علاقة هذا الشعب أو ذاك مع الشعوب الأخرى. مثلا خصص المسعودي بندا للروس وآخر للصقالبة في الجزء الأول، ولكنه يتحدث عنهما مرة أخرى في مواضع أخرى عندما يرد الحديث عن الخزر والبلغار واللاراسية وغيرهم، ومرة أخرى يذكرهما عندما يتحدث عن المعتقدات الدينية في الجزء الثاني.

يتحدث المسعودي حول مملكتي طبرستان وجيدان، فقال: «ويبادي أهل باب الأبواب مملكة يقال لها جيدان، وهذه الأمة داخلة في جملة ملوك الخزر، وقد كانت دار مملكتها مدينة على ثمانية أيام من مدينة الباب يقال لها سمندر، وهي اليوم يسكنها خلق من الخزر، وذلك أنها افتتحت في بدء الزمان، افتتحها سليمان بن ربيعة الباهلي، فانتقل الملك عنها إلى مدينة آمل، وبينها وبين الأولى سبعة أيام، وأمل التي يسكنها ملك الخزر في هذا الوقت ثلاث قطع يقسمها نهر عظيم يرد من أعالي بلاد الترك ويتشعب منه شعبة نحو بلاد البرغز وتصب في بحر مايطس، وهذه المدينة جانبان، وفي وسط هذا النهر جزيرة فيها دار الملك، وقصر الملك في وسط هذه الجزيرة، وبها جسر إلى أحد الجانبين من سفن، وفي هذه المدينة خلق من المسلمين والنصارى واليهود والجاهلية، فأما اليهود فالملك وحاشيته والخزر من جنسه..».

وقال أيضًا: «والروس: أمم كثيرة وأنواع شتى، ومنهم من يقال لهم اللوذعانة، وهم الأكثرون، يختلفن بالتجارة إلى بلاد الأندلس ورومية وقسطنطينية والخزر..».

ويقول: «وفي أعالي نهر الخزرمصب متصل بخليج من بحر نيطس، وهو بحر الروس لا يسلكه غيرهم...».

ومن كلامه يتضح أن موطن الروس الأصلي يقع في المنطقة التي تنبع منها الأنهار الثلاثة: الفولجا والدنيبر ودفينا الغربي، أو متاخمة لها، وإذا تمعنا في خارطة منطقة

الفالداي والمناطق المحيطة بها فإننا نشاهد في شمالها الغربي بحيرة لادوجا الكبيرة وعلى سواحلها يوجد العديد من التلال الأثرية وعدة مدن أهمها مدينة لادوغا، وعندما نجري مقارنة مع تسمية المسعودي للروس، اللوذاعنة»، وفق مثال: لاذقية وأهاليها اللواذقة والواحد منهم اللاذقاني، فإننا نلاحظ ما يلي: لادوجا وأهاليها اللوادجة والواحد منهم اللادوجاني.

وعلماء الآثار الروس يجرون حاليًا تنقيبات أثرية واسعة النطاق في مدينة لادوجا وكافة المناطق المحيطة بها، حيث عثروا في مدينة لادوجا القديمة على عدة كنوز من النقود العربية الإسلامية تعود إلى القرون التاسع والعاشر والحادي عشر الميلادية وعثروا على كميات كبيرة من الآثار المتنوعة للغاية والتي تعود إلى حضارات شتى: البيزنطية والإسلامية والخزرية والأندلسية وغيرها، وهذا يؤكد كلام المسعودي حول ممارسة الروس التجارة في البحار والأحواض النهرية، حيث يقول: «... يختلفون بالتجارة إلى بلاد الأندلس ورومية وقسطنطينية والخزر...».

ولأهمية مدينة لادوجا في تاريخ الروس وأصولهم فقد قام الرئيس فلاديمير بوتين بزيارة إلى مدينة لادوجا والمناطق المحيطة بها للاطلاع على نتائج التنقيبات الأثرية الجارية فيها على قدم وساق، والتي تؤكد أيضًا على أن هذه المنطقة كانت مستوطنة منذ أقدم العصور القبائل الفيلندية والأجورية، كما هاجرت القبائل السلافية «الصقالبة» إلى هذه المنطقة في بدايات القرن السادس الميلادي واستوطنت فيها.

وقد شملت هجرة القبائل السلافية الوافدة من أوربا الوسطى كافة مناطق شرق أوربا وكان لها حضور متميز في الخاقانية الخزرية، وهو ما تشير إليه المصادر العربية والبيزنطية.

والمسعودي وغيره من الجغرافيين العرب كانوا يذكرون الروس والصقالبة «السلاف» بشكل منفصل، مما يؤكد أنهما كانا في تلك المرحلة شعبين مستقلين،

إلا أنه بنفس الوقت كان يورد ذكرهما إلى جانب بعضهما البعض، وسبب ذلك يعود إلى عملية اندماج الروس مع الصقالبة في منطقة لادوجا والتي بدأت في بداية القرن التاسع الميلادي واستمرت هذه العملية في القرن العاشر في كافة المدن الواقعة في حوض نهر الدنيبر أدت لتشكيل عدة كيانات سياسية روسية - سلافية في هذه المنطقة أبرزها: لادوجا ونوفجراد وكييف والتي توحدت فيما بعد بزعامة مدينة «كييف» تحت قيادة سلالة ريوريك الروسية التي شكلت دولة قوية خاضت عدة حروب ناجحة ضد الإمبراطورية البيزنطية وقامت في عهد الأمير سفيتوسلاف بتهديم الخاقانية الخزرية اليهودية في عام 967م وبنتيجة ذلك زالت نهائيا عن خارطة أوربا الشرقية.

ومن هذا يتضح أن الروس هم مجموعة من القبائل استوطنت على مدى عدة قرون في منطقة لادوجا واختلطت مع الشعوب المحلية: الصقالبة «السلاف» والفيلنديين والأجوريين.

وحتى بداية القرن العاشر الميلادي كانت لادوجا عاصمتهم ومسقط رأسهم.

وكان الروس يشكلون النخبة الحاكمة في مدينة لادوجا ولاحقًا في نوفجراد وكييف وغيرها من المدن الواقعة في حوض نهر الدنيبر. وقد تميز الروس بإتقانهم ومهارتهم في التجارة النهرية والبحرية واشتهروا بقدراتهم العسكرية الفائقة وبسالتهم في المعارك وتشير إلى ذلك كافة المصادر التاريخية البيزنطية والعربية، التي تشير أيضًا إلى أن الروس أسسوا على مدى عدة قرون عدة مستوطنات ومستعمرات كمحطات تجارية في أحواض الأنهار الثلاثة الكبرى: الدنيبر ودفينا الغربي والفولجا، وعلى سواحل وجزر البحر الأسود، وقد صادفهم المسعودي في المدن المطلة على بحر قزوين وفي مدينة اتيل عاصمة الخاقانية الخزرية وصادفهم ابن فضلان في إمارة بلغار في حوض نهر الفولجا. [1]

1- انظر: مروج الذهب ومعادن الجوهر، وياقوت الحموي، في معجم البلدان.

وبالتالي تنتمي روسيا إلى الحضارة في بدايتها إلى حضارة آسيوية ثم في عهد الإمبراطور بطرس الكبير توجهت إلى أحضان الحضارة الأوربية فأصبحت حضارتها أورآسيوية.

فلو اقتصرت مساحة دولة الروس المندمجين مع السلاف «الصقالبة» على المناطق الغربية - الشمالية، والتي تضم مناطق لادوجا ونوفجراد والفالداي بالإضافة إلى حوضيْ نهري دفينا الغربي والدنيبر كما كان الأمر حتى منتصف القرن الثالث عشر، فإنها كانت ستنتمي حتمًا إلى الحضارة الأوربية بالمعنى الواسع «عرقيا وثقافيا ودينيا».

وبعد وقوع الإمارات الروسية للسيطرة التتارية منذ منتصف القرن الثالث عشر ودخولهم في عداد دولة «القبيلة الذهبية» على امتداد أكثر من قرنين وتشكل دولة موسكو الروسية المركزية الموحدة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر وقيامها في منتصف القرن السادس عشر على يد إيفان الرهيب بضم الإمارات التتارية الواقعة في حوض الفولجا ومناطق الأورال وسيبيريا إلى الدولة الروسية واستمرار توسعها لاحقا في الفضاء الآسيوي، حدثت تغييرات انثروبولوجية جوهرية في تركيب الشعب الروسي، فعلى امتداد حوالي الثمانية القرون، جرت عملية اندماج عدة عروق وأجناس أوربية وآسيوية، حيث اندماج الروس مع السلاف والفيلنديين والأجوريين والبجناك والقفجاق والتتار وشعوب سيبيريا وآسيا الوسطى فتلك أعراق الروس.

وقد تبلورت هذه العملية بشكل خاص في مرحلة تشكل الإمبراطورية الروسية بدءًا من عهد بطرس الأول في بداية القرن الثامن عشر وانتهاءً بالحقبة السوفييتية في نهاية القرن العشرين، والآن من يدق بيده على صدره مفتخرا بإنتمائه للقومية الروسية تجري في عروقه دماء مختلفة ومتنوعة للغاية، ونستطيع أن نجزم بأنه تشكل في خلال

الفترة المذكورة شعب روسي له حضارته الخاصة به يستند على تاريخ مشترك ولغة وثقافة وعادات مشتركة وواقع جيوبوليتيكي أوروأسيوي مشترك.

هذه العملية التي تشكلت تاريخيًّا لا تنفي بالطبع وجود بعض النزعات الانفصالية المحدودة لدى بعض الأقليات القومية والتي برزت في مرحلة التسعينيات من القرن العشرين، ولكنها تبقى ضمن إطار محدود للغاية ولا تؤثر على وحدة أراضي الدولة الروسية والشعب الروسي الذي يحمل الموروث التاريخي للإمبراطورية الروسية في العهدين القيصري والسوفييتي والموروث الثقافي للديانتين الأرثوذكسية والإسلامية اللتين ترفضان الانصياع لإرادة الغرب الكاثوليكي.

* * *

أهم أعراق وأجناس الروس

1- الفايكينج الاسكندنافيون «الروس» مؤسسو روسيا:

في القرن التاسع الميلادي غزا الفايكينج الإسكندنافيون عددًا من المناطق في شمال أوربا من روسيا شرقًا حتى أيرلندة غربًا واستقروا فيها.

الاسكندنافيون الشرقيون أطلق عليهم الفرانجيون Varangians أو الروس Rus، التي جاءت منها تسمية روسيا Russia أو Russiya التي تعني أرض الروس «land of the Rus»...

يشتق اسم روسيا من «روس»، وهي دولة القرون الوسطى التي كان معظم سكانها من السلاف الشرقيين.

لكن أصبح هذا الاسم أكثر بروزًا في التاريخ اللاحق، ومن أجل عدم الخلط بين هذه الدولة أو غيرها، قام المؤرخون المعاصرون بجعل اسم دولة روس، «روس كييف».

أما اسم روس فيشتق بدوره من شعب روس، وهؤلاء جماعة من الإفرنج «ربما الفايكنج» الذين أسَّسوا دولة روس.

كانت الكلمة اللاتينية «روثينيا» المشتقة من الاسم اللاتيني لروسيا، هي الاسم المستخدم لوصف هذه البلاد في العصور الوسطى. أما الاسم الحالي، «روسيا» فيشتق من النسخة اليونانية من اسم دولة روس كييف.

تاريخ روسيا بدأ منذ أن ظهر السلاف الشرقيون كمجموعة معترف بها في أوربا بين القرنين الثالث والثامن الميلاديّين. في القرن التاسع للميلاد تأسّست إمارة «كييف» روس على يد المحاربين الإفرنج، واعتنقت المسيحية الأرثوذكسية دينًا لها في عام 988م بسبب تأثير الإمبراطورية البيزنطية.

وكانت تلك بداية تمازج الثقافتين السلافية والبيزنطية اللتين شكلتا معًا ملامح الثقافة الروسية.

ثم تفتتت «كييف» في آخر الأمر إلى عدد من الدُّويلات الصّغيرة، وسقطت معظم الأراضي الروسية في أيدي الغزو المغولي عام 1223م، وأصبحت تابعة للقبيلة الذهبية المغولية.

ثم بدأت دوقية موسكو توحّد تدريجيًّا الإمارات المجاورة لها ونجحت في الاستقلال عن حكم القبيلة الذهبية، وتمكنت من وراثة إرث «كييف» روس السياسيّ والثقافيّ، وبحلول القرن الثامن عشر توسعت البلاد كثيرًا عبر شن الغزوات والحروب والاستكشاف لتولد بذلك الإمبراطورية الروسية، التي استحالت ثالث أضخم إمبراطورية في التاريخ بنفوذها الممتدّ من بولندا في أوربا إلى ألاسكا في أمريكا الشمالية.

عثر في روسيا على إحدى مجموعات العظام البشرية الأولى تعود إلى 35000 سنة، في كوستينك على ضفاف نهر الدون. كانت السهوب الشاسعة في جنوب روسيا موطنًا لقبائل الرعاة الرحل في عصور ما قبل التاريخ.

كانت سهوب بونتيك تعرف في العصور الكلاسيكية القديمة باسم «سيثيا»، وفي تلك السهوب عثر على بقايا حضارات قديمة في أماكن مثل إيباتوفو، سينتاشتا، اكرايم، وبازيريك في الجزء الأخير من القرن الثامن قبل الميلاد، جلب التجار اليونانيين الحضارة الكلاسيكية إلى مركز التجارة في تانايس وباناجوريا. وصف هيرودوت الجيلينوس بأنها أرض ضخمة «أكبر من أوربا».

والسؤال الذي يفرض نفسه عن الفايكنج ومن هم ومن أين أتوا ولماذا تركوا بلادهم؟

الفايكنج قوم اشتهروا بركوب البحر والقرصنة، وكلمة الفايكنج تعني القرصان في اللغة الإسكندنافية، أي أنهم قراصنة البحر، وقد ظهروا وسيطروا على شمالي أوربا في القرون الوسطى، كما أنهم جالوا في المحيط الأطلسي، ووصلوا إلى أمريكا قبل أن يصلها كريستوفر كولمبوس، وعاشوا بالتحديد في بلاد إسكنديناڤيا «السويد، النرويج، الدنمارك» ومن هناك غزوا أجزاءً من إنجلترا وفرنسا، وألمانيا، وأيرلندا، وإيطاليا، وروسيا، وأسبانيا. ووصلت سفنهم حتى جزيرتي جرينلاند وآيسلندا.

وكان سبب خروجهم من إسكنديناڤيا الزيادة المطردة في السكان التي شهدتها تلك البلاد، والتي قلَّت على أثرها الأراضي الزراعية، وساعدهم على التجوال في البحار التطور الذي طرأ على صناعة السفن هناك.

ينحدر الفايكنج من قوم جرمانيين عاشوا في شمال غربي أوربا، ثم تحولوا إلى بلاد إسكنديناڤيا في نحو عام 2000ق.م حيث بقوا في مجموعات صغيرة لكل مجموعة ملك أو سيد يحكمها.

وانقسم مجتمعهم إلى ثلاث طبقات: الطبقة الأولى طبقة النبلاء وهم الملوك والأسياد والأثرياء، والطبقة الثانية الأحرار وهم الزراع والتجار وموظفو الدولة، والطبقة الثالثة والأخيرة هي طبقة العبيد، وهم إما أرقاء بالميلاد، أو أسرى حرب.

عمل معظم الفايكنج بالزراعة وتربية الماشية، كما عمل بعضهم بصيد السمك أو ببناء السفن، وبعضهم الآخر بالتجارة، وهؤلاء هم الذين جابوا البحار طلبًا للتجارة.

الرجل هو السيد في العائلة التي تمتعت فيها المرأة بحقوق كثيرة، منها حق الطلاق.

وقد اعتاد أثرياء الفايكنج الزواج بأكثر من واحدة، حيث توالدوا وتكاثرت

أعدادهم الأمر الذي أدى إلى زيادة ملحوظة في السكان نتج عنها خروج الفايكنج من بلاد إسكندينافيا إلى العالم الخارجي.

كان الفايكنج من أمهر بناة السفن، إذ إنهم حسنوا من بنائها، وشكلها، وبنوا السفن التجارية والبحرية، وطوّعوها لتكون صالحة للإبحار في البحار والأنهار معتمدين في ذلك على الأشرعة والرياح. ولسفنهم شكلها المميز، فهي ذات مقدمة مقوَّسة، كما أنهم عرفوا طرقًا خاصة بهم لمعرفة الاتجاه في البحر، فمثلًا استعانوا بالغربان لمعرفة اتجاه اليابسة.

كان الفايكنج غلاظًا قُساة في حروبهم، أثاروا الرعب في أوربا، فكانوا يحرقون كل مالم يأخذوه، أو ينهبوه، وكانوا في حروبهم شديدي الحرص على الاستيلاء على الخيول، ثم الماشية، وكذلك الأشياء الثمينة المصنوعة من الذهب والفضة، وهي غالبًا ما توجد في الكنائس والأديرة، وهذا يفسر لنا غزوهم المستمر لتلك الكنائس والأديرة في أيرلندا وأسكتلندا وفي غيرهما من البلاد، وقد اتصفت حروبهم وغزواتهم تلك بالسرعة وعنصر المفاجأة تساعدهم في ذلك خفة سفنهم وسرعتها.

وقد تعرضت شواطئ إنجلترا الشرقية، وأيْرلندا وأسكتلندا لغزوات الفايكنج النرويجيين خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، كما أنهم غزوا ونهبوا أجزاء من فرنسا وإيطاليا وأسبانيا، ووصلوا حتى آيسلندا وجرينلاند، بل إنهم وصلوا حتى أمريكا حيث استقروا لفترة من الزمن على شاطئها الشرقي، كما دلت على ذلك آثارهم الباقية هناك. أما الفايكنج الدنماركيون فقد ركزوا هجومهم على بلجيكا وفرنسا، والأراضي المنخفضة «هولندا»، وإنجلترا. واستقروا في شرقي إنجلترا حتى اضطرهم الملك الإنجليزي ألفرد الأكبر للانسحاب من هناك. [1]

أدى وجود الفايكنج في ثلاثة مواقع في إسكندينافيا إلى ظهور ثلاثة شعوب هناك،

1- المصدر: http://knowledgeoworld.blogspot.com.eg/2012/12/blogpost_9..html

هم الدنماركيون، والنرويجيون، والسويديون، كما أن هجماتهم المستمرة على إنجلترا أدت إلى توحيدها.

ما بين القرنين الثالث والسادس الميلاديين، تعرضت مملكة بوسبوران، وهي تنظيم سياسي هلنستي خلف المستعمرات اليونانية، إلى موجات متعاقبة من غزوات القبائل البدوية، التي غالبا ما كانت تنتقل إلى أوربا، كما هو الحال مع الهون وآفار أوراسيا.

في الفترة التي سبقت سنة 1200ق.م كان يسكن شعب السيميريين، وهم من شعوب البلقان في شمال البحر الأسود وهي منطقة جنوب أوكرانيا الآن.

وقد هزمهم في نحو سنة 700 ق.م السيثيون، وهم جماعات تنحدر من أصل إيراني يسكنون أواسط آسيا. وظل السيثيون يسيطرون على تلك المنطقة حتى نحو سنة 200ق.م. وفي ذلك التاريخ تغلب عليهم السرماتيون، وهم جماعة إيرانية أخرى. وعاش كل من السيثيين والسرماتيين مع المستعمرات الإغريقية التي كانت تنتشر في ساحل البحر الأسود الشمالي في اتصال وثيق، حتى انتهى الأمر باستيلاء الرومان عليها.

وقد أخذت هذه الجماعات كثيرًا من طرق الحياة الإغريقية والرومانية عن طريق التجارة والتزاوج وغيرها من الصلات. وفي نحو سنة 200م زحفت قبائل القوط الجرمانية من الغرب واستولوا على الإقليم، وظلوا يحكمون البلاد حتى عام 370م عندما هاجمهم الهُون وتغلبوا عليهم.

وكان الهون جماعة آسيوية حربية النزعة. ثم ما لبثت هذه الجماعة أن انهارت بعد موت ملكها أتيْلا الهُوني سنة 453م.

وأعقبت هذه الجماعة قبيلة هونية، تعرف باسم الآفار حكمت تلك المنطقة في أواسط القرن السادس الميلادي، ووصلت جماعة الخزر وهي جماعة آسيوية سيطرت على جنوبي الفولجا وشمالي القوقاز.

حكمت الشعوب التركية والخزر، سهوب حوض الفولجا المنخفض بين بحر قزوين والبحر الأسود حتى القرن الثامن.

كان لقبيلة الخزر ذات الأصل الآسيوي التركي روابط تجارية رئيسية بين بحر البلطيق والدولة العباسية المتحورة في بغداد. وكانوا حلفاء مهمين للإمبراطورية البيزنطية، وشنوا سلسلة من الحروب الناجحة ضد الخلافة الإسلامية.

في القرن الثامن، اعتنق الخزر الديانة اليهودية وأسسوا تجارة مزدهرة مع بقية الجماعات الأخرى.

2- الصقالبة:

الصقالبة: جِيل من الناس كانت مساكنهم إلى الشمال من بلاد البلغار وانتشروا الآن في كثير من شرقي أوربا؛ وهم المُسَمون الآن بالسُّلاف.

وكلمة الصقالبة هي أحد الألقاب التي تمّ إطلاقها قديمًا وتحديدًا في القرون الوسطى، من قبل الجغرافيّين العرب، على شعوب تعود أصولها إلى بلدان عديدة؛ حيث أتت إلى أرض القسطنطينيّة وأيضًا أرض البلغار، وبعضهم قد استقرّ في القسم الشمالي من القارة الأوربيّة، وأيضًا بعضهم استقرَّ في ضفاف الأنهار كما في نهر الفولجا.

وأصل كلمة الصقالبة تعود إلى استعمالها من قبل الإفرنجة «سلاف»، وأتت بحسب لفظها بالصقلبي؛ حيث تعني المجد.

وأيضًا من كلمة «سلوفو» والتي تعني الكلام، وقد كانوا يلفظونها بـ «سكلاف»؛ إلاّ أنَّ العرب قد قاموا بتعريبها لتصبح «صقلب»، ومع الوقت أصبحت هذه التسمية تطلق على الرقيق الأبيض، إذ يذكر بأنّ قديمًا قد حملهم النخّاسون إلى مناطق أوربا الشماليّة؛ حيث كانوا يبيعونهم كنوع من المتاجرة بهم، حيث كانت تجارة رابحة

في ذلك الوقت إلى كلِّ أنحاء العالم، فكانت تطلق تسمية الصقالبة على كلّ السرى وخاصّة الجيش الألماني، أو كما كان يعرف باسم الجيش الجرماني، فيأتي بهم خلال الحملات التي كان يقوم بها في كافّة أرجاء أوربا، فيباع هؤلاء الأسرى إلى الأندلس؛ حيث على الأغلب هم في عمر الأطفال والشباب، فيذكر بأنّ عبد الرّحمن الدّاخل قد اهتم بهم وبتنشئتهم، فتربّوا تربيةً عسكريّة، وجعلهم ضمن نطاق جيشه؛ حيث أصبحوا فيما بعض من خيرة رجالات دولة الأندلس إن كان من الناحية الأدبية أو كمثقّفين بارزين.

ذكر بعض المؤرّخين والنسَّابة عن أصول الصقالبة، إلاّ أنّ الروايات مختلفة من حيث الفروع، ولكنّها تتوافق من حيث الأصل الّذي يعود لـ «يافث بن نوح». لقد ذكر «المسعودي»، هذا المؤرّخ، إلى أنّ أصول الصقالبة تعود إلى ولد مار بن يافث ابن نوح عليه السلام، وأنَّ جميع الصقالبة بمختلف أجناسهم ملتصقون بهذا النسب، أمّا العالِم في علم الأنساب وهو «ابن الكلبي»، فإنّه ينسب أصول الصقالبة إلى أنّهم أخوة لكلّ من اليونان وأيضًا الأرمن، إضافة إلى الفرنجة، وأنّهم يأتون من نسل يونان بن يافث، أمّا «ابن خلدون» فإنّه يذكر بأنهم إخوة لكلّ من الترك وأيضًا الخزر، وأنهم من نسل ريفات بن كومر بن يافث.

أي أنهم من أصول آسيوية بحتة سكنت القارة الأورزبية وشاركت في تأسيس دولة روسيا. وقد جعل المؤرِّخون ثلاثة فروع لأصول الصقالبة، حيث كانت على النحو التالي:

الفرع الأوّل: هو من الفرع الرّوسي، ليشتمل على كلّ من الروس، وأيضًا الروثينيين، ثمّ الرسنياكه.

الفرع الثّاني: هو من الفرع الصربي الإيليري، يشتمل على المجر، وأيضًا الصرب. وأيضًا الهرسكيين، ثمّ أهل البشناق، والجبل الأسود، وأيضًا السلافونيّين.

الفرع الثّالث: وهو من الفرع البلغاري، ويشتمل على بوهيميا، وأيضًا مورافيا.

وكان الرومان ينظرون إلى قبائل السلاف والصقالبة نظرة احتقار ويعتبرونهم من قبائل الهمج.

وانتشر الصقالبة في القرون الوسطى من السهول الروسية إلى أوربا، وتطورت هذه القبائل إلى ما يعرف اليوم بالشعوب التالية: الروس، الأوكران، البولنديون، المقدونيون، السلوفاك، الجبل الأسود، السلوفين، التشيك، البوشناق أو البوسنة، الصرب، الكروات.

الوثائق اتي تم اكتشافها عن بلاد الصقالبة كتبت في أواخر القرن العاشر الميلادي وتكشف وجود اثنتي عشرة قبيلة صقلبية تمثل جذور الشعوب الصقلبية، وهي: الكريفيك، الفياتيك، البولن، الدريفل، الدريجوفيك، الراديميش، السلوفين، الدوليب، الفولين، أبوزين، الكورات، السيفير، الأوليش، التيفرتس.

وفي بداية القرن الرابع الميلادي، انخرط الصقلب في حروب مع قبائل المغول القادمة من وسط آسيا، ومنها قبائل الهون «البلغار» وقبائل الماجيار والهنغار «المجر»، فيما يعرف بدولة الخانات المغول.

وكانت قبائل الصقلب تتألف من مزراعين مستوطنين، وكان المغول رعاة ومحاربين فتغلب عليهم المغول الخانات وأخضعوا قبائل الصقلب في الشمال، واجتاحوا شرق ووسط أوربا، وأعملوا فيها السيف وأحرقوا مدنًا وبلادًا بأكملها متحدين الإمبراطورية الرومانية في ذلك الوقت، مما أدى إلى هجرة كثير من الشعوب الأوربية في ذلك الوقت إلى غرب أوربا فرارًا من بطش المغول، وأصبحت بلاد شرق أوربا شبه خاوية على عروشها.

ومنذ القرن الخامس الميلادي، انقسم الصقلب لُغويًّا إلى لغات جنوبية وغربية

وشرقية، وخضع القسم الجنوبي والشرقي منهم إلى حكم خانات المغول التتار، وكان على قبائل الصقلب أن تدفع الجزية والضرائب لدولة الخانات على مدى عشرة قرون حتى نهاية القرن السابع الميلادي.

وتشير الوثائق والمخطوطات إلى تمرد الصقلب في أوائل القرن الثامن الميلادي على دولة الخانات المغول بعد أن أصابها الضعف والانحلال، وتأسست أول دولة للصقالبة عاصمتها «كييف» «روسيا»، وكان القائد سوفييت سلاف الأول أو الحاكم لهذه الدولة.

اعتنق الصقالبة المسيحية الأرثوذكسية مع بداية القرن العاشر الميلادي.

3- **الآريون:**

آريان «Aryans» هو شعب قديم أصله من شرق أوربا. استولى على إيران من الشمال الغربي للهند عام 2000 ق.م. وكان سببًا في تدهور حضارة السند.

ويعود أصل هذه الكلمة إلى اللفظة السنسكريتية «arya» التي تعني «النبلاء»، وقد تسمت بها القبائل الآرية التي غزت شمالي الهند لتميز نفسها من السكان المحليين الفيديين، الداكني البشرة، الذين أخضعتهم لسيطرتها إبان الألف الثاني ق.م.

وكانت لغته صورة أولية من السنسكريتية ويطلق عليها الآرية. وهي أساس اللغات الهندو الأوربية. لأن الشعب الآري كان يسكن المناطق الممتدة من شرق أوربا إلى جنوب آسيا. وقد وصل للهند سنة 3000 ق.م.

سكن بعض الآريين شمال الهند إبان العصر البرونزي والآريون بشري أبيض الجلد. وقد عرفوا بالنوريكيين والتيتوتيكيين. ولم يبق من هذا الجنس سوى اللغة الآرية التي تضم عدة لغات تُعْرَف باللغات الهندو أوربية.

نزح الشعب من شرق أوربا «روسيا الحالية» عام 1500 ق.م. ليستوطن أعالي

نهر السند بسهول ياموونا Yamuna وجانجتيك Gangetic. وكان يتكلم إحدى اللغات الهندوأوربية ويعبد آلهة الإغريق والأوربيين الشماليين.

وقد ابتكروا أشكالًا من النصوص الشفهية في الفيدا المقدسة لدي الهندوس.

الجنس الآري فكرة تاريخية أثّرت كثيرا في الحضارة الغربية خاصة في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، والفكرة مفادها أن متحدثي اللغات الهندية الأوربية الأصليين يمثلون وخلفاؤهم حتى اليوم الحاضر جنسا سائدا أو جنسا فرعيا سائدا من الجنس القوقازي، ويسمى الاعتقاد بوجود تلك النظرية أو الأفكار بالآريانية.

وعلى الرغم من ظهور المصطلَح ذاته في بادئ الأمر لوصف مجموعة عِرقية ولغوية إلا أن هذا المعنى قد شهد تغييرًا جذريًّا ورواجًا شديدًا من خلال توليد تيارات عديدة من الكراهية العنصرية خاصة خلال العهود النازية والنازيين الجدد بما في ذلك الأفكار التنجيمية والأفكار الداعمة لتفوق البيض.

الآريون Aryans تسمية أُطلقت في القرن التاسع عشر على مجموعة من الشعوب الناطقة باللغات الهندية - الأوربية، اعتمادًا على وجود قرابة بين تلك اللغات.

ولكن المصطلح «آري» Aryan يستخدم اليوم للدلالة خاصة على الفرع الشرقي، أي الهندي - الإيراني من أسرة اللغات الهندية - الأوربية، وبالتالي فهو مصطلح لغوي بالدرجة الأولى، ولا يتضمن بالضرورة خصائص إثنية أو عرقية أو ثقافية أو قومية محددة.

كما توجد أيضًا في اللغة الفارسية القديمة بصيغة مماثلة arya بمعنى «السادة».

وكان الميديون، الذين أسسوا أولى الدول التاريخية في إيران، يُدْعَوْن في الأزمنة القديمة «آريين»، بحسب رواية المؤرخ هيرودوت.

ويفخر الملك الفارسي الأخميني داريوس الكبير «522-486ق.م» في أحد نقوشه المشهورة، بأنه كان فارسيًّا و«آريًّا».

كما يعكس اسم «إيران» الانتساب إلى أولئك الآريين، الذين هاجروا إليها - تبعًا للروايات القديمة - من السهول الفسيحة الواقعة إلى الشرق والشمال الشرقي من بحر قزوين.

وتعد دراسة اللغات الهندية - الإيرانية والملاحم والكتب الدينية، إضافة إلى المصادر المادية المتمثلة بالآثار والنقوش المكتشفة في المنطقة الممتدة من غربي آسيا إلى شرقي الهند، أهم مصادر المعرفة بالآريين.

ولقد أدت دراسة اللغات السنسكريتية والإغريقية واللاتينية والجرمانية والكلتية والفارسية القديمة وسواها إلى نشأة نظرية الأصل المشترك لهذه اللغات، التي دعاها الألماني ماكس موللر Max Muller أسرة اللغات الآرية، ولكنها تعرف اليوم باسم مجموعة أو أسرة اللغات الهندية - الأوربية «أو الهندية - الجرمانية».

وبدأت دراسة هذه اللغات منذ القرن «السادس عشر»، وكان الإيطالي: سسيتي Sesseti أول من أشار إلى بعض أوجه الشبه بين الإيطالية والسنسكريتية. ويرجع الفضل لاكتشاف القرابة والأصول المشتركة فيما بينها إلى الإنكليزي السير وليم جونز «1746-1794» Jons ثم أكمل الباحثون الألمان دراستها وعلى رأسهم: شليغل Schlegel وغريم Grimm وبوب Bopp وشلايشر Schleicher.

وقد افترض أولئك العلماء أنه كان هناك في الأزمنة السالفة لغة واحدة مشتركة دعوها: الآرية، وكانت بمنزلة اللغة الأم التي انبثقت منها سائر اللغات الآرية، وأن القبائل التي تحدثت بها، كانت تقيم في منطقة واحدة انتشرت منها بعد ذلك منذ أوائل الألف الثاني ق.م إلى مواطن سكناها التاريخية في أوربة وإيران وشمالي الهند.

ونشأ عن هذه الفرضية نظريات الموطن الأصلي لأولئك الآريين، وقد تضاربت الآراء حوله وإن كان معظمها يرجح السهوب الأوراسية الممتدة من آسيا الوسطى إلى جنوبي روسية.

ويربط بعض الدارسين هجرات هذه القبائل بالتغيرات المناخية الكبرى التي تلت العصر الجليدي الرابع وحولت مناخ آسيا الوسطى من الاعتدال إلى الجفاف وأرغمت بالتالي سكانها على الهجرة، وهو ما عرف باسم الغزو الآري.

في حين يرد المؤرخ أرنولد توينبي Toynbee سبب هذه الهجرة إلى تفجر سكاني حدث في السهوب الأوراسية بين شعوب تتكلم السنسكريتية الأولى. ويعزو سر نجاح أولئك المهاجرين الغزاة إلى عاملين أساسيين هما: تدجين الحصان «في أوائل الألف الثاني ق.م» وابتكار العربة الحربية، مما أعطى القبائل البدوية الآرية سلاحًا فعالًا ضمن لها التفوق والانتصار.

ويستدل من الشواهد الأثرية والنقوش المكتشفة في آسيا الغربية، أنه حدثت هجرة، أو عدة هجرات، لشعوب ناطقة بالهندية - الإيرانية يمكن تأريخها في الألف الثاني ق.م.

فقد شهدت بلاد الرافدين هجوم الكاشيين من الشرق والشمال في القرن الثامن عشر ق.م، وهم الذين أدخلوا معهم الحصان والعربة الحربية وكانت لهم أسماء هندية - آرية مثل: سورياش وإينداس وماروتاس. وهناك معاهدة تعود إلى مطلع القرن الرابع عشر ق.م عقدت بين الحثيين والميتانيين تذكر أربعة آلهة ترد أسماؤها في ملحمة الفيدا Veda السنسكريتية وهي: ايندارا Indara وميتيرا Mitira وأورفنا Uruvna وناشاتيا Nasatyas. كما عثر على نقش في العاصمة الحثية حاتوشا، يعود إلى الحقبة ذاتها، يذكر بعض المصطلحات الهندية - الآرية المتعلقة بتدريب الخيول.

إن اقتران الحصان بهذه الشعوب يمكن أن يدل على آسيا الوسطى أو سهوب جنوبي روسية بوصفها الموطن الأصلي المحتمل الذي انطلقت منه.

وتشير الدلائل المختلفة إلى انقسام القبائل الآرية إلى مجموعتين: غربية توغلت في إيران وفرضت لغتها الأفستية، القريبة جدًّا من السنسكريتية الفيدية، وكذلك معتقداتها الدينية التي وصلت في كتاب «الأفستا» Avesta المقدس.

أما المجموعة الشرقية فقد توغلت في شمالي الهند وتمكنت بعد معارك عنيفة وطويلة الأمد من إخضاع السكان المحليين وطردهم نحو الجنوب أو استعبادهم، بعد تدمير حضارتهم.

ويبدو أن الغزوات الآرية لمنطقة السند اتخذت شكل تحركات جماعية في جحافل كاملة من الرجال والنساء والأطفال بقيادة محاربين أشداء كان هدفهم التوسع وفرض سلطانهم حيث حَلوا.

لقد كانت القبائل الآرية تجهل القراءة والكتابة عندما ظهرت على مسرح التاريخ أول مرة، ومع ذلك فقد تركت ملاحم شعرية تصور حياتها بدقة. ويشير عالم الأنثروبولوجية رالف لنتون Linton في كتابه «شجرة الحضارة» إلى العلاقة الوثيقة بين الاقتصاد القائم على رعي الماشية ونشأة شِعر البطولة والملاحم.

وبدراسة المدلولات العامة للملاحم والقصائد البطولية الآرية، التي وصلت من الهند وإيران واليونان، يمكن تصور حياة أولئك الآريين وهم يتهيؤون لدورهم الجديد حكامًا وسادة على السكان الأصليين، الفلاحين الذين غُلبوا على أمرهم.

كان المجتمع الآري يتبع نظام الانتساب إلى الأب وتتكون القبيلة من مجموعة من العشائر، وكان رؤساء الأسر يكونون طبقة النبلاء، أما أقاربهم الفقراء فكانوا يؤلِّفون طبقة العامة. وكانت المرأة تستمد مركزها الاجتماعي من مركز أسرتها.

ومع بداية مرحلة الاستقرار شكل أولئك الغزاة ثلاث طبقات سادة تتمثل في: الكهنة «بَراهما» والجنود «كاشتريا» وعامة الشعب «فايسيا». أما الشعب المحكوم من سكان البلاد الأصليين فألّفوا الطبقة السفلى المستعبَدة «سودرا».

وهكذا وضع الآريون الهنود حجر الأساس لنظام الطوائف والطبقات المعروف في الهند يدفعهم إلى ذلك الخوف من الذوبان في بوتقة السكان الأصليين، الذين كانوا يفوقونهم بكثير، الأمر الذي يفقدهم امتيازاتهم بوصفهم طبقة حاكمة سائدة.

والمصطلح اللغوي «الآري» بدأ يَكتسب منذ أواسط القرن التاسع عشر مدلولًا عرقيًّا وسياسيًّا، يعزى بموجبه إلى الشعوب الآرية وحدها الفضل في ابتكار المنجزات الحضارية قديمًا وحديثًا.

فقد ألّف الكونت دي غوبينو الفرنسي De Gobineau مقالة حول عدم تساوي الأعراق البشرية ذهب فيها إلى أن الجنس الآري أسمى فروع العرق الأبيض وعدَّ التوتون «الجرمان» أنقى عنصر يمثل الآريين. ووجدت هذه الأفكار صدى لها في الألمانية.

وازدهرت مع قيام الحركة النازية، التي صاغت منها منطلقاتها العنصرية القائمة على تفوق الجنس النوردي الشمالي وصفوته المختارة «العنصر الجرماني» الذي ينبغي أن يسود العالم.

بيد أن الأبحاث الأنتروبولوجية والإثنية الحديثة تدحض كلها مثل هذه الادعاءات والمزاعم وترفض النظرية القائلة بوجود أعراق بشرية نقية ومتفوقة يقتصر عليها وحدها الإبداع وبناء الحضارة الإنسانية، فقد أثبت العلم والتاريخ بطلان خرافة الجنس الآري النقي.

* * *

رحلة أحمد بن فضلان لبلاد الصقالبة (روسيا)

أقدم وصف لبلاد الروس القديمة كتبه أحمد بن فضلان عام 921 - 924م حين زار روسيا برسالة من الخليفة العباسي إلى ملك الصقالبة.(1)

كان أحمد بن فضلان رجل دولة وفقيها عالمًا صاحب رؤية سياسية وجيد في الوصف فقد عمل لعقد من الزمان الساعد الأيمن للقائد العسكري محمد بن سليمان الذي قاد في نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر الميلاديين حملات عسكرية امتدت إلى حدود الصين في الشرق- تعلم ابن فضلان الكثير، وأهلته معارفه المتراكمة وثقافته بالشعوب التي خالطها إلى الوصول إلى بلاط السلطان «المقتدر بالله»..

عام 921م، حينما وصلت رسالة قيصر البلغار «ألموش بن يلطوار» طلبا لإرسال سفارة إلى القيصرية البلغارية لشرح مبادئ الإسلام، ويطلب مساعدة مالية لبناء مسجد وحصن يتحصن فيه من اعتداءات وظلم ملك دولة الخزر اليهودية.

ويعترف الغربيون بفضل الرحلة في تدوين اكتشافات حضارية نادرة، ويسطِّرون اسم «ابن فضلان» بحروف بارزة في تاريخ التواصل الحضاري بين الإسلام و«الآخر»، ويؤكدون أنها نقلة نوعية في فن كتابة الرحلة العربية التي كانت غارقة في مفاهيم السرد يقول:

1- أحمد بن فضلان هو أحمد بن العباس بن راشد بن حماد البغدادي، عالم إسلامي من القرن العاشر الميلادي. كتب وصف رحلته كعضو في سفارة الخليفة العباسي إلى ملك الصقالبة «بلغار الفولجا» سنة 921 م، كانت رحلة ابن فضلان أساسًا لرواية مايكل كريتشتون أكلة الموتى والتي صورت كفيلم روائي باسم «المقاتل الثالث عشر».

وإذا قدمت السفينة من بلد الخزر إلى بلد الصقالبة ركب الملك فأحصى ما فيها، وأخذ من جميع ذلك العشر، وإذا قدم الروس أو غيرهم من سائر الأجناس برقيق فللملك أن يختار من كل عشرة أرؤس رأسًا. وابن ملك الصقالبة رهينة عند ملك الخزر.

وقد وصل لملك الخزر عن ابنة ملك الصقالبة أنها ذات جمال فأرسل يخطبها، فاحتج عليه، ورده، فبعث وأخذها غصبًا، وهو يهودي، وهي مسلمة، فماتت عنده، فوجه يطلب بنتًا له أخرى. فاتصل ذلك بملك الصقالبة بادر فزوجها لملك أسكل وهو من تحت يده خيفة أن يغتصبه إياها كما فعل بأختها، وإنما دعا ملك الصقالبة أن يكاتب السلطان ويسأله أن يبني له حصنًا خوفًا من ملك الخزر». [1]

رحل «ابن فضلان» وأعضاء البعثة من بغداد 11 صفر 309هـ، وظل يصعد شرقًا وشمالًا مارًا بإقليم الجبال، فهمذان فالري قرب طهران، وعبر نهر جيحون، ووصل إلى سمرقند، ومنها إلى بخارى، ثم توجه إلى خوارزم، عبر أراضي الأغوز التركية، ثم تقدم حتى وصل إلى نهر الفلجا عند ملك الصقالبة 12 محرم 310هـ، وبذلك تكون الرحلة قد استغرقت أحد عشر شهرًا في الذهاب، حتى وصلت إلى مملكة البلغار جنوبي روسيا.

سلك ابن فضلان الطريق الصحراوي الوعر من بغداد إلى خوارزم إلى أغوز في رحلة شاقة، فقد فيها الموكب رجاله بين البرد والمرض، ولم يبق سوى بعض الخدم والمرافقين.

اعتبر كثير من المؤرخين تلك الرحلة بأنها المصدر الوحيد لتاريخ روسيا وبلغاريا وتركيا، فرحلة ابن فضلان هي أقدم نص لرحلة قام بها عربي إلى الأصقاع البعيدة في أوربا، في تلك الفترة من القرن العاشر الميلادي «الثالث الهجري».

1- المصدر السابق.

يقول كريشون: «يعد مخطوط ابن فضلان أقدم تسجيل معروف كتبه شاهد عيان عن حياة الشعب الإسكندنافي، وهو بذلك وثيقة فريدة من نوعها، تصف بدقة متناهية أحداثًا وقعت منذ ما يزيد عن ألف عام». [1]

عام 912 (309هـ) خرجت من بغداد – عاصمة الخلافة العباسية بعثة دينية سياسية بتكليف من الخليفة العباسي «المقتدر بالله» إلى قلب القارة الآسيوية في مكان عُرف وقتها باسم «أرض الصقالبة».

قدّم وصفًا رائعًا ودقيقًا خاصًّا ببلاد الروس؛ فوصف كلّ ما يتعلّق بحال الرجل عندهم، ومكانة المرأة بينهم، وحال سكنهم وطرق عيشهم، وحالهم في دفن الموتى، وعقيدتهم في الإله.. وغيرها كثير، ومن ذلك قوله: «وأجلّ الحليٍّ عندهم الخرز الأخضر من الخزف، الذى يكون على السفن يبالغون فيه، ويشترون الخرزة بدرهم، وينظمونه عقودًا لنسائهم» ويقول أيضًا: «وإذا أصابوا سارقًا أو لصًّا، جاءوا به إلى شجرة غليظة، وشدوا في عنقه حبلًا وثيقًا، وعلّقوه فيها، ويبقى معلقًا حتى يتقطّع من المكث بالرياح والأمطار» ويتحدّث عن ملكهم فيقول: «ولا ينزل عن سريره، فإذا أراد قضاء حاجة قضاها في طشت، وإذا أراد الركوب قدّموا دابّته إلى السرير فركبها منه، وإذا أراد النزول قدّم دابّته حتى يكون نزوله عليه، وله خليفة يسوس الجيوش ويواقع الأعداء، ويخلفه في رعيته».

وقد وضح ابن فضلان أمر هؤلاء الملوك المخالفين لأمير المؤمنين في الدين، وهم الخزر اليهود فقال: «وعلى ملك الصقالبة ضريبة يؤديها إلى ملك الخَزَرِ من كل بيت في مملكته جلد سمور».

ثم وصل إلى بخارَى، وفيها يصف لنا النقود الغطريفية قائلًا: «ورأيت الدراهم ببخارى ألوانًا شتى، منها دراهم يقال لها الغطريفية: وهي نحاس وشبه وصفر. [2]

1- رسالة ابن فضلان – تحقيق وتعليق سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، 1959م.
2- الشَّبَهُ: النحاس الأصفر والصُّفرُ نوع منه.

يؤخذ منها عدد بلا وزن مئة منها بدرهم فضة، وإذا شروطهم في مهور نسائهم: تزوج فلان ابن فلان فلانة بنت فلان على كذا وكذا ألف درهم غطريفية وكذلك أيضًا شراء عقارهم وشراء عبيدهم، لا يذكرون غيرها من الدراهم ولهم دراهم أخر صفر وحده؛ أربعون منها بدانق، ولهم أيضًا دراهم صفر يقال لها السمرقندية ستة منها بدانق».

لم ينجح ابن فضلان في تحصيل الأموال التي أمره الخليفة بجمعها من مدن خوارزم وسمرقند وبخارى، حيث رفضوا دعم البعثة بالأموال اللازمة، لتلبية طلب ملك البلغار. اجتهد ابن فضلان ورأى أن من الأفضل مواصلة الرحلة تنفيذًا لأمر الخليفة.

ثم يداهمه الشتاء في الجرجانية على نهر جيحون فيصف البرد والصقيع وصفًا رائعًا فيقول: «فأقمنا بالجرجانية أيامًا وجمد نهر جيحون من أوله إلى آخره وكان سمك الجمد سبعة عشر شبرًا وكانت الخيل والبغال والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق وهو ثابت لا يتخلخل فأقام على ذلك ثلاثة أشهر.

فرأينا بلدًا ما ظننا إلا أن بابًا من الزمهرير قد فُتح علينا منه ولا يسقط فيه الثلج إلا ومعه ريح عاصف شديدة وإذا أتحف الرجل من أهله صاحبه وأراد بره قال له: تعال إلى حتى نتحدث فإن عندي نارًا طيبة هذا إذا بالغ في بره وصلته إلا أن الله تعالى قد لطف بهم في الحطب أرخصه عليهم: حمل عجلة من حطب الطاغ بدرهمين من دراهمهم تكون زهاء ثلاثة آلاف رطل.

ورسم سؤالهم أن لا يقف السائل على الباب بل يدخل إلى دار الواحد منهم فيقعد ساعة عند ناره يصطلي ثم يقول: بكند يعني الخبز فإن أعطوه شيئًا أخذ وإلا خرج.

وتطاول مقامنا بالجرجانية وذلك أنا أقمنا بها أيامًا من رجب وشعبان وشهر رمضان وشوال وكان طول مقامنا من جهة البرد وشدته ولقد بلغني أن رجلين ساقا

اثني عشر جملًا ليحملَا عليها حطبًا من بعض الغياض فنسيا أن يأخذا معهما قداحة وحراقة «لإشعال النار» وأنهما باتا بغير نار فأصبحا والجمال موتى لشدة البرد. ولقد رأيت لهواء بردها بأن السوق بها والشوارع لتخلو حتى يطوف الإنسان أكثر الشوارع والأسواق فلا يجد أحدًا ولا يستقبله إنسان ولقد كنت أخرج من الحمام فإذا دخلت إلى البيت نظرت إلى لحيتي وهي قطعة واحدة من الثلج حتى كنت أدنيها إلى النار.

ولقد كنت أنام في جوف بيت وفيه قبة لبود تركية وأنا مدثر بالأكسية والفرى فربما التصق خدي على المخدة ولقد رأيت الجباب بها تكسي البوستينات من جلود الغنم لئلا تتشقق وتنكسر فلا يغني ذلك شيئًا. ولقد رأيت الأرض تنشق فيها أودية عظام لشدة البرد وأن الشجرة العظيمة العادية لتنفلق بنصفين لذلك». (1)

ثم يصل في رحلته إلى بلاد الترك، ويصف أحوال قبيلة منهم قائلًا: «يُعرفون بالغزية وإذا هم بادية لهم بيوت شعر يحلون ويرتحلون ترى منهم الأبيات في كل مكان ومثلها في مكان آخر على عمل البادية وتنقلهم وإذا هم في شقاء وهم مع ذلك كالحمير الضالة لا يدينون لله بدين ولا يرجعون إلى عقل ولا يعبدون شيئًا بل يسمون كبراءهم أربابًا فإذا استشار أحدهم رئيسه في شيء قال له: يا رب إيش أعمل في كذا وكذا وأمرهم شورى بينهم غير أنهم متى اتفقوا على شيء وعزموا عليه جاء أرذلهم وأخسهم فنقض ما قد أجمعوا عليه».

ووصف ابن فضلان عدم نظافتهم وقلة اعتنائهم بأنفسهم «ولا يستنجون من غائط ولا بول ولا يغتسلون من جنابة ولا غير ذلك، وليس بينهم وبين الماء عمل، خاصة في الشتاء، ولا يستتر نساؤهم من رجالهم ولا من غيرهم، وكذلك لا تستر المرأة شيئًا من بدنها عن أحد من الناس».

وأعرب عن اشمئزازه من هؤلاء الشماليين، قائلًا: «وهم أقذر خلق الله لا يستنجون

1- المصدر السابق.

من غائط ولا بول، ولا يغتسلون من جنابة، ولا يغسلون أيديهم من الطعام، بل هم كالحمير الضالة، يجيئون من بلدهم فيرسون سفنهم بإتل وهو نهر كبير، ويبنون على شطه بيوتًا كبارًا من الخشب.

ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر، ولكل واحد سرير يجلس عليه، ومعهم الجواري الروقة للتجار، فينكح الواحد جاريته، ورفيقه ينظر إليه. وربما اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحال بعضهم بحذاء بعض. وربما يدخل التاجر عليهم ليشتري من بعضهم جارية فيصادفه ينكحها فلا يزول عنها حتى يقضي أربه.

ولا بد لهم في كل يوم من غسل وجوههم ورؤوسهم بأقذر ماء يكون وأطفسه. وذلك أن الجارية توافي كل يوم بالغداة، ومعها قصعة كبيرة فيها ماء، فتدفعها إلى مولاها فيغسل فيها يديه ووجهه، وشعر رأسه فيغسله ويسرحه بالمشط في القصعة، ثم يمتخط ويبصق فيها، ولا يدع شيئًا من القذر إلا فعله في ذلك الماء. فإذا فرغ مما يحتاج إليه حملت الجارية القصعة إلى الذي إلى جانبه ففعل مثل فعل صاحبه، ولا تزال ترفعها من واحد إلى واحد حتى تديرها على جميع من في البيت. وكل واحد منهم يمتخط ويبصق فيها ويغسل وجهه وشعره فيها».

ومع ذلك هم لا يعرفون الزنا، ومن فعله منهم شقوه نصفين، مع انتشار اللواط فيهم، ثم تكلم عن بعض عاداتهم وتقاليدهم في الزواج والموت والمرض، وكذلك ديانتهم وعقيدتهم.

وقد حضر صلاة الجمعة «وقد كان يخطب له على منبره قبل قدومي: اللهم وأصلح الملك «يلطوار» ملك بلغار.

فقلت أنا له: إن الله هو الملك ولا يسمى على المنبر بهذا الاسم غيره -جل وعز- وهذا مولاك أمير المؤمنين قد رضي لنفسه أن يقال على منابره في الشرق والغرب:

اللهم أصلح عبدك وخليفتك جعفر الإمام المقتدر بالله أمير المؤمنين وكذا من كان قبله من آبائه الخلفاء».

وأمره أن يخطب باسمه واسم أبيه بدون لفظ ملك، فامتثل الملك وتسمى باسم جعفر تيمنًا باسم أمير المؤمنين و«تقدم إلى الخطيب بذلك ففعل فكان يخطب له: اللهم وأصلح عبدك جعفر بن عبد الله أمير بلغار مولى أمير المؤمنين».

وهذا يدل على أن ملك البلغار قد أسلم ودان بالولاء التام للخليفة العباسي، وقد قال لابن فضلان: «فوالله إني لبمكاني البعيد الذي تراني فيه وإني لخائف من مولاي أمير المؤمنين، وذلك أني أخاف أن يبلغه عني شيء يكرهه، فيدعو عليَّ فأهلك بمكاني، وهو في مملكته وبيني وبينه البلدان الشاسعة».

وسأل ابن فضلان ملك البلغار يومًا عن سر طلبه للمال من أمير المؤمنين رغم كثرة أمواله: «فقال: رأيت دولة الإسلام مقبلة، وأموالهم يؤخذ من حلها، فالتمست ذلك لهذه العلة، ولو أني أردت أن أبني حصنًا من أموالي من فضة أو ذهب لما تعذر ذلك عليَّ، وإنما تبركت بمال أمير المؤمنين فسألته ذلك».

لاحظ ابن فضلان أن علاقة الرجل بالمرأة عند البلغار هي علاقة متحررة من كل القيود، لكنه فشل في إقناعهم بأنها من العادات الرذيلة «وينزل الرجال والنساء إلى النهر فيغتسلون جميعًا عراة لا يستتر بعضهم من بعض، ولا يزنون بوجه ولا سبب، ومن زنا منهم كائنًا من كان ضربوا له أربع سكك، وشدوا يديه ورجليه إليها وقطعوا بالفأس من رقبته إلى فخذيه، وكذلك يفعلون بالمرأة أيضًا. ثم يعلق كل قطعة منه ومنها على شجرة، وما زلت أجتهد أن يستتر النساء من الرجال في السباحة فما استوى لي ذلك».

كما وصف ابن فضلان الاحتفالات الخاصة التي تقام لحرق جثة الموتى في روسيا «وكان يقال لي إنهم يفعلون برؤسائهم عند الموت أمورًا أقلها الحرق، فكنت أحب أن

أقف على ذلك، حتى بلغني موت رجل منهم جليل، فجعلوه في قبره، وسقفوا عليه عشرة أيام حتى فرغوا من قطع ثيابه وخياطتها.

وذلك أن الرجل الفقير منهم يعملون له سفينة صغيرة، ويجعلونه فيها ويحرقونها، والغني يجمعون ماله، ويجعلونه ثلاثة أثلاث: فثلث لأهله وثلث يقطعون له به ثيابًا، وثلث ينبذون به نبيذًا يشربونه يوم تقتل جاريته نفسها وتحرق مع مولاها..... فرحة مستبشرة».

وعند عودته سجل ابن فضلان وصفًا كاملًا للرحلة بكل أحداثها وتفاصيلها، ورفع ابن فضلان تقريره في رسالته إلى الخليفة، وصف فيها بلاد الروس والبلغار والأتراك وأصقاع الشمال النائية. لم يصف ابن فضلان ما جرى في طريق العودة.

لم يذكر لنا ابن فضلان في رسالته شيئًا عن النتائج السياسية والحربية لهذه الرحلة! ولا نعرف هل ساعد الخليفة العباسي المقتدر بالله ملك البلغار في تشييد الحصون المطلوبة أم لا؟

وسجل ابن فضلان طول فترة الليل في فصل الشتاء، وطول فترة النهار في فصل الصيف، الأمر الذي تعذر علية تحديد ساعات الصلاة، فيقول: «ورأيت النهار عندهم طويلًا جدًّا وإذا أنه يطول عندهم مدة من السنة ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار».

كتب ابن فضلان تقريرًا وافيًا عن حياة الشعب الإسكندنافي اليومية، فاهتم ابن فضلان بوصف جزيئات الحياة اليومية، وبذكر ثقافة وعقائد من يلتقي بهم من الناس، حيث يصف ابن فضلان أحوال البلاد، وعلاقات الرجال بالنساء، ووصف عادتهم وتقاليدهم واحتفالاتهم في الزواج والموت ومراسم الدفن، كما يذكر الجرائم الشائعة في كل مجتمع مثل الزِّنا والسرقة، والعقوبات التي توقع على مرتكب

هذه الجرائم، كما يهتم بوصف عادات الشعوب في حال الصحة والمرض، وكيف يتعاملون مع مرضاهم.

ورصد ابن فضلان الواقع بكل ما فيه من محاسن ومساوئ، وقد صدمه كثير من المشاهد، ويحكي ما يروي بصراحة وبأسلوب أدبي سهل الفهم. (1)

* * *

1- رسالة ابن فضلان، المرجع السابق.

مراحل تأسيس الدولة الروسية والغزو المغولي لها

كما ذكرنا من قبل عُرف النورمان الإسكندنافيون باسم «الفايكنج» في غرب أوربا وباسم «الإفرنج» في الشرق، وقد جمع هؤلاء بين القرصنة والتجارة في أثناء تجوالهم في شمال أوربا، وفي منتصف القرن التاسع، كانوا قد بدأوا بالاستقرار على امتداد الممرات المائية من شرق بحر البلطيق إلى البحر الأسود وبحر قزوين، في عام 862، قامت إمارة روس في «كييف» على نهر الدنيبر وحمل أميرها لقب الأمير الكبير، وبرزت إلى جانبها مدن أخرى يحكمها أمراء منها: نوفجورود، فلاديمير، وغيرهما.

ويعتبر زعيم الفايكنج «روريك» الذي اتخذ من «نوفجورود» حاضرة له عام 862م بطلب من أهلها فهو مؤسس السلالة التي حكمت روسيا نحو سبعة قرون، ونقل ابنه أوليج العاصمة إلى كييف، وفي عهد حفيده فلاديمير الأول دخلت المسيحية بلاد روس وانتشرت وفق المذهب الأرثوذكسي، حيث اعتنق الأمير «فلاديمير الأول» المسيحية في عام 988م، وكان السلاف الشرقيون في ذلك الوقت يعبدون القوى الطبيعية.

ولكن «فلاديمير» جعل المسيحية الأرثوذكسية الدين الرسمي للدولة، ومن ثم اعتنقها الكثير من أهل دولته. وقد أصبح فلاديمير فيما بعد قديسًا للكنيسة الأرثوذكسية الروسية، وأصبحت الأخيرة والدولة مرتبطة دائما ارتباطًا وثيقًا.

خلال القرنين العاشر والحادي عشر، أصبحت «كييف» روس، واحدة من أكبر

الدول في أوربا والأكثر ازدهارًا، حيث كانت الإنجازات في مجالات الاقتصاد، العمارة، والأدب متفوقة على تلك التي كانت موجودة آنذاك في الجزء الغربي من القارة.

مدينة «كييف» رغم أنها كانت مركز الثقل السياسي للروس بسبب وقوعها على الطريق التجاري الرئيسي الذي يصل بين بحر البلطيق والبحر الأسود والإمبراطورية البيزنطية، فقد تمكنت كل من إمارات «نوفجورود» و«روستوف»، و«تشيرنيغوف» قد تمكنت من الاستقلال عن سلطة الأمير الكبير.

في منتصف القرن الحادي عشر كانت قوة «كييف» قد بدأت في الأفول، وازدادت قوة بعض أمراء الإمارات الروسية الكييفية الأخرى، ودخلوا في حروب مدمرة كثيرة.

أصاب روس «كييف» الضعف بسبب الحروب الأهلية وضعف السلطة المركزية، وصارت «كييف» نفسها مسرحًا لمعارك طاحنة في سبيل العرش، حتى أصابها دمار كبير على يد أمير روستوف وانتهى أمرها بوصفها عاصمة.

بعد سقوط «كييف» ظهرت إمارة «روستوف سوزدال» التي بسط أميرها «يوري دولغوروكي» نفوذه على «نوفجورود» و«كييف» وحمل ابنه لقب الأمير الكبير، واتخذ من مدينة «فلاديمير» عاصمة له.

تفككت «كييف» روس في نهاية المطاف كدولة بسبب القتال بين أفراد الأسرة الأميرية التي حكمت جماعيًّا، حيث تضاءلت هيمنة كييف، لمصلحة فلاديمير -سوزدال في الشمال الشرقي، ونوفجورود في الشمال، وغاليسيا-فولهينيا في الجنوب الغربي.

ثم كان غزو القبيلة الذهبية التابعة لإمبراطورية المغول في القرن الثالث عشر سببًا بخراب «كييف» وتدميرها في نهاية الأمر، حيث بدأت القبيلة الذهبية وهي من قبائل

المغول بزعامة «باتو خان» أحد أحفاد جنكيز خان سنة 1237 بغزو روسيا بجيش مكون من نحو 150 ألفًا إلى 200 ألف مقاتل، فاكتسح معظم المدن الروسية وخربها باستثناء نوفجورود.

ثم توسع المغول غربًا في أراضي أوربا الشرقية. واستوطنوا السهوب الواقعة شمال بحر الخزر «قزوين»، واتخذوا مدينة سراي باتو عاصمة لهم، وعرفت تلك القبائل باسم التتر أو التتار المغول.

أجبر «باتو خان» الأمراء الروس الأحياء على تقديم ولائهم له، وأجبرهم على دفع ضرائب باهظة.

وكان المغول يخرجون من وقت لآخر من عاصمتهم لسحق الشعوب الأخرى في مختلف المناطق تأديبًا لهم على عصيانهم وعدم ولائهم. كذلك فقد عين المغول الأمير العظيم وأجبروا كثيرًا من الروس على الخدمة ضمن جيوشهم، ولكن تدخلهم في الحياة الروسية كان قليلًا، إذ كان جل اهتمامهم منصبًّا على الحفاظ على السلطة وجمع الضرائب من الآخرين،[1] وهذا هو الهدف الرئيس لأي مستعمر على مر التاريخ.

وتقدم المغول إلى وسط أوربا يَغلبون ويُغلبون، ثم عادوا أدراجهم مخترقين الروسيا يعيثون فيها فسادًا، فأقاموا على أحد روافد الفلجا مدينة سراي Sarai واتخذوها عاصمة لعشائر مستقلة تعرف باسم الحشد الذهبي.

وظل «باتو» وخلفاؤه يسيطرون على الجزء الأكبر من الروسيا مدة مائتين وأربعين عامًا من ذلك الوقت؛ وسمح للأمراء الروس بأن يحتفظوا بأرضهم على شرط أن يؤدوا عنها جزية سنوية لخان الحشد الذهبي، أو للخان الأعظم لقرقورم المغولية، وأن

1- اقرأ كتابنا: يأجوج ومأجوج من البدء إلى الفناء فيه المزيد عن تاريخ خروجات المغول عبر العصور تاريخ القبيلة الذهبية وغير ذلك، الناشر: دار الكتاب العربي ـ دمشق/ القاهرة.

يقدموا من حين إلى حين بزيارة لهذا أو ذاك يقدمون لهما فروض الولاء، ويقطعون فيها مسافات طويلة.

وكان الأمراء يجمعون هذا الخراج ويفرضونه على الأهالي بالمساواة الفقير مثل الغني، ومن يعجز عن الدفع يُباع بيع الرقيق.

واستسلم الأمراء وخضعوا لسيادة المغول لأنها حمتهم من الثورات الاجتماعية، وانضموا إلى المغول في هجومهم على الشعوب الأخرى ومن بينها الإمارات الروسية نفسها.

وتزوج كثيرون من الروس مغوليات، ولربما دخلت بعض ملامح الوجوه، والأخلاق المغولية، في السلالات الروسية. وأخذ بعض الروس عن المغول أساليبهم في التحدث والملبس.

ولما أصبحت الروسيا تابعة لدولة أسيوية انفصلت إلى حد كبير عن الحضارة الأوربية، وتعاون استبداد الخان مع استبداد أباطرة بيزنطية على إيجاد «حاكم جميع الروس المطلق» في الدولة المسكوفية المتأخرة.

وأدرك زعماء المغول أنهم لا يستطيعون إخضاع الروسيا بالقوة وحدها، فاصطلحوا مع الكنيسة الروسية، وحموا لها ممتلكاتها ورجالها، وأعفوا هذه الممتلكات وأولئك الرجال من الضرائب، وجعلوا الإعدام عقابًا لمن ينتهك حرماتها.

وقابلت الكنيسة هذا الجميل بمثله فأوصت الروس بالخضوع للسادة المغول، ودعت الله جهرة أن يهبهم السلامة!!

وأراد آلاف من الروس أن يضمنوا لأنفسهم الأمن والسلام وسط عواصف الرعب فترهبوا؛ وتوالت الهبات على المؤسسات الدينية، حتى أَثْرَتْ الكنيسة الروسية ثراء فاحشًا وسط الفقر السائد في جميع البلاد.

وهكذا تنمو في الشعوب. رَوْحُ الخضوع والاستسلام، ومهدت السبيل إلى الاستبداد الذي سلط عليها قرونًا طوالًا، وظلت البلاد مائتي عام محتلة، راكدة، فقيرة حتى تم تحريرها من حكم المغول عام 1480م.

أحد العوامل الرئيسية في تصاعد قوة موسكو تعاون حكامها مع أمراء المغول، إبان حكم المغول لها، كما تزوج أمير موسكو يوري أخت خان حاكم القبيلة الذهبية في أوائل القرن الثالث عشر.

وعين «يوري» في منصب الأمير الروسي الكبير حوالي سنة 1318م، وساعدته القوات المغولية على سحق التهديدات لزعامته التي كانت بعض الإمارات قد أوقدت نارها.

منح التتار لقب أمير موسكو الكبير لأمراء موسكو وجعلوهم سماسرة لجمع الضرائب لهم من الإمارات الروسية. كانت عملية جمع الضرائب قد بدأت منذ إمارة إيفان الأول الذي كان يلقب بلفظ حقيبة النقود وذلك حوالي سنة 1330م. وكان إيفان يحتفظ ببعض نقود الضرائب لديه. واشترى كثيرًا من الأراضي، ووسع من أراضيه كثيرًا.

وأخذ بعض الأمراء الآخرين، وملاك الأرض الكبار للخدمة في الجيش المغولي والحكومة.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن إيفان أقنع بطريق الكنيسة الروسية الأرثوذكسيةبالبقاء في موسكو.

منذ القرن الخامس عشر، كان أمراء موسكو يريدون توسعة الأراضي الروسية بهدف زيادة السكان والثروة تحت حكمهم، وكان أنجحهم إيفان الثالث الذي وضع الأسس لقيام دولة قومية روسية.

دخل إيفان في منافسه قوية مع دوقية ليتوانيا شمال غرب البلاد، من أجل السيطرة على بعض ممالك نهر الدنيبر شبه المستقلة في أعالي الدنيبروأحواض نهر أوكا.

من خلال انشقاق بعض الأمراء، والمناوشات على الحدود، والحرب الطويلة مع جمهورية نوفجورود، استطاع إيفان الثالث التغلب على نوفجورود، ونتيجة لذلك، أزدادت دوقية موسكو ثلاث مرات في حجمها تحت حكمه.

أعلن إيفان سيادته المطلقة على جميع الأمراء والنبلاء الروس. ورفض الوصاية التتارية وبدأ بسلسلة من الهجمات مهدت له الطريق لهزيمة كاملة للقبيلة الذهبية واتخذ إيفان الخطوة الأخيرة في عملية الانفصال عن سيطرة المغول نهائيًّا في عام 1480م وذلك برفض دفع أية ضرائب لهم.

وتقدم جنود المغول نحو موسكو، ولكنهم ما لبثوا أن أداروا ظهورهم للدفاع عن عاصمتهم التي أخذ الروس في مهاجمتها.

وبعد ذلك برز الحاكم الروسي كحاكم قوي استبدادي وقيصر وكان أول حاكم روسي توج نفسه رسميا بلقب «القيصر» إيفان الرابع.

بعد ازدياد نفوذ موسكو أصبح أميرها الكبير يحمل لقب القيصر. وفي عام 1547م أصبح إيفان الرابع، الذي اشتهر بلقب إيفان الرهيب أول حاكم على موسكو يتوج بلقب قيصر، وقد استطاع إيفان أن يجعل سلطة القيصر طاغية طغيانًا كاملًا على كل روسيا.

كان إيفان قاسيًا كما كان كثير الشكوك وكان يصاب بالجنون أحيانًا. وشكل قوة خاصة من الشرطة وبدأ عهد إرهاب أمر فيه بإلقاء القبض على مئات من الشخصيات الأرستقراطية وقتلها.

كان إيفان يعطي أراضيَ ضحاياه أجورًا لأولئك الذين يخدمونه من ملاك الأراضي في الجيش أو الحكومة. كذلك فإنه وضع قوانين تحدد عدد المقاتلين والجياد التي يجب أن يقدمها ملاك الأراضي لقواته المقاتلة.

وقام إيفان بحرق الكثير من القرى والمدن، كما قتل بعض زعماء الكنيسة الذين عارضوه، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك فقد قتل أكبر أبنائه في إحدى ساعات غضبه.

بدأ عصر الاضطراب بسبب تدهور سلطات القيصر وانهيارها بعد موت إيفان. كان ثيودور الأول وهو الابن الثاني لإيفان قيصرًا ضعيفًا، وأصبح شقيق زوجته بوريس جودونوف الحاكم الفعلي لروسيا.

وُجد شقيق ثيودور الأصغر وهو دمتري ميتًا في عام 1591م، ومات ثيودور في عام 1598م دون أن يخلف وراءه وريثًا على العرش. انتخب الزسكي سوبور وهو برلمان محدود السلطات بوريس ليكون قيصرًا للبلاد.

ولكن كان هناك رجل يعتقد بأن اسمه الحقيقي هو جريجوري أوتربييف وهو كاهن سابق، أعلن أنه هو دمتري وادعى دمتري المزعوم بأن دمتري لم يمت، وإنما هرب إلى ليتوانيا فرارًا من إلقاء القبض عليه.

وفي عام 1604م غزا دمتري المزعوم روسيا ومعه بعض الجنود البولنديين. وانضم إلى الغزاة عدد كبير من الروس الذين كانوا غير راضين عن حكم بوريس.

هذا الغزو كان بداية عصر الاضطرابات في روسيا. وقد مزقت روسيا الحربُ الأهلية شر ممزق، كما مزقها الغزو والفوضى السياسية حتى عام 1613م.

اعتلى دمتري الدعي العرش القيصري عام 1605م، ولكن جماعة من ملاك الأراضي قتلوه في السنة التالية- وعندها أصبح الأمير فاسيلي شويسكي قيصر روسيا.

وفي عام 1610م احتل الغزاة البولنديون موسكو، وحكموا عن طريق مجلس برلماني من ملاك الأراضي عديم القوة حتى عام 1612م.

وفي نفس الوقت ظهر مُدَّعٍ آخرُ باسم دمتري وعدد آخر من المطالبين بالعرش من الكذابين الأدعياء يسمون القوزاق، وقد وجدوا كثيرًا من المؤيدين لهم.

اكتسحت ثورات الفلاحين روسيا وتقاتل كل من ملاك الأراضي وأهل القوزاق على الحدود، كما أنهم كانوا يتحدون معًا ويحاربون رجال الطبقة الأرستقراطيّة الأقوياء، وأدت سيطرة البولنديين على موسكو إلى اتحاد الروس والعمل على طرد الغزاة البولنديين، وتم لهم ذلك واستعادوا العاصمة 1612م، وتم انتخاب مخائيل رومانوف قيصرًا لروسيا وكان ذلك بداية حكم أسرة رومانوف الذي استمر ثلاثمائة سنة أي حتى قيام الثورة الشيوعية البلشفية عام 1917م.

* * *

7 الروس من حكم القياصرة إلى حكم البلاشفة

- ظهور الإمبراطورية الروسية ومختصر تاريخها.
- نهاية الإمبراطورية الروسية وتحولها إلى حكم البلاشفة الشيوعي الجمهوري عام 1917م.
- ظهور الاتحاد السوفييتي عام 1917م ونهايته عام 1991م.
- تفكك الاتحاد السوفييتي عام 1992م وظهور روسيا الاتحادية.
- الحروب الروسية العثمانية.

الإمبراطورية الروسية

ظهرت الإمبراطورية الروسية باعتبارها الوريث الطبيعي لقيصرة مسكوفي حين اندلع صراع في عام 1682م من أجل السلطة أدى إلى تتويج بطرس الأول «بطرس الأكبر» مع أخ آخر له من أبيه إيفان الخامس»، إلا أن الحكم الفعلي كان بيد أخته غير الشقيقة صوفيا بوصفها وصية على الحكم حتى أجبرها مؤيدو بطرس على إنهاء حكمها في عام 1689م حين دخل بطرس موسكو مع مؤيديه وتنازلت له صوفيا عن السلطة.

كان الإعلان عن الحكم الإمبراطوري لروسيا رسميًّا من قبل القيصر «بطرس الأكبر» في أعقاب معاهدة «نيستاد» سنة 1721م، وخلع بطرس الأكبر على نفسه لقب الإمبراطور إلى جانب لقبه الرسمي لقيصر احتفالًا بغزواته وفتوحاته الجديدة في أواخر 1721م وأصبح من جاء بعدُ يحمل لقب الإمبراطور والقيصر.

وتعد الإمبراطورية الروسية مصطلحًا يشار به إلى الفترة من تاريخ روسيا الواقع بين توسع روسيا تحت حكم بطرس الكبير إلى توسع الإمبراطورية الروسية من بحر البلطيق حتى المحيط الهادي إلى خلع «نيقولاس الثاني» آخر القياصرة الروس في بداية الثورة الروسية عام 1917م وقتله وعائلته.

وخلال الفترة من 1721م وحتى 1917م كان الاسم الرسمي للدولة الروسية هو «الإمبراطورية الروسية».

وقبل عهد بطرس كانت دوقية «موسكوفي» على قدر من التخلف عن باقي نظيراتها

الأوروبية بسبب العزلة التي كانت تعيش فيها البلاد الروسية بعد الغزو المغولي، والنظام الديني الصارم الذي يتبع الكنيسة الأرثوذكسية؛ وكانت توجهاتها التوسعية والاستعمارية موجهة نحو آسيا.

في بداية القرن التاسع عشر، كانت روسيا أكبر دولة في العالم من حيث المساحة، فقد امتدت حدودها من المحيط المتجمد الشمالي شمالًا إلى البحر الأسود جنوبًا، ومن بحر البلطيق غربًا إلى المحيط الهادئ شرقًا.

كانت الحكومة، وعلى رأسها الإمبراطور، واحدة من الملكيات المطلقة الأخيرة في أوروبا، حتى في ظل الحكم الجمهوري الشيوعي أيضًا لا تزال واحدة من الدول التي تخضع لحكم ديكتاتوري جمهوري مطلق وقد اعتبرت روسيا واحدة من القوى العظمى الخمس في القارة الأوروبية.قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى في شهر أغسطس من سنة 1914م.

أعجب الإمبراطور بطرس بشدة بالتقنيات المتقدمة، وفنون الحرب، والحنكة السياسية لدى الغرب. فأقدم على دراسة التكتيكات الحديثة وكيفية إقامة التحصينات وبنى جيشًا قويًّا قوامه 300 ألف مقاتل، يتألف من أعيانه الذين كانوا يجندون مدى الحياة.

حارب بطرس الإمبراطورية العثمانية ثم تحول إلى الشمال، حيث كان ما زال يفتقر إلى ميناء آمن في تلك الأنحاء من دولته، باستثناء ميناء «أرخانجيلسك»، الذي يتجمد لمدة تسعة أشهر في السنة مما يجعله غير مناسب ليكون مرفأً عسكريًّا لإمبراطورية كبيرة ودولة عظمى.

في عام 1699م قام بطرس الأكبر بإنشاء تحالف سري مع الكومنولث البولندي اللتواني ضد السويد والدنمارك، مما أدى إلى نشوب الحرب الشمالية العظمى، التي انتهت لصالح روسيا عام 1721م.

وكان من نتائج الحرب أن اكتسب بطرس أربع محافظات تقع جنوب وشرق خليج فنلندا، وبالتالي أمن وصوله إلى البحر، وهناك قام ببناء العاصمة الروسية الجديدة، «سانت بطرسبرغ»، لتحل محل موسكو، التي طالما كانت المركز الثقافي في روسيا.

أعاد بطرس تنظيم حكومته وفقًا لأحدث الأنظمة الغربية، وحول روسيا إلى دولة استبدادية. فجعل مكان مجلس النبلاء القديم مجلس شيوخ بتسعة أعضاء، على النمط الأوربي، وفرض على النبلاء خدمة الإمبراطورية.

كما تم تقسيم الريف إلى مقاطعات ومناطق جديدة، وحصر بطرس مهمة مجلس الشيوخ في جمع العائدات الضريبية، فكان من نتيجة ذلك أن تضاعفت عائدات الضرائب ثلاث مرات طيلة عهده.

وتم دمج الكنيسة الأرثوذكسية في الهيكل الإداري للدولة، الأمر الذي جعلها أداة للدولة، يتم السيطرة عليها والتحكم فيها ، وقام بإلغاء البطريركية واستعاض عنها بهيئة جماعية يُطلق عليها اسم «المجمع المقدس»، على رأسها مسئول حكومي، وفي الوقت نفسه، قام بالقضاء على ما تبقى من أنظمة الحكم الذاتي المحلية.

توفي بطرس الأكبر سنة 1725م، تاركًا وراءه خلافً حول من سيعقبه، وبلدًا غير مستقر مستنفَد الموارد، ونظام حكم معيب فلا هو بالحديث ولا بالقديم، ولم يتربع أي حاكم عُرف بالطموح، على العرش الروسي، ما يُقارب أربعين سنة.

ظهرت الإمبراطورة كاترين الثانية الكبيرة، الألمانية الأصل، والتي تزوجت بالقيصر بطرس الثالث، فساهمت في إعادة إحياء طبقة النبلاء، التي كانت قد بدأت بالظهور مجددًا بشكل بسيط فور وفاة بطرس الأكبر، وقامت بإلغاء مبدأ خدمة الدولة المفروض على كل نبيل، فاكتسبت شعبية كبيرة في وسطهم، بعد أن أقدمت على إسناد معظم المهام الحكومية في المحافظات إليهم.

قامت كاترين الكبيرة بتوسيع التدخل الروسي في شؤون الكومنولث البولندي اللتواني بإجراءات عديدة كان من ضمنها دعم كونفدرالية تارغوويكا، إلا أن التكاليف الباهظة لهذا التدخل، جرّاء تجهيز الحملات والجنود واستمالة البولنديين، إلى جانب النظام القمعي الاجتماعي، الذي كان يفرض على الأقنان «الفلاحين» قضاء حياتهم في أراضي الملاك، دفع بالفلاحين الروس أن ينتفضوا ويثوروا غلى إمبراطورتهم في سنة 1773م، خصوصًا بعد أن أصدرت مرسومًا ينص على بيع العبيد منفصلين عن الأرض.

هدد المتمردون بالاستيلاء على موسكو، مرددين صرخة «الموت لجميع الملاك!»، وكان زعيم الثورة يدعى «إميليان بوغاتشيف»، وتم قمع الثورة بلا رحمة وأخضعت كاترين بوغاشيف في نهاية المطاف، وتمّ حمله إلى الساحة الحمراء حيث قُطع رأسه، ولكن على الرغم من القضاء على زعيم الثورة، إلا أن شبحها استمر يؤرق نوم كاترين وخلفائها لسنين طويلة.

وفي الفترة التي قامت فيها الإمبراطورة بقمع الفلاحين الروس، كانت تخوض حربًا ناجحة ضد الدولة العثمانية نجم عنها توسع روسيا في الحدود الجنوبية لمنطقة البحر الأسود.

ثم أقدمت على التآمر مع حكام النمسا وبروسيا، للاستيلاء على أراضي الكومنولث البولندي اللتواني عندما كانت بولندا تُقسَّم على يد الأمم الأوروبية، فدفعت بذلك الحدود الروسية غربًا إلى أوروبا الوسطى.

وفي عهد الإمبراطورة «كاترين» الكبيرة كانت روسيا إمبراطورية كبرى وقوة عظمى في أوربا حتى توفيت الإمبراطورة عام 1796م.

خلف كاترين على العرش ابنها «بافل الأول» ولم يدم حكمه سوى سنوات خمس انتهت باغتياله في عام 1801، وخلفه على العرش ابنه «ألكسندر الأول» الذي أراد

نشر الحرية وتحويل الإمبراطورية إلى النظام الجمهوري، وأخذ يتحدث عن تحرير الفلاحين وبناء المدارس لكل أبناء روسيا، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك وأعلن عن اعتزامه التنازل عن العرش. وأدخل إلى البلاد عدة إصلاحات منها أنه عفا عن كثير من السجناء السياسيين وساعد على نشر بعض الآراء الغربية وأساليب الغربيين، ولكنه لم يفعل شيئا لتقليل سلطات القيصر الكاملة أو إنهاء مشكلة الفلاحين واستعبادهم.

في خلال عهده ظلت روسيا تستولي على مزيد من الأراضي فانتزعت بعضا منها من فارس والسويد والدولة العثمانية.

في يونيو عام 1812م قاد نابليون جيشه الفرنسي الضخم نحو الأراضي الروسية، وكان يريد أن يمنع روسيا من التجارة مع بريطانيا التي كانت عدو فرنسا الأكبر، كما كان يريد أن يوقف توسع روسيا في منطقة البلقان بأخذ الأراضي من «الإمبراطورية العثمانية» والوصول إلى البحار الدافئة.

ووصل نابليون بجيشه العرمرم إلى موسكو في سبتمبر 1812م إلا أن الروس اعتمدوا استراتيجية الأرض المحروقة حيث وجد أن معظم أهالي موسكو قد فروا منها وهجروها فدخلها وجيشه بكل سهولة، لكن النيران التي تم إضرامها في أنحاء موسكو دمرتها، الأمر الذي منع الغزاة من ضم البلاد إلى إمبراطوريتهم، وبعد 35 يومًا ترك الفرنسيون موسكو خوفًا من قدوم الشتاء الروسي القاتل الذي لا يتحمله إلا أهله.

وفي عملية الانسحاب تعرض الجيش الفرنسي لهجمات روسية وحروب العصابات والفلاحين الثائرين التي قتلت وأسرت آلاف الجنود الفرنسيين، وطاردتها القوات الروسية حتى وسط وغرب أوربا وأبواب باريس نفسها.

وبعد هزيمة نابليون على أيدي روسيا وحلفائها أصبح القيصر الروسي يعرف باسم ألكسندر «منقذ أوربا»، وترأس جلسة إعادة رسم خريطة أوربا في مؤتمر ڤيينا سنة 1815م.

وبالرغم من أن ألكسندر قد بدأ بعض الإصلاحات إلا أن الحكم العنيف ظل سائدًا في روسيا ولم تحصل أية تغيرات ذات أهمية.

تم تنصيب «نيقولا الأول» «1825-1855»، إمبراطورًا وفي بداية عهده واجه انتفاضة، عندما قام عدد من الضباط الروس بالسفر إلى أوربا في أثناء الحملات العسكرية، حيث تعرفوا على ليبرالية أوربا الغربية فأرادوا التغيير عند عودتهم إلى الأوتوقراطية الروسية، وطالبوا بالحكم على النظام الملكي الدستوري.

وكانت النتيجة ثورة دجنبر «ديسمبر 1825»، وعمل مجموعة صغيرة من النبلاء الليبراليين وضباط الجيش من أجل تثبيت شقيق نيكولا كملك دستوري.

ولكن تم سحق التمرد والقضاء عليها وعرفت تلك الثورة بثورة «الديسمبر» نسبة إلى شهر ديسمبر (شهر الثورة).

وكان المتمردون الرافضون لحكم نيقولاس الأول وتعدادهم ثلاثة آلاف قد اجتمعوا في ميدان مجلس الشيوخ في «سانت بطرسبرج» وتصدى لهم جنود الإمبراطورية، وقام الثوار باطلاق النيران عليهم، ورد عليهم جنود الإمبراطور وانتهت بذلك الثورة، حيث سحق جيش الإمبراطور المتمردين سحقًا.

وكان الرد القاسي على الثورة في «الرابع عشر من ديسمبر» يومًا لا يُنسى في تاريخ روسيا القديم والحديث، لقمع الثورات وضعت المدارس والجامعات تحت المراقبة المستمرة وقدمت للطلاب كتب مدرسية رسمية، تم وضعها بمعرفة الحكومة.

وتم زرع جواسيس الشرطة في كل مكان. وأرسل الثوار إلى سيبيريا.

انتقد الأصوليون «السلاف» بشدة «الانحلال الغربي» وكان السلاف من مؤيدي الرق ومعارضي البيروقراطية، ويفضلون الجماعية الروسية في العصور الوسطى، أو مجتمع القرية، على فردانية الغرب، ووضعت مذاهب اجتماعية بديلة من قبل المتطرفين الروس مثل ألكسندر هيرزن وميخائيل باكونين وبيوتر كروبوتكين.

عانت روسيا في عصر نقولا الأول لفترة من الضعف والاضمحلال وتراجع مركزها عالميًّا كقوة عظمى، وبعد نيقولاس الأول جاء الإمبراطور «ألكسندر الثاني» على العرش في 1855م، رغب في الإصلاح على نطاق واسع.

في عام 1859م، كان هناك أكثر من 23 مليون فلاح يعيشون غالبًا في ظل ظروف أسوأ من تلك التي يعيشها فلاحو أوربا الغربية في القرن السادس عشر.

وكان الإمبراطور ألكسندر الثاني يريد إلغاء نظام الرق ونظام عبودية الفلاحين لدى كبار الملاك والذي عرف بنظام القنانة ولذلك فقد قام بتحرير الفلاحين[1] في العام 1861م كان أهم حدث في القرن 19 في التاريخ الروسي، وكان ذلك بداية نهاية احتكار الطبقة الارستقراطية للسلطة. الطبقة الوسطى التي نمت من حيث العدد والنفوذ، ولكن بدلًا من الحصول على أراضيهم كهدية، اضطر الفلاحون «الأقنان» الذين أطلق سراحهم لدفع ضريبة خاصة إلى الحكومة على مدى الحياة، والتي بدورها دفعت ثمنًا للملاك من أجل الأرض التي فقدوها.

في أواخر 1870م اشتبكت روسيا والإمبراطورية العثمانية مرة أخرى في منطقة البلقان. من 1875 لعام 1877م فقد تصاعدت أزمةُ البلقان مع التمرد ضد الحكم العثماني من قبل القوميات السلافية المختلفة، والتي قمعها العثمانيون الذي نظر إليه كقسوة كبيرة في روسيا.

في أوائل عام 1877، تدخلت روسيا نيابة عن القوات الصربية والروسية المتطوعة عندما ذهبت إلى الحرب مع الإمبراطورية العثمانية. في غضون سنة واحدة، كانت القوات الروسية تقترب من القسطنطينية، واستسلم العثمانيون.

أقنع الدبلوماسيون القوميون وجنرالات روسيا الإسكندر الثاني بإجبار الدولة العثمانية على توقيع معاهدة سان ستيفانو في مارس 1878م، والتي صنعت بلغاريا المستقلة التي امتدت إلى جنوب غرب البلقان. وعندما هددت بريطانيا بإعلان الحرب على بنود معاهدة سان ستيفانو، تراجعت روسيا.

1- كان الفلاحون «الأقنان» عبيدًا في الأرض يعملون لصالح الإقطاعيين الأمراء.

في مؤتمر برلين في يوليو 1878م، وافقت روسيا على إقامة بلغاريا أصغر. نتيجة لذلك، ترك القومية السلافية ضد النمسا والمجر وألمانيا لفشلهم في العودة إلى روسيا. خيبة الأمل نتيجة حفزت التوترات الثورية في البلاد.

انتهى أمر الإمبراطور الكسندر الثاني بالاغتال من قبل منظمات ماسونية هي «نارودنايا فوليا»، وهي منظمة إرهابية مجهولة، في عام 1881م، وتولى العرش ابنه ألكسندر الثالث «1881-1894م»، الذي أحيا القول المأثور لنيكولاس الأول: «الاستبداد، الأرثوذكسية، واحترام الشعب». [1]

اعتقد الكسندر الثالث أنه يمكن إنقاذ روسيا من الفوضى بإبعاد نفسه عن التأثيرات الهدامة في أوربا الغربية.

كان «قسطنطين بوبيدونوستيفم» مستشار القيصر الأكثر نفوذًا، ومعلم الكسندر الثالث ونجله نيكولاس، والنائب العام للمجمع المقدس من 1880 حتى 1895م، كان يعلم تلاميذه المالكيين الخوف من حرية التعبير والصحافة، وكرههم الديمقراطية والدساتير، والنظام البرلماني.

في عهد «ألكسندر الثالث» تم قتل وقمع الثوريين وتم إضفاء الطابع الروسي في جميع أنحاء الإمبراطورية.

ولكن سياسة القمع لم تفلح في إخماد روح الثورة التي عادت وظهرت من جديد في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وكان ابن ألكسندر الثالث نيقولا الثاني هو آخر القياصرة الروس.

* * *

1- اقرأ كتابنا: أشهر اغتيالات الماسونية، سلسلة حكومة العالم الخفية، الناشر: دار الكتاب العربي، دمشق/ القاهرة.

نهاية الإمبراطورية الروسية
وتحولها إلى الشيوعية «ثورة 1917»

خلف الإمبراطور ألكسندر ابنَه نيقولا الثاني«1894 - 1917م»، وفي بداية القرن العشرين ومع دخول الثورة الصناعية في روسيا، شكل الليبراليون الروس اتحاد زيمتوف الدستوري، «1903م» واتحاد التحرير «1904م» الذي دعا إلى إقامة ملكية دستورية. وانتظم الاشتراكيون الروس في مجموعتين رئيسيتين هما: الحزب الاشتراكي الثوري، وحزب العمل الاشتراكي الديمقراطي الروسي.

في عام 1903م انقسم حزب العمل الاشتراكي الديمقراطي الروسي إلى جناحين في مدينة لندن، المناشفة أو المعتدلين والبلشفية أو المتطرفين.

اعتقد المناشفة بأن الاشتراكية الروسية سوف تنمو تدريجيًّا بشكل سلميّ، وذلك أن نظام القيصر ينبغي أن يتحول إلى جمهورية يتعاون فيها الاشتراكيون مع الأحزاب الليبرالية البرجوازية على بناء الوطن.

دعا البلاشفة بزعامة «فلاديمير لينين» إلى تشكيل نُخبة صغيرة من الثوار المهنيين، تخضع لانضباط الحزب القوي، لتكون بمثابة طليعة الطبقة الكادحة من أجل الاستيلاء على السلطة بالقوة.

وقعت الحرب الروسية اليابانية «1904 - 1905» حيث أدى الخلاف الناجم على امتياز روسيا في غابات كوريا واحتلالها لمنشوريا إلى تفاقم حاد في العلاقات الروسية اليابانية.

وبالرغم من ضعف المواقف الروسية في الشرق الأقصى لم يتنازل نيقولا الثاني عن حقوقه، مما حمل اليابان على البدء في الحرب على روسيا.

وقد تسبب هجوم الأسطول الياباني قبل إعلان الحرب رسميًّا على الأسطول الروسي الراسي في ميناء بورت أرثر ليلة 9 فبراير 1904، تسبب في تعطيل أهم السفن الحربية الروسية وساعد على إنزال القوات اليابانية في كوريا ومنشوريا بدون أن تلقَى مقاومة.

وبدأ اليابانيون بمحاصرة بورت أرثر في مطلع أغسطس 1904 مستفيدين من عدم حسم القيادة الروسية، فأجبرت في 2 يناير 1905 حامية القلعة على الاستسلام؛ وتم تدمير ما تبقى من الأسطول الروسي في بورت أرثر من قبل اليابانيين، أو أن طاقمها الذي قام بنفسه بتفجير السفن.

وفي فبراير 1905، أجبرت اليابان الجيش الروسي على الانسحاب بعد انهزامه في معركة «موكدن» وتدمير الأسطول الروسي الذي نقل إلى الشرق الأقصى من بحر البلطيق خلال معركة «تسوشيما» في 14-15 مايو 1905.

وانتهت الحرب بعقد معاهدة السلام في مدينة بورت سموث 23 أغسطس 1905، وبموجب شروط السلام تنازلت روسيا عن حقوقها بالقسم الجنوبي من جزيرة ساخالين» وحقها باستئجار شبه جزيرة «لياو تونج» والسكة الحديد في منشوريا الجنوبية.

كانت نهاية الحرب بهزيمة مفجِعة للجيش الروسي أمام القوة اليابانية الناشئة في ذلك الوقت ما قلب موازين القوى في منطقة الشرق الأقصى، مما كان لديه أكبر الأثر في استنزاف موارد الدولة الروسية، وكان له دور كبير لكشف الفساد الحادث في مؤسسات الدولة الروسية، واعتبرت تلك الهزيمة بمثابة نهاية العصر الإمبراطوري لروسيا، فقد أدت تلك الهزيمة إلى حدوث قلاقل. حيث إنه في شهر يناير من سنة 1905 وقعت الأحداث المعروفة باسم الأحد الدامي، إذ قاد الأب «جورجي غابون» حشدًا هائلًا من الناس إلى قصر الشتاء في سانت بطرسبرج لرفع عريضة إلى القيصر

المهزوم وعندما وصل الموكب إلى القصر فتح القوزاق النار على المتظاهرين، مما أسفر عن مقتل المئات.

وتطورت الأحداث إلى إعلان المطالبة بالجمهورية. وكانت هذه علامة على بداية الثورة الروسية عام 1905م، وظهر ما يعرف بالسوفييت «مجالس العمال» في معظم المدن لمباشرة النشاط الثوري وحث الناس عليه.

فحين كانت الحكومة والإمبراطور الروسي في موقف لا يُحسدون عليه ولا يقدر الإمبراطور على الدفاع عن عرشه الذي انهار أمام ضربات الثوار والشعب الغاضب من حكمه.

في شهر أكتوبر من سنة 1905 أصدر نيقولا الثاني بيان أكتوبر الشهير على مضض، وأقر فيه إنشاء مجلس الدوما «البرلمان» ودعوته للانعقاد دون تأخير، وشمل الحق في التصويت عدة فئات شعبية ولم يطبق أي قانون دون الحصول على الموافقة عليه من مجلس الدوما.

وكان هذا من شأنه إرضاء الجماعات المعتدلة، لكن الاشتراكيين رفضوا التنازلات التي قالوا إنها غير كافية وحاولوا تنظيم إضرابات جديدة.

بحلول نهاية عام 1905م كان هناك انقسام بين الإصلاحيين، فكان عاقبة ذلك أن تعزز موقع القيصر لفترة من الزمن.

دخل القيصر نيقولا الثاني ورعاياه في الحرب العالمية الأولى بحماسة يدفعها شعورهم الوطني وإحساسهم القومي أي الدفاع عن أخوة الروس من السلاف الأرثوذكس، والصرب ضد معسكر دول المحور.

في أغسطس من سنة 1914م دخل الجيش الروسي ألمانيا لدعم الجيوش الفرنسية. صوَّرت الانقلابات العسكرية المناهضة للإمبراطور الحكومة الروسية على أنها غير كفء لتولي شؤون البلاد والعباد، وسرعان ما أدّى ذلك إلى إثارة غضب الكثير من الناس وزيادة نقمتهم على الدولة والنظام الحاكم.

بحلول منتصف سنة 1915م انخفضت معنويات الجنود الروس وسرت شائعات بنفاد قريب للمواد الغذائية والوقود وبازدياد عدد الضحايا «على الرغم من بقائه أقل من عدد ضحايا باقي الدول المتحاربة»، وبأن معدل التضخم يتصاعد دفع كل ذلك لارتفاع عدد الإضرابات التي قام بها عمال المصانع ذوو الأجور المحدودة، وكانت هناك تقارير تفيد بأن الفلاحين الذين كانوا يطالبون بالإصلاح الزراعي قد ضاقت صدورهم وأنهم على وشك الثورة ولم يعد للدولة هيبتها المفقودة.

بتاريخ 3 مارس سنة 1917 تم تنظيم إضراب من قبل عمّال أحد المصانع في العاصمة سانت بطرسبرج؛ وفي غضون أسبوع تقريبًا توقف جميع العاملين في المدينة عن متابعة أعمالهم واندلع القتال في الشوارع.

ثم تفجرت ثورة فبراير عندما حل القيصر مجلس الدوما وأمر المضربين بالعودة إلى العمل.

رفض مجلس الدوما الانحلال وعقد المضرِبون اجتماعات جماهيرية تحديًا للنظام ووقف الجيش علنًا إلى جانب العمال. وبعد بضعة أيام أنشأت حكومة مؤقتة برئاسة غريغوري لفوف المسمى من قبل مجلس النواب، وفي اليوم التالي ألقي القبض على القيصر وأعلن أنه قد تنازل عن الحكم.

تم إعدام نيقولا الثاني وزوجته وابنه وبناته الأربع وطبيب العائلة وخادم القيصر وسيدة الإمبراطورة وأسرة الطباخ جميعًا في غرفة واحدة على أيدي البلاشفة في ليلة 17 يوليو من سنة 1918، وفي الوقت نفسه، شكل الاشتراكيون في سانت بطرسبرج مجلسًا من العمال والجنود المعاونين لتزويدهم بالشعبية والسُّلطة التي افتقدوها في مجلس الدوما.

وهكذا انتهى العصر الإمبراطوري الروسي ليبدأ عصر جديد عصر الجمهورية البلشفية السوفييتية.

* * *

ظهور الاتحاد السوفييتي

في أعقاب ثورة أكتوبر اندلعت حرب أهلية بين الحركة البيضاء المناهضة للشيوعية والنظام الجديد بجيشه الأحمر. خسرت روسيا أراضيها في كل من أوكرانيا، بيلاروسيا، لتوانيا، لاتفيا، إستونيا، وفنلندا بموجب معاهدة بريست ليتوفسك التي وقعتها روسيا في 3 مارس عام 1918، وأفضت المعاهدة أيضًا إلى خروج روسيا من الحرب العالمية الأولى، قامت قوات الحلفاء بتدخل عسكري فاشل دعما للقوات المناهضة للشيوعية بينما كان كل من البلاشفة والحركة البيضاء تقومان بتنفيذ حملات ترحيل وإعدام ضد بعضها البعض والمعروفة على التوالي باسم: الرعب الأحمر والرعب الأبيض.

شكلت جمهورية روسيا السوفييتية الاتحادية الاشتراكية مع ثلاث جمهوريات سوفييتية أخرى الاتحاد السوفياتي، أو اختصارا: USSR، في 30 ديسمبر 1922. كانت جمهورية روسيا السوفييتية الاتحادية الاشتراكية الأكبر من حيث الحجم والتي تشكل أكثر من نصف مجموع سكان الاتحاد السوفياتي وهي التي بقيت تهيمن على الاتحاد طيلة تاريخه البالغ 69 عامًا بكاملها.

بعد وفاة لينين في عام 1924 نجح «جوزيف ستالين» الذي انتخب سكرتيرًا عامًا للحزب الشيوعي، في إخماد كل المجموعات المعارضة داخل الحزب وتعزيز سلطة كبيرة في يديه.

كان ليون تروتسكي في المنفى وكان مؤيدا رئيسيا لثورة عالمية ضد الاتحاد السوفياتي في عام 1929 حيث أصبحت الاشتراكية فكرة ستالين التي سيطبقها في مكان ما.

استمر النضال الداخلي في الحزب البلشفي وبلغت ذِروته في عملية تطهير كبرى وهي فترة من القمع الشامل بين عامي 1937 و1938 والتي أعدم فيها مئات الآلاف من الناس بمن فيهم القادة العسكريين الذين أدينوا بمؤامرات وانقلابات.

أطلقت الحكومة الاقتصاد المخطط، التصنيع في المناطق الريفية من البلاد، والعمل الجماعي بالزراعة خلال هذه الفترة حدثت تغيرات سريعة شهدها الاقتصاد والحياة الاجتماعية، وأرسلت الملايين من الناس إلى معسكرات العمل الجنائي ثم النفي، وشملت تلك العملية العديد من المحكومين السياسيين، وتم نفي الملايين إلى المناطق النائية من الاتحاد السوفياتي.

قادت الفوضى والسياسات الزراعية في البلاد مع سياسات الدولة القاسية والجفاف إلى حدوث مجاعة في عاميْ 1932 و1933.

ومع أنه كان لذلك ثمن باهظ فقد تحول الاتحاد السوفياتي من اقتصاد زراعي بشكل أساسي إلى قوة صناعية كبرى في فترة قصيرة من الزمن.

كان لسياسة الاسترضاء التي اتبعتها بريطانيا العظمى وفرنسا مع أدولف هتلر عند ضمه لكل من الرور والنمسا وتشيكوسلوفاكيا، وقيامه بتوسيع ألمانيا النازية أثر كبير في توتر علاقات ألمانيا مع الاتحاد السوفياتي، حتى أضحت الحرب بينهما أمرًا قريبًا.

في نفس الوقت تقريبًا تحالف الرايخ الألماني مع الإمبراطورية اليابانية المنافسة للاتحاد السوفياتي في الشرق الأقصى، والتي تملك روسيا معها ملفات حروب قديمة حدثت في الفترة ما بين عامي 1938 و1939.

في أغسطس 1939 وبعد فشل آخر المحاولات السوفييتية لإقامة تحالف لمكافحة النازية مع كلٍّ من بريطانيا وفرنسا، وافقت الحكومة السوفييتية على القيام بإبرام ميثاق مولوتوف ريبنتروب مع ألمانيا وتعهدت بعدم الاعتداء بين البلدين وتقسيم مناطق النفوذ في شرق أوربا.

كان هتلر حين غزوه بولندا وفرنسا ودول أخرى في بداية الحرب العالمية الثانية قد صب اهتمامه على جبهة واحدة لم تكن بطبيعة الحال جبهة الاتحاد السوفييتي، لهذا كان الأخير وقتها قادرًا على بناء قوته العسكرية واستعادة بعض الأراضي السابقة للإمبراطورية الروسية كان قد فقدها خلال الغزو السوفياتي لبولندا وحرب الشتاء.

في 22 يونيو 1941 نقضدت ألمانيا النازية معاهدة عدم الاعتداء، واجتاحت الاتحاد السوفياتي بقوة كانت الأكبر والأقوى في تاريخ البشرية، وبعملها هذا فتح أكبر مسرح للحرب العالمية الثانية. على الرغم من أن الجيش الألماني حقق نجاحا كبيرا في بادئ الأمر إلا أن هجومه توقف في معركة موسكو. فيما بعد تلقى الألمان هزيمتين كبيرتين الأولى في معركة ستالينغراد في شتاء 1942-1943، ثم في معركة كورسك في صيف عام 1943.

كان هناك فشل ألماني آخر وهو حصار لينينغراد والتي كانت محاصرة تماما بين عامي 1941 و1944 من قبل القوات الألمانية والفنلندية، ويذكر أن المعاناة والجوع أودت بحياة أكثر من مليون إنسان من أهل المدينة، لكن لينينغراد لم تستسلم أبدا.

تحت إدارة ستالين والقيادات من أمثال جورجيْ جوكوف وقنسطنطين روكوسوفسكي، تقدمت القوات السوفياتية نحو أوربا الشرقية في الفترة بين عامي 1944 و1945 واستولت على برلين في مايو 1945.

في أغسطس عام 1945 أطاح الجيش السوفياتي باليابان من جهة مانشوكو-الصين وكوريا الشمالية، وساهم في انتصار الحلفاء على اليابان.

تعرف الفترة الممتدة بين عاميْ 1941 و1945 من الحرب العالمية الثانية في روسيا على أنها حرب وطنية، تكبد الروس في هذا الصراع الذي شمل العديد من عمليات القتال الأكثر فتكا في تاريخ البشرية خسائر بشرية ضخمة، حيث كانت وفيات المدنيين والعسكريين من الاتحاد السوفييتي الأكبر بين القوات المتنازعة في الحرب العالمية

الثانية، وبالأرقام وصلت خسائرها من العسكريين إلى 10,6 مليون، و15,9 مليون من المدنيين، حيث كانت نسبة الخسائر البشرية للاتحاد السوفييتي من جميع ضحايا الحرب الثلث.

كما مُني الاقتصاد والبنية التحتية السوفييتية بخسائر هائلة، لكن ذلك أدى، على الأقل، أن يبرز الاتحاد السوفييتي كقوة عظمى معترف بها. احتل الجيش الأحمر شرق أوربا بعد الحرب العالمية الثانية، وكانت ألمانيا الشرقية من ضمن ما احتله. أصبح الاتحاد السوفياتي ثاني قوة نووية وأنشأ حلف وارسو ودخل في صراع من أجل الهيمنة على العالم عرفت باسم الحرب الباردة مع الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي.

صدَّر الاتحاد السوفياتي أيديولوجيته الشيوعية إلى جمهورية الصين الشعبية المتشكلة حديثا وكوريا الشمالية وبعد ذلك إلى كوبا وبلدان كثيرة أخرى.

كما خصصت مبالغ كبيرة من الموارد السوفياتية في تقديم المساعدات للدول الاشتراكية الأخرى.

بعد وفاة ستالين، ندد الزَّعيم الجديد «نيكيتا خروتشوف» بعقيدة ستالين الشخصية وبدأت سياسة اجتثاث الستالينية. وعمل على إصلاح نظام العقوبات وأطلق سراح العديد من السجناء وأعاد تأهيلهم.

كما أنه أرسى الدعائم الأولى لسياسة الانفراج الدولي والتعايش السلمي التي تعتبر ردة عن القواعد اللينينية الشيوعية.

في الوقت نفسه زاد التوتر مع الولايات المتحدة عندما اشتبك الخصمان حول نشر صواريخ جوبيتر الأمريكية في تركيا ونشر الصواريخ السوفياتية في كوبا.

في أعقاب تنحي نيكيتا خروتشوف في عام 1964 انتخب «ليونيد بريجنيف» زعيمًا للاتحاد السوفييتي.

ازدادت في عهده قوة المافيا وانتشارها بشكل واسع وملحوظ وتباطأ النمو الأقتصادي والسياسات الاجتماعية أصبحت ثابتة وغير مجدية.

في عام 1979 دخلت القوات السوفياتية أفغانستان بناء على طلب من حكومتها الشيوعية. استنزفت الموارد الاقتصادية للاحتلال السوفييتي وبقي بدون تحقيق نتائج سياسية ذات مغزى.

في نهاية المطاف تم سحب الجيش السوفياتي من أفغانستان في عام 1989 بسبب المعارضة الدولية واستمرار حرب العصابات ضد السوفييت «معززة من قبل الولايات المتحدة»، وعدم وجود تأييد من الشعب السوفييتي لهذه الحرب.

من عام 1985 فصاعدا أصبح الضعف في هياكله الاقتصادية والسياسية حادًّا وشرع الزعماء الشيوعيون في إجراء إصلاحات كبيرة وقدم الزعيم السوفياتي ميخائيل غورباتشوف سياسات الغلاسنوست «الانفتاح» والبيريسترويكا «إعادة الهيكلة» في محاولة لتحديث البلاد وجعلها أكثر ديمقراطية.

ورغم ذلك استمرت الحركات القومية والانفصالية في التصاعد.

في أغسطس عام 1991، حدثت انقلاب عسكري فاشل موجه ضد غورباتشوف كان يرمي إلى الحفاظ على الاتحاد السوفياتي، لكنه بدلًا من ذلك أدى إلى نهاية الحكم الاشتراكي. تم حل الاتحاد السوفياتي إلى عدّة دول في 15 ديسمبر 1991.



* * *

الحروب الروسية العثمانية

شهدت العلاقات بين الإمبراطورية الروسية والدولة العثمانية حروبا وصراعات، فالإمبراططورية الروسية هي زعيمة الأرثوذكس في أوربا والتي كنت تمثله الإمبراطورية الرومانية قبل انتهاء دولتهم، وكانت الإمبراطورية العثمانية تمثل العالم الإسلامي بوصفها دولة الخلافة الإسلامية.

والتحالف الأرثوذكسي الشرقي بقيادة الإمبراطورية الروسية كان يتألف من العديد من دول البلقان، وقد بدأت الحرب بعد فشل مؤتمر ترسانة.

وهكذا اتسمت العلاقات بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية بقدر كبير من العداء والدموية، فمنذ سيطْرة القياصرة على الحكم في روسيا، امتلك الروس شهوة استعمارية والأطماع التوسعية في أن تكون روسيا دولة كبرى على مسرح السياسة الأوربية والدولية، واختلطت هذه الأطماع في بعض الأحيان بعواطف دينية متعصِّبة، متمثِّلة في حماية الأرثوذكس في العالم، والسيطرة على القسطنطينية التي فتحها السلطان محمد الفاتح، وكذلك السيطرة على الأماكن المقدَّسة المسيحية في فلسطين.

سادت فترة من السلام بين الدولة العثمانية وروسيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي بعد حروب طاحنة واشتباكات دامية أثقلت كاهل الدولتين، وكان وراء هذه السياسة السلمية الصدر الأعظم خوجة راغب، بعقده معاهدة صلح مع روسيا العدو اللدود لبلاده.

غير أن هذه السياسة لم تستمر طويلًا، واشتعلت العداوة من جديد، وتربص كل واحد بالآخر، ولم يكن هناك من ينزع فتيل الأزمة بين الدولتين بعد وفاة «خوجة راغب» الصدر الأعظم السياسي المحنك، ولم تكن الدولة العثمانية مستعدة لتحمل تبعات حرب بعد فترة سلام طويلة دامت نحو 29 سنة، لم يقم الجنود العثمانيون خلالها بأية عمليات عسكرية، ففترت همتهم، وضعفت كفاءتهم العسكرية، في الوقت الذي كانت فيه «كاترين الثانية» إمبراطورة روسيا تعد جيشها وتجهِّزه للحرب والقتال.

أعلن السلطان مصطفى الثالث، الحرب على روسيا في 25 سبتمبر 1768. وقد شكل الأتراك تحالفًا مع قوات المعارضة البولندية من اتحاد بار، بينما كانت روسيا مدعومة من بريطانيا العظمى، التي أمدت البحرية الإمبراطورية الروسية بالمستشارين البحريين.

لقيت المعارضة البولندية هزيمة على يد أليكساندر سوفوروف، الذي انتقل بعد ذلك إلى مسرح العمليات التركي، حيث أحرز في عامي 1773-1774، العديد من الانتصارات في معارك صغيرة وكبيرة.

وفي 27 سبتمبر 1770م، استولى الجيش الروسي على قلعة «بندر» العثمانية الهامة على الساحل الجنوبي من نهر دنيستر، وقد ذبح الروس كافة المسلمين الموجودين بالسيف.

العمليات البحرية لأسطول البلطيق الروسي في البحر المتوسط، أحرزت انتصارات أكثر وهجًا تحت قيادة القائد «ألكسي كريكوريفيتش أورلوف». ففي 1771م، ثارت كل من مصر وسوريا ضد الحكم العثماني، بينما قام الأسطول الروسي بتدمير كامل للبحرية العثمانية في معركة «شيسما».

وبالرغم من نجاحهم البحري، إلا أن الروس لم يستطيعوا الاستيلاء على إسطنبول

بسبب تقوية تحصينات البسفور والدردنيل بمساعدة المستشار العسكري الفرنسي «بارون ده توت».

دار القتال في البلقان والقوقاز، ترجع أسباب الحرب إلى تصاعد الروح القومية في القرن التاسع عشر بمنطقة البلقان. بالإضافة إلى عوامل أخرى منها التطلعات الروسية لاسترداد الأراضي التي خسرتها أثناء حرب القرم، معيدةً نفسها للبحر الأسود، وداعمةً الحركة السياسية الساعية لتحرير دول بلقان من الحكم العثماني.

أسفرت الحرب عن تمكن روسيا من المطالبة بعدة أقاليم في القوقاز وهي قارص، وباطومي.

كان لإمارات رومانيا التي أجبرها الروس على التخلي عن منطقة بودجاك في دلتا الدانوب رغم وجود معاهدة تحالف قائمة بين البلدين وصربيا والجبل الأسود السيادة بحكم الأمر الواقع لبعض الوقت، وأعلن رسميًّا الاستقلال عن الدولة العثمانية.

بعد ما يقرب من خمسة قرون من الهيمنة العثمانية «1396-1878»، أعيد تأسيس الدولة البلغارية في إمارة بلغاريا، وهي تغطي الأراضي الواقعة بين نهر الدانوب وجبال البلقان باستثناء دبروجة الشمالية التي أعطيت لرومانيا، فضلًا عن المنطقة صوفيا، والتي أصبحت عاصمة للدولة الجديدة.

سمح مؤتمر برلين أيضًا للإمبراطورية النمساوية المجرية باحتلال البوسنة والهرسك، وللمملكة المتحدة بتولي قبرص.

وأدرك الروس أن تحقيق هذه الأطماع المتشابكة لن يتم إلا بالقضاء على الدولة العثمانية، خاصة في منطقتي آسيا الوسطى والبلقان، والسعي إلى تقسيم الأملاك العثمانية بين الدول الكبرى، تمهيدا لوصول روسيا إلى المياه الدافئة، وهو الحلم الذي ظل يراود الروس فترة طويلة من الزمن، وأدرك الروس أن ذلك لن يتحقق إلا بوجود قدر من التوافق بين روسيا والدول الأوربية الكبرى.

في 1770م أبحر الأسطول الروسي في بحر البلطيق، بسبب كون البحر الأسود بحيرة عثمانية مغلقة تفرض الدولة العثمانية سيطرتها عليه، فأبحر الأسطول الروسي إلى المحيط الأطلسي، واجتازه إلى البحر المتوسط، وحين أخبر السفير الفرنسي السلطان العثماني «الباب العالي» بتحرك الأسطول الروسي، لم يتحرك أحد من القادة والوزراء، ولم يصدقوا أن يقوم أسطول العدو باجتياز تلك البحار إلى المياه العثمانية، وتقابل الأسطولان في شمال جزيرة «خيوس» ببحر إيجه، واستمر القتال أربع ساعات انتصر بعدها العثمانيون.

عاد الأسطول العثماني بعد إحراز النصر إلى ميناء جِشْمة بالقرب من أزمير، وتبعتهم سفينتان صغيرتان من مراكب الروس، وظن العثمانيون أنهما فارتان وترغبان في الانضمام إليهم، فلم يتعرَّضوا لهما، وما إن دخلا الميناء حتى ألقيا النيران على السفن العثمانية التي كانت ترسو متراصة بعضها إلى بعض فاشتعلت فيها النيران بسرعة، وانفجرت المعدات الموجودة بالسفن، وسرعان ما احترق الأسطول العثماني برمته في «5 يوليو 1770م»، وأحدث هذا الانتصار دويًّا هائلًا في أوربا.

ثم تقدم الروس فاستولوا على بلاد القرم، وأعلنوا انفصالها عن الدولة العثمانية واستقلالها تحت حماية روسيا، وأقاموا حاكمًا عليها باسم كاترين الثانية إمبراطورة روسيا.

واضطرت الدولة العثمانية إلى عقد هدنة مع روسيا في «9 ربيع الأول 1186هـ، 10 يونيو 1772م» غير أن روسيا تعسَّفت في مطالبها لإمضاء الهدنة؛ إذ اشترطت اعتراف الدولة العثمانية باستقلال تتار القرم، وطالبت بحرية الملاحة لسفن روسيا التجارية في البحر الأسود وجميع بحار الدولة العثمانية، ولما لم تقبل الدولة هذه الشروط انفض المؤتمر الذي عقد بين الدولتين لهذا الغرض.

وانتهت تلك الحرب بانتصار الروس وإبرام معاهدة «كوجوك كاينارجا»

فـي 28 مادة ومادتين منفصلتين، وقد أورد نصها محمد فريد في كتابه «تاريخ الدولة العلية»، وبمقتضى هذه المعاهدة انفصلت خانية القرم عن الدولة العثمانية، وأصبحت دولة مستقلة، لا ترتبط بالدولة إلا قيام شيخ الإسلام في إستانبول بتنظيم الشؤون الدينية للقرم، ونصت المعاهدة على منح الأفلاق والبغدان «رومانيا» الاستقلال الذاتي تحت السيادة العثمانية، مع إعطاء روسيا حق التدخل في اختيار حكامها، وأعطت المعاهدة لروسيا حق رعاية السكان الأرثوذكس الذين يعيشون في البلاد العثمانية، وكان هذا الاعتراف ذريعة لروسيا في أن تتدخل في شؤون الدولة العثمانية. (1)

جاءت المعاهدة ضربة قاصمة للسياسة العليا للدولة العثمانية فيما يختص بسيادتها على البحر الأسود والمضايق، فقد قررت المعاهدة أن تكون الملاحة للسفن الروسية التجارية حرة ومفتوحة وغير مشروطة، ويكون لها الحق في حرية المرور في المضايق بين البحر الأسود والبحر المتوسط، وحرية دخول الثغور والموانئ الواقعة على ساحل البحر الأسود، وممارسة التجارة فيها.

وكانت الدولة العثمانية في إبّان قوتها تفرض سيطرتها الكاملة على البحر الأسود والمضايق، واحترمت الدول هذه السياسة، إلى حد أنه إذا أراد الرعايا الروس ممارسة التجارة بين موانئ البحر الأسود، كان عليهم أن ينقلوا بضائعهم على سفن عثمانية تحمل العلم العثماني.

وقررت المعاهدة أن تكون تحت سيطرة روسيا بصورة كاملة ودائمة عدة مواقع وقواعد عسكرية عثمانية، مثل: قلعة كينبرن التي تقع عند مصب نهر دنيبر، وقلعة جنيكال وقلعة كيرتش الواقعتين في شبه جزيرة القرم، ومدينة آزوف بمنطقتها وحدودها، وهو ما أفقد الدولة سيطرتها على منطقة القرم وأضعف قبضتها على البحر المتوسط.

1- انظر كتاب: تاريخ الدولة العلية، محمد بك فريد.

وألزمت المعاهدة أن تدفع الدولة العثمانية غرامات حرب لأول مرة في التاريخ، فدفعت 15.000 كيس من الذهب للروس.

وبهذه الشروط القاسية في تلك المعاهدة «كيتشوك كاينارجي» رفعت روسيا دفعة واحدة إلى مصاف الدول القوية بعد إنجلترا وفرنسا، وأنزلت الدولة العثمانية من القمة إلى السطح، وأنهت سيطرة الدولة العثمانية على البحر الأسود باعتباره بحيرة عثمانية، وكانت بداية طريق الضعف والاضمحلال، وظهور ما يسمّى بالمسألة الشرقية. (1)

ومن أشهر الحروب التي دارت بين الإمبراطورتين هي حرب القرم وهي حرب قامت بين الإمبراطورية الروسية والدولة العثمانية في 4 أكتوبر 1853، واستمرت حتى 1856م، وهذه الحرب كانت جزءًا من الصراع الروسي مع الأتراك العثمانيين؛ وكان مسرح الحرب منطقةَ البلقان حيث قام 35 ألف جندي روسي باحتلال رومانيا التي كانت تابعة للدولة العثمانية، وأعلنت روسيا أن سبب ما فعلته من أجل حماية الأرثوذكس وكنيسة القيامة بالقدس.

وقد دخلت في هذه الحرب بجانب العثمانيين مصر وتونس وبريطانيا وفرنسا إلى جانب الدولة العثمانية في 1854م التي كان قد أصابها الضعف، ثم لحقتها مملكة «سردينيا» التي أصبحت فيما بعد «1861م» مملكة إيطاليا.

وكان أسباب تلك الحرب الأطماع الإقليمية لروسيا على حساب الدولة العثمانية وخاصة في شبه جزيرة القرم التي كانت مسرح المعارك والمواجهات، وانتهت حرب القرم في 30 مارس 1856م بتوقيع اتفاقية باريس وهزيمة الروس.

كان القيصر الروسي نيقولا الأول متعصبًا دينيًّا، ويدرك أن حركة التجديدات والإصلاحات داخل الدولة العثمانية سوف تنعكس بصورة أو بأخرى على الأطماع

1- انظر: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، عبدالعزيز محمد الشناوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1984م.

والنفوذ الروسي خاصة في منطقة البلقان، لأن تقوية الدولة العثمانية تعني ألا تصل روسيا إلى المياه الدافئة.

ورأى نيقولا أن نجاح العثمانيين في توطيد علاقتهم ببريطانيا سياسة شريرة تتبعها الدولة العثمانية للإضرار بالمصالح الروسية، ولذا قرر أن يختم حياته بتأديب الدولة العثمانية، لكنه أدرك أن قيامه بهذا السلوك المعادي ضد العثمانيين لن يتم بدون موافقة بريطانيا، ولذا عقد القيصر لقاء مع السفير البريطاني في مدينة سانت بطرسبرج الروسية، وتناول اللقاء عرضا روسيا باقتسام الدولة العثمانية أو على الأقل تقليم أطرافها.

أرادت بريطانيا أن تنصب مصيدة بعناية لإيقاع روسيا في حرب ضد الدولة العثمانية لاستغلال هذه الحرب في توجيه ضربة عنيفة لروسيا تدفعها للارتداد خلف حدودها مرة أخرى، وتحجبها عن الظهور على مسرح السياسة الأوربية ولذا أطلعت بريطانيا العثمانيين على حقيقة النوايا الروسية السرية.

لم يدرك الإمبراطور الروسي «نيقولا الأول» المتعصب دينيًّا لمذهبه الأرثوذكسي حقيقة أن تقف دولة مسيحية مثل بريطانيا «الكاثوليكية» مع العثمانيين «المسلمين» ضد روسيا المسيحية، وكان يعتقد أنه سيقاتل الدولة العثمانية بمفردها، وأنه سيحقق انتصارًا سهلًا عليها، يمكنه من انتزاع ولو بعضا من المكاسب كالتي حققتها روسيا في «معاهدة أونكيار سكلسي» التي وقعتها روسيا مع الدولة العثمانية في «8 يوليو 1833م»، ونصت على إغلاق المضايق التركية أمام جميع السفن الحربية، بينما سمحت للأسطول الروسي بدخول مضيق البوسفور للدفاع عن الأستانة، وبذلك تحررت روسيا من كثير من التهديدات البريطانية والفرنسية في البحر الأسود.

ولم تغب فرنسا عما يجري حيث كانت تعتبر بريطانيا أكبر منافس استعماري لها في العالم، وتحالف لندن مع الدولة العثمانية دونها يعني تمكن بريطانيا من تحقيق

كثير من الأطماع الاستعمارية في الدولة العثمانية على حساب المطامع الفرنسية ولذا قررت باريس أن تبني موقفها بالتحالف مع بريطانيا.

وأدرك الفرنسيون أن دخول بريطانيا الحرب لمساندة العثمانيين يحتم على باريس أن تدخل هي الأخرى إلى تلك الحرب، حتى لا تستحوذ بريطانيا على الموقف الأقوى في السياسة العالمية.

حين رأت الدولة العثمانية التنافس بين الدول الكبرى على إدارة الأماكن المقدَّسة للمسيحيين في فلسطين عملت على حفظ التوازن بين هذه الدول، لكن ضغوط بعض الدول الكبرى، جعلت العثمانيين يمنحون بعض الدول امتيازات خاصة، فقام السلطان العثماني بمنح امتيازات جديدة عام «1852م» للكاثوليك الذين كانت فرنسا تمثلهم، وهو مايعني أنه خضع للضغوط الفرنسية.

أرسل القيصر الروسي بعثة دبلوماسية إلى إستانبول رأسها السفير الروسي فوق العادة «منشكوف» الذي كان يشغل منصب وزير البحرية، للتفاوض مع السلطان العثماني في قضية الأماكن المقدسة، والحصول على امتيازات للرعايا الأرثوذكس في الدولة العثمانية، إلا أن مسعى هذه السفارة الحقيقي كان السعي إلى إيجاد المبرر لحرب الدولة العثمانية.

طلب منشكوف من العثمانيين تنحية الرهبان الكاثوليك، وأن يكون الرهبان الأرثوذكس هم أصحاب الكلمة العليا في الأماكن المقدسة المسيحية بالقدس، بحيث تكون لهم حرية التصرف بمفتاح كنيسة المهد في بيت لحم وبالنجم الذي وضعه الأرثوذكس في المكان المفترض لولادة المسيح، وأن يكون للأرثوذكس الولاية على قبر مريم العذراء في الجسمانية، وإصدار الأمر بإنشاء القبة الكبرى لكنيسة القيامة من قبل بطريركية الروم الأرثوذكس بواسطة الحكومة العثمانية وبمساعدتها دون إشراك الكاثوليك أو غيرهم من المسيحيين، كذلك طلب عقد اتفاقية تعلن بوضوح أن جميع

المسيحيين في الديار المقدسة تحت الحماية الروسية، وطالب أيضًا بتنحية وزير الخارجية العثماني فؤاد أفندي من منصبه بسبب علاقاته الوثيقة مع الدول الغربية.

أدركت بريطانيا أن تجاوب الباب العالي مع المطالب الروسية معناه زيادة النفوذ الروسي على حسابها، ولذا استدعت بريطانيا أبرز دبلوماسيها وهو السير ستراتفورد لإحباط هذه المساعي الروسية.

كما أرسلت فرنسا بعض وحدات من أسطولها إلى المياه العثمانية، وبدأت باريس ولندن تعملان على تحويل مهمة منشكوف من كونها خلافا مذهبيا بين الكاثوليك والأرثوذكس إلى كونها خلافًا سياسيًّا بين العثمانيين والروس، ولهذا شجع السفير البريطاني في الأستانة الدولة العثمانية على الوقوف في وجه الأطماع الروسية، مؤكدا للأستانة وقوف فرنسا وبريطانيا إلى جانب العثمانيين في أي حرب قادمة مع الروس.

نجحت الدبلوماسية البريطانية في إقناع السلطان العثماني باستصدار فرمان للتجاوب مع المطالب الروسية فيما يتعلق بالأماكن المقدسة في القدس، وبذلك ضيعت بريطانيا على روسيا حجة الخلاف المذهبي لتصعيد لهجة العداء مع الدولة العثمانية.

أدى قبول السلطان العثماني للمطالب الروسية منشكوف على أن يعلِن بصلف واضح عن طبيعة مهمته في الأستانة، وتقدم بمطالب جديدة منها ضرورة إعلان استقلال الجبل الأسود.

ناقش البريطانيون مع السلطان العثماني مطالب منشكوف الجديدة، وحثته على رفضها، فأرسل الباب العالي العثماني إلى منشكوف يعلمه بأن مطالبه ماهي إلا اعتداء صريح على حقوق السلطان العثماني، وتدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية، وخروج على مهمته التي انتهت بصدور فرمان بخصوص الرهبان الكاثوليك في القدس، ورفض الباب العالي تغيير الأوضاع في البلقان إلا بعد التباحث وموافقة الدول الكبرى.

أثار الرفض العثماني غضب منشكوف، وأرسل بدوره رسالة تحمل صفة الإنذار إلى حكومة الأستانة، طلب فيها أن يعترف السلطان العثماني لروسيا بحق حماية الأرثوذكس حماية مطلقة وغير مقيدة، وكان عددهم في الدولة العثمانية حوالي 10 ملايين نسمة، وأعطى الدولة العثمانية مهلة للرد على مذكرته تنتهي في «10 مايو 1853م»، وأمام الرفض العثماني رحل منشكوف من الدولة العثمانية مستصحبا معه جميع العاملين في السفارة الروسية في إستانبول، وبذلك قطعت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين استعدادا للحرب.

قامت الدولة العثمانية وروسيا بحشد قوات ضخمة على جبهات القتال، وعلى جبهتي الدانوب والقوقاز، واستطاع القائد العثماني عمر باشا أن يلحق هزيمة كبيرة بالروس على نهر الدانوب، وأن يدخل رومانيا. وفي جبهة القوقاز ساند الزعيم الشيشاني الإمام شامل القوات العثمانية أثناء القتال ضد الروس.

أرادت الدولة العثمانية دفع بريطانيا وفرنسا إلى دخول الحرب إلى جوارها، ودبرت إرسال مجموعة من قطع الأسطول البحري العثماني القديمة إلى ميناء سينوب على البحر الأسود، وهي تدرك أن هذه السفن لابد أن يهاجمهما الروس، وبالفعل هاجم الروس هذه السفن وتم إغراقها جميعا، واستشهد حوالي ألفي جندي عثماني، وأثارت هذه المعركة قلقا في الأوساط في لندن وباريس، وحذرت الصحافة في العاصمتين من الخطر الروسي.

عرض الإمبراطور الفرنسي «نابليون الثالث» الوساطة لإنهاء القتال بين العثمانيين وروسيا، إلا أن القيصر الروسي رفض ذلك، خاصة بعد انتصارات عمر باشا في رومانيا، وقال نيقولا الأول: «أشعر أن يد السلطان على خدي»، فبادر نابليون الثالث بالاتفاق مع بريطانيا ضد القيصر، وقبلت لندن العرض الفرنسي بحماسة شديدة، وغادر سفيرا لندن وباريس مدينة سانت بطرسبرج الروسية في 6 فبراير 1854 م، وتم

عقد معاهدة إستانبول في 12 مارس 1854 م، بين الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا، ونصت على ألا تعقد أية دولة من هذه الدول صلحا منفردا مع روسيا، وأن يتفاهم قواد الدول الثلاث في الحرب ضد روسيا، وأن تكون الوحدات الإنجليزية والفرنسية والسفن التابعة لهما في إستانبول خاضعة للقوانين العثمانية.

أعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على روسيا في 27 مارس 1854 م، ونشبت معارك ضخمة في عدة جبهات أثناء حرب القرم، إلا أن أهم هذه المعارك كانت معركة سيفاستوبول التي خاضتها الدول الثلاث للقضاء على القوة البحرية الروسية في البحر الأسود، حيث كانت القاعدة البحرية لروسيا في شبه جزيرة القرم «حاليًا في أوكرانيا» واستمرت المعركة قرابة العام، قتل خلالها حوالي 35 ألف قتيل، وعدد من القادة الكبار من كلا الجانبين، حتى انتهى الأمر بسيطرة الدول الثلاث على الميناء في التاسع من مايو 1855م.

في هذه الأثناء توفي القيصر الروسي نيقولا الأول، وخلفه في الحكم ابنه ألكسندر الثاني الذي شعر بعدم قدرة بلاده على مواصلة الحرب، فقرر التفاوض للسلام، خاصة بعد المذكرة التي تقدمت بها النمسا لروسيا وحذرتها فيها من أن دولا أوربية أخرى قد تدخل الحرب ضدها.

استمرت الحرب أكثر من عامين ونصف، حاربت فيها الدولة العثمانية منفردة في السنة الأولى منها، وتميزت هذه الحرب بمتابعة الصحافة لها، من خلال إرسال مراسلين عسكريين على جبهات القتال.

بعد توقف حرب القرم نشر السلطان العثماني عبد المجيد في 18 فبراير 1856م، فرمانا عرف باسم المرسوم الهمايوني للإصلاحات، والذي اعترف بمجموعة من الحقوق للأقليات الدينية في الدولة العثمانية، وكان هدفه الحقيقي محاولة الدولة العثمانية كسب الرأي العام الأوربي إلى جانبها أثناء المفاوضات لتوقيع معاهدة باريس.

اعترف الفرمان بالمساواة بين جميع رعايا الدولة العثمانية من مسلمين ومسيحيين، وجرّم استخدام تعبيرات تحقر المسيحيين، ونصّ على تجنيد المسيحيين في الجيش العثماني، وإلغاء الجزية، على أن يدفع المسيحيون غير الراغبين في الخدمة العسكرية بدلا نقديا، وأن يمثل المسيحيون في الولايات والأقضية تبعا لأعدادهم في تلك المناطق.

وافتتح مؤتمر باريس في 25 فبراير 1856 وتم توقيع معاهدة باريس بعد 34 يوما من افتتاح المؤتمر في 30 مارس 1856م، وتضمنت عدة نقاط مهمة، منها:

- حرية الملاحة في نهر الدانوب.
- تشكيل لجنة دولية للإشراف على ذلك.
- إعلان حياد البحر الأسود: وكانت هذه المادة كارثة بالنسبة لروسيا حيث أجبر هذا النص روسيا على سحب سفنها الحربية من هذا البحر ونقلها إلى بحر البلطيق، وبالتالي أصبح البحر الأسود بحيرة عثمانية من الناحية الفعلية وليس القانونية.

واعترفت المعاهدة بالاستقلال الذاتي لكل من ولايتي الأفلاق والبغدان «رومانيا حاليًا» ضمن الدولة العثمانية، وأن يتم احترام استقلال الدولة العثمانية وعدم التدخل في شؤونها الداخلية مقابل تعهدها بتحسين أحوال الرعايا المسيحيين في البلقان، واعترف السلطان العثماني بالمساواة التامة بين جميع رعاياه على اختلاف مذاهبهم وأديانهم. وأعلنت الدولة العثمانية قبول مبدأ التحكيم في حالة وقوع خلاف بينها وبين غيرها من الدول، وكان هذا النص مهما في القانون الدولي الناشئ.

وقررت المعاهدة إعادة ميناء سيواستوبول لروسيا، كما احتفظ العثمانيون بحق حماية الأراضي الصربية، ووعدت الدول الكبرى بالعمل على حل أي خلاف ينشأ بين الصرب والعثمانيين.

وثبتت معاهدة باريس امتيازات فرنسا في الأماكن المقدسة المسيحية دون غيرها من الدول، وأضفت عليها الطابع الحقوقي الدولي، حيث إن الامتيازات في السابق كانت نابعة من التعاقد الثنائي بين الدولة العثمانية ذات السيادة على هذه الأماكن وبين فرنسا منفردة.

كان لهذه المعاهدة آثارها على الدولة العثمانية، حيث وقعت بعض المصادمات الطائفية في بعض المناطق في الدولة كما أن هذه المعاهدة عطلت الوجودَ الروسي في البحر الأسود قرابة 15 عاما، حتى تمكن القيصر ألكسندر الثاني من إنهاء معاهدة باريس سنة 1287هـ 1870 م، أثناء الحرب البروسية- الفرنسية.

وأظهرت هذه المعاهدة حقيقة أن المصالح هي التي تصنع الأحداث ومن ثم تصنع التاريخ، فالتحالفات لاتصاغ وفق العقائد الدينية بقدر ما تصاغ وفق المصالح التي تحققها تلك العقائد.(1)

* * *

1- يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية- منشورات مؤسسة فيصل للتمويل- تركيا- الطبعة الأولى 1988م.



موقع روسيا فئي شمال أوراسيا ونصف الكرة الشرقي.



معمودية كيفاتس، رسم يُظهر تنصر أهل «كييف».



الإمبراطور إيفال.



الإمبراطور بطرس الأكبر، المؤسس الفعلي للإمبراطورية الروسية، أعلن عن قيام الإمبراطورية الروسية رسميًّا في سنة 1721م.



الإمبراطورة الروسية كاترين الثانية.



الإمبراطورية الروسية في عام 1866م ومناطق نفوذها.



الرئيسان دميتري ميدفيديف مع فلاديمير بوتين.



موسكو هي عاصمة روسيا وأكبر مدينة من حيث عدد السكان، وهي مركز السياسة والاقتصاد والثقافة والدين والمالية والتعليم والنقل في روسيا، وتعتبر مدينة عالمية. تقع على نهر موسكفا في المنطقة الفيدرالية المركزية في المنطقة الأوربية من روسيا. ومعنى موسكو بالروسية «المدينة على ضفاف نهر موسكفا».

8 الروم آخر الزمان

- نهاية قرون الروم وهلاك دولتهم.
- تحالف المسلمين مع الروم آخر الزمان ثم قتالهم لهم «الملحمة الكبرى».
- الروم هم الروس اليوم.. كيف؟!
- الروم أكثر الناس آخر الزمان ودورُهم في فتح القسطنطينية.

نهاية قرون الروم وهلاك دولتهم في آخر الزمان

قال رسول الله ﷺ:

- «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفس محمد بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله». [1]
- وقال أيضًا: «إن ربي قد قتل كسرى ولا كسرى بعد اليوم وقد قتل قيصر ولا قيصر بعد اليوم». [2]
- وقال أيضًا: «هلك كسرى ثم لا كسرى بعده وقيصر ليهلكن ثم لا يكون قيصر بعده وليقسمن كنوزهما في سبيل الله». [3]

وقد أشكل على البعض قديمًا وحديثًا فهم الحديث وطعنوا في صحة أحاديث البخاري بل وطعنوا في رواة الحديث من الصحابة وحفظهم ما إلى ذلك وقالوا لقد تولى العديد من الملوك لفترات قصيرة في فارس وكان آخرهم يزدجرد الثالث الذي انتهت الإمبراطورية الساسانية في عهده تمامًا سنة 23 هجرية أو 644م بعد الفتوحات الإسلامية لفارس، أما القياصرة الروم فقد استمر ملكهم للإمبراطورية البيزنطية حتى عام 1453م عندما فتح محمد الفاتح القسطنطينية.

1- رواه البخاري ومسلم في صحيحهما وأحمد بن حنبل في المسند.
2- أخرجه الطبراني كما في مجمع الزوائد قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير كثير بن زياد وهو ثقة.
3- أخرجه مسلم وأخرجه أيضًا: إسحاق بن راهويه.

فيكف يقول النبي ﷺ أنه إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده؟

رغم أن الإجابة على ذلك الأمر بسيطة وواضحة وقد أوضحه الإمام الشافعي وغيره من علماء السلف.

قال الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث:

قد استشكل هذا مع بقاء مملكة الفرس لأن آخرهم قتل في زمان عثمان، واستشكل أيضًا مع بقاء مملكة الروم وأجيب عن ذلك بأن المراد لا يبقى كسرى بالعراق ولا قيصر بالشام، وهذا منقول عن الشافعي.

قال: وسبب الحديث أن قريشا كانوا يأتون الشام والعراق تجارا، فلما أسلموا خافوا انقطاع سفرهم إليهما لدخولهم في الإسلام، فقال النبي ﷺ ذلك لهم تطييبا لقلوبهم وتبشيرا لهم بأن ملكهما سيزول عن الإقليمين المذكورين.

وقيل: الحكمة في أن قيصر بقي ملكه وإنما ارتفع من الشام وما والاها وكسرى ذهب ملكه أصلا ورأسا أن قيصر لما جاءه كتاب النبي ﷺ قبله وكاد أن يسلم كما مضى بسط ذلك فيما سبق، وكسرى لما أتاه كتاب النبي ﷺ مزقه فدعا النبي ﷺ أن يمزق ملكه كل ممزق فكان كذلك.

قال الخطابي: معناه فلا قيصر بعده يملك مثل ما يملك، وذلك أنه كان بالشام وبها بيت المقدس الذي لا يتم للنصارى نسك إلا به، ولا يملك على الروم أحد إلا كان قد دخله إما سرا وإما جهرا، فانجلى عنها قيصر واستفتحت خزائنه ولم يخلفه أحد من القياصرة في تلك البلاد بعده، ووقع في الرواية التي في «باب الحرب خدعة» من كتاب الجهاد هلك كسرى ثم لا يكون كسرى بعده.

قال الشافعي، رحمه الله تعالى في كتابه الأم [1]: قال الله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 33] وروي مسندا أن النبي ﷺ قال «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله».

وقال: «ولما أتى كتاب النبي ﷺ إلى كسرى مزقه فقال ﷺ يمزق ملكه» قال: وحفظنا أن قيصر أكرم كتابه ووضعه في مسك فقال ﷺ: يثبت ملكه.

وأضاف رحمه الله: ووعد رسول الله ﷺ الناس فتح فارس والشام فأغزى أبو بكر الشام على ثقة من فتحها لقول النبي ﷺ ففتح بعضها وتم فتحها في زمن عمر، وفتح عمر رضي الله عنه العراق وفارس.

وكانت قريش تنتاب الشام انتيابا كثيرا وكان كثير من معاشهم منه وتأتي العراق فلما دخلت في الإسلام ذكرت للنبي ﷺ خوفها من انقطاع معاشها بالتجارة من الشام والعراق إذا فارقت الكفر ودخلت في الإسلام مع خلاف ملك الشام والعراق لأهل الإسلام فقال ﷺ «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده» فلم يكن بأرض العراق كسرى ثبت له أمر بعده، وقال «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده» فلم يكن بأرض الشام قيصر بعده، وأجابهم ﷺ على نحو ما قالوا وكان كما قال عليه السلام وقطع الله الأكاسرة عن العراق وفارس وقيصر ومن قام بعده بالشام وقال في قيصر يثبت ملكه فثبت له ملكه ببلاد الروم إلى اليوم وتنحى ملكه عن الشام وكل هذا متفق يصدق بعضه بعضا.

وجاء في كتاب «تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي» مثل ما ذكر سالفًا.

وجاء في «البداية والنهاية» لابن كثير رحمه الله أيضًا مثل ما ذكر واستشهد بما قاله الإمام الشافعي رحمه الله.

أي أن المعنى أنه لم يكن هناك ملك للروم «قيصر» حكم بيت المقدس والشام بعد

1- كتاب في الفقه الشافعي ظهر في أكثر من طبعة في سبعة أجزاء.

قيصر الذى كان يحكم فى عهد النبي ﷺ ولكن ثبت ملك القياصرة ببلاد الروم كما قال النبي ﷺ عن قيصر «يثبت ملكه».

أما الأكاسرة، فلم يكن هناك كسرى آخر بعد هذا الذى كان يحكم فى عهد النبي ﷺ يثبت له الملك فى العراق فكل من حكموا بعده لم يستقر لهم ملك ولذلك قال الإمام الشافعى «فلم يكن بأرض العراق كسرى ثبت له أمر بعده» فهذا سر اشتراطه ثبات الأمر له لأن هناك من حكم بعده ولم يثبت لهم الأمر بسبب المؤامرات والصراعات السياسية ولم يطل حكمهم.

وكسرى الذي أرسل إليه سيدنا رسول الله ﷺ رسولًا بكتاب فمزقه فدعا عليه الرسول ﷺ بأن يمزَّق ملكه هو كسرى الثاني الملقب ببرويز ومعناه «المظفَّر»، وهو ابن هرمز الرابع وحفيد كسرى الأول، وقد قتله ابنه شيروه على عهد رسول الله ﷺ. ثمّ تمزّق ملكه كما أخبر رسول الله ثمّ لم يثبت لأي من الأكاسرة ملك بعد برويز بن هرمز. ثم ملك بعده شيرويه وقتل إخوته السبعة عشر، ثم ندم على قتلهم، وابتلى بالأسقام حتى هلك وكانت مدة ملكه ثمانية أشهر.

ثم ملك أزدشير بن شيرويه بن برويز وكان صغيرًا ثم قُتل أزدشير بن شيرويه وكانت مدة ملكه سنة وستة أشهر. ثم ملك شهريران وهو من قتل أزدشير واستولى على الخزائن والأموال ولبس التاج وجلس على سرير الملك، وكان له صفان من الجند يحفظونه، فوقف له ثلاثة إخوة من المتحاملين عليه لاغتصابه الملك، فوقفوا له في جملة الحرس، فلما حاذاهم شهريران طعنه المذكورون فألقوه عن فرسه، وشدّوا في رجل شهريران حبلًا وجروه إقبالًا وإدبارًا، لكونه تعرض للملك وليس من بيت المملكة.

ثم وَلوا المُلك «بوران» بنت كسرى برويز، فأحسنت السيرة، وملكت سنة وأربعة أشهر ثم هلكت. وهي التي قال فيها النبي ﷺ: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأةً»، كما في حديث أبي بكرة عند الترمذي وغيره.

ثمّ ولي الملك خشنشدة من بني عمومة كسرى برويز، ولمّا ملك خشنشدة المذكور لم يهتد إلى تدبير الملك، فكان ملكه أقل من شهر وقتل. ثم ملكت أرزمي بنت كسرى برويز، وكانت أرزمي من أحسن النساء صورة، فخطبها فرخزاد ليتزوجها وكان أعظم الفرس في وقته، فامتنعت من ذلك، ثم أجابته إلى الاجتماع به، فلمّا حضر بالليل أمرت متولي حرسها فقتله.

وكان رستم بن فرخزاد، وهو الذي تولى قتال المسلمين قائدًا لجيش الفرس فيما بعد في القادسية، قد جعله أبوه نائبه على خراسان، فبعد مقتل أبيه جمع رستم عسكره وقصد أرزمي بنت كسرى برويز، فقتلها آخذًا بثأر أبيه، وكان ملكها ستة أشهر، واختلف عظماء الفرس فيمن يولون فوجدوا رجلًا من عقب أزدشير بن بابك، واسمه «كسرى بن مهرخشنش» فملكوه، ولما ملك المذكور لم يلقَ به الملك، فقتلوه بعد أيام.

ثم وجدوا رجلًا يقال له «فيروز بن خستان»، يزعم أنه من نسل أنوشروان، فملكوا فيروز المذكور ووضعوا التاج على رأسه، وكان رأسه ضخمًا فلم يسعه التاج، فقال: ما ضيق هذا التاج، فتطير[1] العظماء من افتتاح كلامه بالضيق وقالوا: هذا لا يفلح فقتلوه. ثم ملّكوا «فرخزاد خسرو» من ذرية أنوشروان، فملك ستة أشهر وقتلوه.

ثم ملّكوا «يزدجرد بن شهريار» بن برويز بن هرمز بن أنوشروان بن قباذ بن فيروز ابن يزدجرد بن بهرام جور بن يزدجرد بن بهرام بن سابور ذي الأكتاف بن هرمز بن نرسي بهرام بن بهرام بن هرمز بن سابور بن أزدشير بن بابك. وكان يزدجرد المذكور مختفيًا بإصطخر لما قُتل أبوه مع إخوته، حين قتلهم شيرويه، وبدأ فتح المسلمين بلاد فارس بعد أن مضى من ملكه ثلاث أو أربع سنين، وكان قد مُلِّكَ وهو فتى صغير، وحين اقترب المسلمون من المدائن هرب في البلاد نحوًا من عشرين سنة، وكان

1- أي: تشاءم.

مقتله في خلافة عثمان رضي الله عنه، في سنة إحدى وثلاثين للهجرة، وهو آخر من ملك منهم، ثمّ زال ملكهم بالإسلام زوالًا إلى الأبد.

وهكذا لا يوجد كسرى استقر له الحكم بعد كسرى الذى كان على عهد رسول الله ﷺ وانتهى ملكهم إلى الأبد.

وكذلك ملك الروم فقد انتهى في الشام بعد معركة اليرموك في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وانحصر ملكهم في القارة الأوربية إلى 1453م.

وأما عن إنفاق كنوز «كسرى وقيصر» في سبيل الله -تعالى- كما أخبرنا رسول الله ﷺ أن بلاد كسرى ستفتح، وأنها ستنفق أموالهم في سبيل الله عز وجل، ذلك لأنه ﷺ قد أعطاه الله تعالى الكنزين، الأحمر والأبيض «الذهب والفضة»، وأنها ستنفق كلها في سبيل الله تعالى، وقد كان كذلك، حيث فتحت كنوز كسرى في زمن سيدنا عمر رضي الله عنه، وأنفقت في سبيل الله تعالى على المسلمين، كما فتحت الشام في أواخر زمن سيدنا أبي بكر وأوائل زمن سيدنا عمر رضي الله عنهما، وأنفقت في سبيل الله تعالى في المسلمين.

فعن ثوبان رضي الله تعالى عنه مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوَى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِيَ لي منها، وأعطيت الكنزين، الأحمر والأبيض...» [1] الحديث.

والمراد بالكنزين هما كما قال القرطبي[2] رحمه الله تعالى في المفهم شرح صحيح مسلم: قوله: «أعطيت الكنزين» يعني به: كنز كسرى، وهو ملك الفرس وملك قيصر وهو ملك الروم، وقصورهما وبلادهما، وقد دل على ذلك قوله ﷺ الآخر: «لتنفقن كنوزهما في سبيل الله».

1- رواه مسلم.

2- القرطبي هذا غير القرطبي المفسر والذي له كتاب التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة.

وعبّر بالأحمر عن كنز قيصر، لأن الغالب عندهم كان الذهب، وبالأبيض عن كنز كسرى، لأن الغالب عندهم كان الفضة والجوهر، وقد ظهر ذلك، ووجد كذلك في زمان الفتوح، في خلافة عمر رضي الله تعالى عنه، فإنه سيق إليه تاج كسرى وحليته، وما كان في بيوت أمواله، وجميع ما حوته مملكته، على سعتها وعظمتها، وكذلك فعل الله تعالى بقيصر، لما فتحت بلاده اهـ

لقد أخبر رسول الله ﷺ بفتح قصورهم، وأخذ ما فيها من الكنوز.

فعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لتفتحن عصابة من المسلمين أو المؤمنين كنز آل كسرى الذي في القصر الأبيض».[1]

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذا آتاه رجل، فشكا إليه الفاقة.. الحديث بطوله، وفيه قوله ﷺ: «ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى» قلت: كسرى بن هرمز!!! قال: «كسرى بن هرمز..».

قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز..[2]

قال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لتنفق كنوزهما في سبيل الله».[3]

وكل ذلك قد وقع، ولله الحمد والمنة.

ومما جاء في هلاك فارس والروم في الأحاديث النبوية:

قال رسول الله - ﷺ:

«فارس نطحة أو نطحتان ثم لا فارس بعدها، والروم ذات قرون كل ما سقط قرن ظهر غيره».

1- رواه مسلم.

2- الحديث رواه البخاري.

3- متفق عليه.

أخرجه نعيم بن حماد في «الفتن»، من طريق عاصم بن حكيم.

وأخرجه ابن أبي شيبة في «مصنَّفه»، والحديث ضعفه الألباني وما جاء من أحاديث صحيحة ذكرناها عن هلاك كسرى وقيصر يقوي ذلك الضعف.

والحديث يشير إلى أن بلاد فارس «إيران حاليًا» سيكون له شأن آخر الزمان ولكنها تلقى مصير مملكة فارس القديمة ونحن نرى إيران وريثة مملكة فارس القديمة وهي على وشك امتلاك القنبلة النوويةوتهدد جيرانها وقد دخلت في حرب طويلة مع العراق.

وأما الروم فقد استأنفت قوتها وعادت إلى ما كانت عليه بأسماء دول مختلفة كلها في أوربا مثل روسيا التي تمثل من الناحية الكنسية الروم الشرقيين الأرثوذكس حيث ورثت الكنيسة الشرقية القديمة وأما من الناحية العرقية فهم كل دول أوربا الشرقية.

* * *

تحالف المسلمين مع الروم آخر الزمان ثم قتالهم لهم

عرف العالم على مر العصور وجود محورين يتصارعان على بسط نفوذهما على الأرض، حتى في الأزمنة التي شهدت القطب الأوحد كانت هناك دولة تنظر فترة ضعف ذلك القطب الأوحد لتنقض عليه، وفي الزمن الذي نعاصره نجد أن أمريكا وهي القطب الأوحد يتربص بها أكثر من دولة كبرى تنتظر الوقت المناسب لتنقض عليها.

وتشهد الأحداث الحالية وجود تحالفات عدة وأعداء كُثر وقد أخبرنا النبي ﷺ بأنه آخر الزمان سوف يقاتل المسلمون مع الروم عدو مشترك وبشر بأنهم سينتصرون عليهم وذكر ذلك بصيغة المدح وليس الذم فلم يتهمهم بموالاة الكفار.

ولكن من هو ذلك العدو المشترك؟

وللإجابة على هذا التساؤل علينا أن نحدد من هم الروم؟ هل هم أوربا وأمريكا كما يحلو للبعض أن يردد ذلك وقد كنت أنا منهم؟

أم إنهم عرق أو جنس من الأوربيين وليس كل الأوربيين.. وهذا هو الأصح الغالب فليس كل الأوربيين هم الروم.

أخرجه الإمام أحمد في المسند وأبو داود في السنن عن ذي مخبر ابن أخي النجاشي، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «تصالحون الروم صلحًا آمنًا حتى تغزوا أنتم وهم عدوًّا من ورائهم فتُنصرون وتغنمون وتنصرفون...» صححة الألباني.

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة أن من علامات الساعة وقوع ملحمة عظيمة بين المسلمين والروم بالشام في آخر الزمان، يكون النصر فيها للمسلمين، ففي صحيح مسلم عن جابر قال: هاجت ريح حمراء بالكوفة فجاء رجل ليس له هجيرى ألا يا عبدالله بن مسعود جاءت الساعة، قال فقعد وكان متكئا فقال: إن الساعة لا تقوم حتى لا يُقسم ميراث ولا يفرح بغنيمة، ثم قال بيده هكذا ونحاها نحو الشأم، فقال عدو يجتمعون لأهل الإسلام ويجمع لهم أهل الإسلام، قلت:الروم تعني؟قال: نعم».

وقد جاء التصريح بموقع هذه الواقعة بأنها الغوطة بدمشق كما في مسند أحمد وصححه الأرنؤوط، وفيه: «والسادسة-يعني من علامات الساعة- هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيسيرون إليكم على ثمانين غاية، قلت: وما الغاية؟ قال:الراية، تحت كل راية اثنا عشر ألف فسطاط، المسلمون يومئذ في أرض يقال لها الغوطة في مدينة يقال لها دمشق.

وقالوا بالخطأ أن تلك الحرب هي «هرمجدون»، أو: «آرمجدون» كلمة عبرية، مكونة من كلمتين: «هار» بمعنى «تل»، و«مجدو» اسم مدينة في شمال فلسطين -ويطلق عليها «مجيدو» -.

وليس لهذه الكلمة وجود في ديننا، لا اسمًا، ولا وقوعًا، لا في أحاديث صحيحة، ولا ضعيفة، فتسمية هذه المعركة: «هرمجدون»، وتحديد مكانها في فلسطين: ليس مأخوذًا إلا من سفر الرؤيا الإصحاح الـ 16 «16 - 15».

عن جبير بن نفير عن ذي مخمر عن النبي ﷺ قال: «تصالحون الروم صلحًا آمنًا وتغزون أنتم وهم عدوًّا من ورائهم فتسلمون وتغنمون ثم تنزلون بمرج ذي تلول فيقوم إليه رجل من الروم فيرفع الصليب ويقول ألا غلب الصليب فيقوم إليه رجل من

المسلمين فيقتله فعند ذلك تغدر الروم وتكون الملاحم فيجتمعون إليكم فيأتونكم في ثمانين غايةً مع كل غاية عشرة». [1]

مدينة الكيف

فالمعركة الفاصلة بيننا وبين الروم آخر الزمان تسمى بالملحمة الكبرى وليس «هرمجدون» وليست المشكلة في اسم المعركة ولكن في مكانها أيضًا حيث إن «الهرمجدون» سيمت بذلك لوقوعها في مدينة تسمى باسمها مجيدو أو مجدو وأما الملحمة الكبرى فهي قرب حلب ودمشق «دابق».

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ فإذا تصافوا قالت الروم خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم فيقول المسلمون لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا فيقاتلونهم». [2]

ويحدد أهل الكتاب موعد «هرمجدون»، وينتظرون فيه مسيحهم على رأس الألف، سواءً الأولى، أو الثانية، فإن طال الزمان فسينتظرون في الألف الثالثة، أما الأحاديث النبوية الشريفة: فلم تحدد موعدًا للملحمة سوى أنها من أشراط الساعة.

قال ابن قيم الجوزية: -رحمه الله- في بيان تلاعب الشيطان باليهود :

تلاعبه بهم في كتابه «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان»: أنهم ينتظرون قائمًا من ولد داود النبي، إذا حرك شفتيه بالدعاء: مات جميع الأمم، وأن هذا المنتظر بزعمهم هو المسيح الذي وُعدوا به! وهم في الحقيقة إنما ينتظرون مسيح الضلالة «الدجال»، فهم أكثر أتباعه، وإلا فمسيح الهدى عيسى ابن مريم عليه السلام يقتلهم، ولا يبقي منهم أحدًا.

والأمم الثلاث تنتظر منتظَرًا يخرج في آخر الزمان ؛ فإنهم وُعدوا به في كل ملة،

1- رواه أبو داود وابن ماجه وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

2- رواه مسلم في صحيحه.

والمسلمون ينتظرون نزول المسيح عيسى ابن مريم من السماء، لكسر الصليب، وقتل الخنزير، وقتل أعدائه من اليهود، وعُبَّاده من النصارى، وينتظرون خروج المهدي من أهل بيت النبوة يملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا.

وبلاد الشام دعا لها النبي ﷺ بالبركة، بينما ما يجاوره وما يقرب منه وهو المشرق وبالأخص العراق، لم يدع له النبي ﷺ لأن منبع الفتن منها، ولذلك قال ﷺ عن الفتن كما في الصحيحين «تخرج من المشرق» يعني من جهة العراق ومن جهة إيران وبالأخص العراق.

قال ﷺ: «اللهم بارك لنا في مدنا وفي صاعنا وبارك لنا في شامنا وفي يمننا، قال رجل يا رسول الله وفي عراقنا؟ فقال ﷺ تلك الديار بها قرن الشيطان وتهيج الفتن».[1]

وأرض الشام هي التي ستشهد الملحمة الكبرى وهي الحرب الكبرى التي ستكون في آخر الزمان قرب قيام الساعة، يعني قرب خروج الدجال، ويتحزب الروم من نصارى الروم الأرثوذكس على أهل الإسلام قبل خروج الدجال يتحزبون عليهم بأحزاب عظيمة، سيكون بيننا وبينهم صلح، لكنهم سيغدرون كما قال ﷺ كما عند البخاري «يأتون في ثمانين غاية» يعني في ثمانين راية «تحت كل غاية اثنا عشر ألفا» يعني مجموع عدد جيش النصارى تسعمائة وستون ألفا، يعني مليون إلا أربعين ألف جندي، وهذا يكون في الغوطة قريب من دمشق، والنصر سيكون حليفًا للمسلمين لكن بعد مقتلة عظيمة، ويسبق هذا القتال أن بيت المقدس يعمر، إما باستيلاء الكفار عليه وأما باستيلاء المسلمين عليه، كما قال الشراح، وإذا عمر بيت المقدس خربت يثرب، قال ﷺ «عمران بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة» التي هي بين المسلمين وبين الروم «وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية» وهي إسطنبول المعروفة في تركيا، يعني هذه تفتح في آخر الزمن

1- رواه الطبراني.

بدون سلاح، وإنما كما جاء في صحيح مسلم «لها جانبان جانب من جهة البر وجانب من جهة البحر، فيقول المسلمون لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط جانب، ثم يقولون لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط الجانب الآخر». [1]

وهؤلاء الروم يسيطرون على بلاد المسلمين قبل هذه الحرب إما سيطرة مباشرة أو بطريق غير مباشر، ولذلك قال ﷺ «منعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مدها ودينارها، ومنعت مصر أردبها ودينارها، وعدتم حيث بدأتم وعدتم حيث بدأتم وعدتم حيث بدأتم» [2] يقول النووي رحمه الله «منع خيرات مصر والعراق والشام بسبب استيلاء النصارى عليها، إما استيلاء مباشر أو غير مباشر، لما في هذه البلاد الثلاثة من الخيراتِ العظيمة».

وهذه الحرب التي ستكون بين المسلمين وبين الروم كما أسلفت بيننا وبينهم صلح، وصلح آمن ويغزون مع المسلمين عدوًّا من غير المسلمين قال عليه الصلاة والسلام كما عند أبي داود «ستصالحون الروم صلحًا أمنا فتغزون أنتم وإياهم عدوا من سواكم، فتسلمون وتغنمون» يعني يحصل أمن وغنيمة «فتسلمون وتغنمون، فإذا نزلوا بمرج ذي تلال» يعني الروم والمسلمون نزلوا جميعًا «رفع رجل من الروم الصليب فيقول غلب الصليب، فيقوم رجل من المسلمين فيقتله» فتقع الملحمة الكبرى بين المسلمين وبين النصارى، وهذه الملحمة الكبرى ستقع في سوريا قريبا من حلب ودمشق، لأنه جاء عند مسلم «أن الروم ينزلون بدابق وبالأعماق» وهي قريبة من حلب، ومما يدل على دمشق قوله ﷺ كما في المسند من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «إن فسطاط المسلمين» يعني مكان تجمعهم «إن فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى بأرض يقال لها الغوطة فيها مدينة يقال لها دمشق من خير منازل المسلمين يومئذ».

وهناك طائفة من الروم سيسلمون كما جاء في حديث المستورد بن شداد في

1- رواه أحمد في مسنده وأبو داود في سننه.

2- رواه مسلم في صحيحه.

صحيح مسلم سيسلمون وسيجاهدون مع إخوانهم المسلمين ضد الروم، وتكون المقتلة عظيمة بينها ابن مسعود رضي الله عنه كما عند مسلم في اليوم الأول وفي اليوم الثاني وفي اليوم الثالث، بين المسلمين وبين الروم تكون ملحمة عظيمة وفي اليوم الرابع يقوم المسلمون قومة واحدة فيقاتل المسلمون هؤلاء الروم فينتصر المسلمون عليهم، ولذلك في صحيح مسلم قال ﷺ «فيخرج إليهم جيش من المدينة» يعني يذهبون إلى دابق أو الأعماق بين حلب ودمشق «فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار الأرض فيهزم الله ثلثهم لا يتوب الله عليهم أبدا، ويقتل ثلثهم هم خير الشهداء، ويفتح الثلث الآخر لا يفتنون أبدا، ثم يفتحون القسطنيطينية» ثم بعد هذا الفتح يقول ابن مسعود رضي الله عنه «فبأي غنيمة يُفرح» لِمَ؟ لأن الدجال قريب «فيخرج الدجال ثم يخرج عيسى عليه السلام» ثم ما يكون من العلامات الكبرى للساعة.

بعد أن ينتصر المسلمون على الروم في الملحمة الكبرى ثم يفتحون القسطنطينية ثم يخرج الدجال ينزل عيسى عليه السلام في الشام في دمشق كما جاء في صحيح مسلم قال ﷺ «ينزل عيسى عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، ينزل بين مهرودتين» ويصح بالذال «مهروذتين» يعني لابسا ثوبين «مصبوغين بورس ثم بزعفران» يقول ابن كثير رحمه الله وليس في دمشق منارة بيضاء إلا هذه المنارة التي عند الجامع الأموي، ويقول رحمه الله هي مناسبة، كيف تكون مناسبة أن ينزل عيسى عند المنارة البيضاء شرقي دمشق؟

والمسلمون يقيمون الصلاة لخليفتهم المهدي فإذا أقاموا الصلاة ينزل عيسى، لأن هذه المنارة عند الجامع الأموي، فينزل عيسى عليه السلام، فلما ينزل عيسى والصلاة قد أُقيمت فيُقدم، فيقول عيسى عليه السلام «لا، أميركم منكم تكرمة الله لهذه الأمة» فيصلي عيسى عليه السلام خلف رجل من المسلمين.

يقول ابن كثير رحمه الله وهي مناسبة أيضا:

إن عيسى عليه السلام أتى بالإنجيل الذي هو دين النصارى، يقول في سنة سبعمائة وإحدى وأربعين «741» للهجرة قام المسلمون بتجديد هذه المنارة بأموال النصارى، يقول ينزل عيسى الذي أتى للنصارى عند هذه المنارة التي بنيت بأموال النصارى ليبين أنه سيكسر الصليب وأنه سيمحو جميع الأديان إلا دين الإسلام. [1]

* * *

1- اقرأ كتابنا: نهاية العالم وأشراط الساعة؛ وكتابنا: عشرة ينتظرها العالم، ففيهما المزيد والجديد في هذا الموضوع وغيره من علامات الساعة الكبرى والصغرى، والواقع الذي نعايشه، الناشر: دار الكتاب العربي، دمشق/ القاهرة.

الروم أكثر الناس آخر الزمان ودورهم في فتح القسطنطينية

وجود الروم من علامات الساعة ولهم دورٌ في فتح القسطنطينية وسيكونون أكثر الأمم عند قيام الساعة، وهذا ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن موسى بن علي، عن أبيه قال: قال المستورد القرشي عند عمرو بن العاص سمعت رسول الله ف يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس». فقال له عمرو: أبصر ما تقول؟! قال: أقول ما سمعت من رسول الله ف! قال: لئن قلت ذلك، إن فيهم لخصالًا أربعًا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقةً بعد مصيبة، وأوشكهم كَرةً بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة، وأمنعهم من ظلم الملوك. (1)

وقد اختلف في كثرة الروم آخر الزمان على أقوال:

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية عن هذا الحديث:

هذا يدل على أن الروم يسلمون في آخر الزمان، ولعل فتح القسطنطينية يكون على يدي طائفة منهم كما نطق به الحديث المتقدم أنه يغزوها سبعون ألفا من بني إسحاق، والروم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، فهم أولاد عم بني إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق، فالروم يكونون في آخر الزمان خيرا من بني إسرائيل، فإن الدجال يتبعه سبعون ألفا من يهود أصبهان فهم أنصار الدجال، وهؤلاء -أعني الروم- قد مُدحوا في هذا الحديث، فلعلهم يسلمون على يدي المسيح ابن مريم. والله أعلم.

1- رواه مسلم في صحيحه.

وقال عبد الرءوف المناوي -رحمه الله- في «فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير»:

«تقوم الساعة» أي القيامة «والروم أكثر الناس» ومن عداهم بالنسبة إليهم قليل، وثبت في الصحيح: «أنه لا يبقى مسلم وقت قيام الساعة» لكن يكون الروم وهم قوم معروفون وهم أكثر الكفرة ذلك الوقت.

والذي يظهر من سياق اللفظ وهو لفظة الناس التي تدل على الكثرة؛ ووصف الإيمان وصف زائد عن تلك الكثرة؛ وهو ما تؤكده بقية النصوص من أن الساعة تقوم على شرار الخلق؛ وحتى لا يقال في الأرض: «الله الله»؛ وهذا ما يرجح قول من قال بأنهم أكثر الكفار عند قيام الساعة؛ والعلم عند الله تعالى.

قال القرطبي: في «المفهم» [1] 7/ 236: وهذا الحديث قد صدقه الوجود؛ فإنهم اليوم أكثر من في العالم غير يأجوج ومأجوج؛ إذ قد عمروا من الشام إلى أقصى منقطع أرض الأندلس، وقد اتسع دين النصارى اتساعًا عظيمًا لم تتسعه أمة من الأمم، وكل ذلك بقضاء الله وقدره، ووصف عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- لهم بما وصفهم به من تلك الأوصاف الجميلة إنما كانت غالبة على الروم الذين أدرك هو زمانهم، وأما ما في الوجود منهم اليوم، فهم أنجس الخليقة، وأركسهم، وهم موصوفون بنقيض تلك الأوصاف. انتهى.

وجاء في «حاشية صحيح مسلم» 8/ 176 الطبعة السلطانية، قوله ﷺ: «والروم أكثر الناس»: قال القاضي: هذا الحديث ظهر صدقه؛ فإنهم اليوم أكثر إلا من يأجوج ومأجوج، فإنهم عمروا من الشأم إلى منقطع أرض الأندلس، واتسع دين النصرانية اتساعًا لم تتسعه أمة.اهـ. قوله: إن فيهم لخصالًا أربعًا: قال الطبري: هذه الخلال الأربع الحميدة لعلها كانت في الروم التي أدرك، وأما اليوم فهم أنجس الخليقة، وعلى

1- كتاب «المفهم شرح صحيح مسلم» والمؤلف قرطبي غير القرطبي المفسر وصاحب كتاب التذكرة.

الضد من تلك الأوصاف. قال الأبي: هو مدح لتلك الصفات لا لهم، ويحتمل أنه إنما ذكرها من حيث إنها سبب كثرتهم. اهـ.

وقال العلامة السندي: في «حاشيته على مسند أحمد»: قول عمرو بن العاص: إن فيهم لخصالًا...: أي: تدل على أن الأمر كما قلت.

والروم بعد إسلامهم وقتالهم في الملحمة الكبرى يتوجهون مع من بقي من جيش الإسلام لفتح القسطنطينية وروما:

روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «سمعتم بمدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفًا من بني إسحاق، فإذا جاؤوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط أحد جانبيها، قال ثور: لا أعلمه إلا قال الذي في البحر، ثم يقولوا الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولوا الثالثة: لا إله إلا الله والله أكبر، فيفرج لهم فيدخلونها فيغنمون.

فبينما هم يقتسمون المغانم إذ جاءهم الصريخ فقال: إن الدجال قد خرج فيتركون كل شيء ويرجعون».

والصريخ: الاستنجاد والاستغاثة والمستنجد المستغيث، والصريخ يقصد به إبليس.

والحديث فيه إشارة نبوية إلى فتح المسلمين بلاد الروم واستيلائهم على كثير من الغنائم

وروى ابن ماجه بسنده عن الكثير بن عبد الله بن عمرو بن عون، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكون أدنى شيوخ المسلمين يتولى، ثم قال يا علي يا علي يا علي: قال بأبي أنت وأمي يا رسول الله، قال: إنّكم ستقاتلون

بني الأصفر ويقاتلهم الذين من بعدكم حتى يخرج إليهم روقة الإسلام أهل الحجاز الذين لا يخافون في الله لومة لائم، فيفتحون القسطنطينية بالتسبيح والتكبير فيصيبون غنائم لم يصيبوا مثلها حتى يقتسموا بالأترسة، ويأتي آت فيقول إن المسيح قد خرج في بلادكم ألا وهي كذبة فالآخذ نادم والتارك نادم». [1]

والحديث فيه إشارة نبوية إلى ما سيكون من فتح المسلمين لبعض الجزر البحرية ولبلاد الروم وبلاد فارس ومن انتصارهم على باطل الدجال.

وقال مسلم في صحيحه بسنده عن نافع بن عيينة أن رسول الله ﷺ قال: «تغزون جزيرة البحر فيفتحها الله، ثم فارس فيفتحها الله».

* * *

1- حديث ضعيف: رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الملاحم، والحديث الذي سبقه يقويه.

الروم هم روسيا اليوم... كيف؟

جاء ذكر الروم في القرءان الكريم في سورة الروم ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ ...﴾ وذلك في صراعهم مع دولة الفرس وكان ذلك في القرن السابع الميلادي وكانت عاصمة مملكتهم القسطنطينية وكنيستهم الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية..

وذكرنا أنه في العهود القيصرية تبنت الجهات الرسمية الروسية النظرية «النورماندية» نسبه إلى قبائل «الفارياغ» النورماندية الجرمانية الشمالية التي سيطرت بقيادة زعيمها «ريوريك» في بداية القرن العاشر الميلادي على القبائل السلافية «الصقالبة» المتناحرة المستوطنة في حوض نهر الدنيبر وأن «الروس الفارياغيين» لعبوا دورًا أساسيًّا في تشكيل دولة «كييف الروسية» القديمة وشكلوا فيها لاحقًا النخبة الحاكمة العليا ممثلة في سلالة «ريوريك» التي حكمت الدولة الروسية حتى نهاية القرن السادس عشر عندما توفى «ديمتري» بن إيفان الرابع «الرهيب» آخر قيصر من هذه السلالة ودخلت الدولة الروسية على إثر ذلك في مرحلة الفتنة.

في منتصف القرن الثامن عشر وعلى إثر تشكل الإمبراطورية الروسية تأسست النظرية «السلافية» على أيدي العالم الروسي الموسوعي لومونوسوف الذي رفض النظرية «النورماندية» وأكد على الأصول التاريخية السلافية لروسيا، وقد ازدهرت النظرية «السلافية» القومية في النصف الثاني للقرن التاسع عشر وأصبحت سائدة في أوساط المثقفين والسياسيين الروس وحظيت بتأييد قوي من الكنيسة الروسية الأرثوذكسية.

في العهد السوفييتي تبنى الشيوعيون النظرية «السكيفية» ومفادها أن الروس والسلاف ينتمون إلى القبائل السكيفية والسارماتية ذات الأصول الإيرانية التي كانت تقطن في جنوب أوكرانيا على السواحل المطلة على البحر الأسود في الألف الأولى قبل الميلاد والتي ذكرها هيرودوت في كتاباته التاريخية.

في مرحلة البيروسترويكا ظهرت آلاف الدراسات المكرسة لهذا الموضوع التي تتمحور حول وجهتيْ النظر الأساسيتين: «النورماندية» «السكيفية».

في القرن التاسع الميلادي غزا الفايكينج الاسكندنافيون عددًا من المناطق في شمال أوربا من روسيا شرقًا حتى أيرلندة غربًا واستقروا فيها الاسكندنافيون الشرقيون اطلق عليهم الفرانجيون Varangians أو الروس Rus، التي جاءت منها تسمية روسيا Russia أو Russiya التي تعني أرضَ الروس «land of the Rus»...

في سنة 882 حين اتحدت ميدينتا «كييف» و«نوفجورود» في دولة روسيا الكييفية Kievan Rus تحت حكم قائد واحد من بيت ريورك. السلاف الشرقيون كانوا وثنيين حيث عبدوا قوى طبيعة الأرض. وفي بداية القرن العاشر -على أي حال- دولة روسيا الكييفية كانت قد أسست علاقة تجارية وثقافية متينة مع الإمبراطورية البيزنطية -مركز المسيحية الأرثوذوكسية-. في سنة 980م فلاديمير الأول Vladimir I أصبح القائد.

وبعد ثمان سنوات تحول إلى الديانة المسيحية الأرثذوكسية وجعل الأرثذوكسية الدين الرسمي لروسيا الكييفية.

الكنيسة السلافية كانت تملك حكمًا ذاتيًا معتبرًا، وفضائلها أنها حافظت على لغة طقوسية سلافية المعروفة بالكنيسة القديمة السلافية بدلًا من اللغة اليونانية المستعملة في الإمبراطورية البيزنطية. أما في أمور المذهب فقد أطاعت الكنيسة السلافية قرارات بطريارك القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية.

إن الأديرة والكنائس بنيتا على الطراز البيزنطي، وأصبحت الثقافة البيزنطية ذات التأثير السائد في العديد من المجالات مثل الفنِّ، والهندسة المعمارية، والموسيقى. إن اختيار فلاديمير الأول للمسيحية الأرثذوكسية، بدلا من الكنيسة اللاتينية «الكاثوليكية الرومانية» أو الإسلام، كان له تأثير مهم على مستقبل روسيا. حيث إن الأرثذوكسية لعبت دورًا حاسمًا في تشكيل القيم والهوية المنفصلة للسلاف الشرقيين ولكنهم كمسيحيين، عادوا بشكل صريح إلى أوربا بدلًا من إحدى الحضارات الإقليمية العظيمة الأخرى في العالم.

كان السلاف أقوياء كأرثذوكسيين خصوصًا بعد سقوط الإمبراطورية البيزنطية 1453م، ولكنهم كانوا كعضو منفصل عن مجتمع أوربا المسيحي.

اختفت الإمبراطورية البيزنطية في عهد السلطان العثماني محمد الفاتح وبقيت الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية تمثلها روسيا..

وأما من الناحية التاريخية فتعالوا نفصل الأمر ونلخص المسألة ونبدأ بسرد تاريخي سريع للإمبراطورية الرومانية العتيقة من بدايتها حتى نهايتها 1453م فنقول:

تأسّست روما سنة 753 قبل الميلاد وتأسست معها الدولة الرومانية وظلت روما كرسي تلك الدولة عشرة قرون ونصف قرن، ففي سنة «321م» نقل كرسي الملك إلى بيزانتيوم وانتقل إليها قسطنطين الكبير وسماها القسطنطينية وهو اسمها اليوم إسطنبول إحدى المدن الكبرى في تركيا بعد أن كانت عاصمة للدولة العثمانية بعد فتحها فترة من الزمان.

وبعد وفاته سنة «337م» اقتسم المملكة أولاده الثلاثة ثم أفضت إلى واحد منهم توفي سنة «360م» فخلفه يوليان ثم جوفيان سنة «364م» ثم توفي هذا بعد بضعة أشهر فانتخب الرومان «فالنتيان» إمبراطورًا.

وبعد قليل نصب فالنتيان أخاه فالنس إمبراطورًا على روما، وتم انفصال المملكة الرومانية على إثر ذلك إلى مملكتين إحداهما شرقية عاصمتها القسطنطينية والأخرى غربية عاصمتها روما.

وكانت الإمبراطورية الشرقية أطول عمرًا من الإمبراطورية الغربية فأصبحت القسطنطينية زعيمة الروم الأرثوذكيس والكنيسة الشرقية ومبعث العلم ومركز السلطنة ومرجع الدين، وكانت حدود المملكة الرومانية الشرقية في القرن الخامس للميلاد تنتهي في الغرب بالبحر الأدرياتيكي وفي الشرق بضفاف دجلة، وتمتد حدودها الشمالية إلى أعالي بلاد التتار، وتنتهي في الجنوب إلى بلاد الحبشة، وأرقى عصور هذه المملكة بعد قسطنطين الكبير عصر يوستنيان «من سنة 527 - 565م» تولاها «37» سنة قضى الخمس الأولى بمحاربة الفرس الساسانيين وانتهت الحرب بمعاهدة سموها «معاهدة الصلح الدائم» لكنها لم تدم، ومن حسن حظ هذا الإمبراطور أنه رُزق بقائد من أشهر قادة العالم اسمه «بليزاريوس» فتح له إيطاليا ورفع أعلامه فوق أسوار روما وفتح شمالي أفريقيا وغيرها، وكان عونًا له في سائر فتوحه وساعده القوية في توسيع نطاق مملكته.

والعداوة بين الفرس والروم «اليونان» قديمة ربما تجاوزت القرن الخامس قبل الميلاد، وسببها نزاع بينهما على السيادة في العالم لأنهما كانتا أعظم دول الأرض في تلك العصور.

ولن نكرر ما ذكرناه عن الحرب بين الفرس والروم ونقتصر على ذلك ونتوقف عند سقوط عاصمة الروم البيزنطيين القسطنطينية عام 1453م على يد الأتراك العثمانيين وملكهم محمد الفاتح كما ذكرنا، إلى هنا انتهت الإمبراطورية الرومانية الأرثوذكس لتظهر كنيستها الشرقية مع ظهور دولة الروس كما ذكرنا أيضًا، فأصبحت الروم من الناحية الدينية اليوم تمثلها روسيا ومن الناحية العرقية يمثلها دول أوربا الشرقية التي

تحت سيطرة الاتحاد السوفييتي المنحل والذي تأسس عقب الثورة البلشفية عام 1917م وتم تفكيكه عام 1991م وأضف إليهم اليونان.

أما روما والفاتيكان وفرنسا وألمانيا وغيرهم من أوربا الغربية «الكاثوليك» فهم لا يمثلون الروم أضف إليهم أمريكا البروتستانية المذهب.

وبالتالي فإن روسيا ومن معها من دول تمثل الروم عرقيًّا هي التي ستحارب أهل الإسلام آخر الزمان بعد الصلح معها فترة من الزمن كما جاء في الحديث النبوي عن الملحمة الكبرى والله أعلم.

والحلف المشار إليه في أحداث آخر الزمان يكون بين روسيا بين التي تمثل الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية الروسية القديمة ومعها إيران والصين وكوريا الشمالية الشيوعية ضد دول غرب أوربا الكاثولوكية وأمريكا البروتساتنية والصلح الآمن سيكون حتى زمان حكم المهدي خليفة المسلمين مع الحلف الأول الذي يمثل الروم كما أوضحنا، وهم الذين سيغدرون بالمسلمين ثم تكون الملحمة الكبرى التي جاءء ذكرها في الحديث الصحيح، ويأتي الروم أو الحلف الرومي في جيش يصل تعداده نحو 960 ألف جندي ليقضي الله أمرًا كان مفعولا على أرض الشام. [1]

هذا -والله أعلم- اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

1- اقرأ كتابنا: الشام على أعتاب النهاية، ففيه التفصيل لتلك الأحداث التي ستكون آخر الزمان، الناشر: دار الكتاب العربي، دمشق/ القاهرة.

كلمة أخيرة

روسيا تلوح بقدرتها على تدمير الجيش الأمريكي ونهاية العالم بـ «زر واحد فقط»

وبعد تلك الرحلة السريعة عن الإنذارات الأخيرة للأرض التي توشك أن نراها ونعايشها نختتم كلامنا بالخبر الذي نشره موقع العربية على شبكة الإنترنت في 9 نوفمبر 2015م تحت عنوان «روسيا تلوح بـ (اليد الميتة)» وقدرتها على تدمير الجيش الأمريكي ونهاية العالم بـ «ذر واحد فقط».

الخبر منقول عن (CNN) حيث ذكرت وكالة الأنباء الروسية الرسمية «سبوتينك» أن الإدارة الأمريكية تحاول بطريقة أو بأخرى إسقاط روسيا وإحداث وقيعة بينها وبين شركائها وحلفائها.

وأضافت الوكالة في تقرير بعنوان «اليد الميتة» نظام روسي يستطيع تدمير الجيش الأمريكي بزر واحد فقط:

لاشك أن الولايات المتحدة الأمريكية عززت انهيار الاتحاد السوفييتي في عام 1991م ولكن روسيا تمكنت من بناء نفسها مرة أخرى.

ونقلت الوكالة عن قناة زفيزدا الروسية قولها إن: «الروس كانوا قادرين على إعادة تجهيز الجيش وأبهروا العالم بجميع الإلكترونيات، مما يجعل الأسلحة الصاروخية الهائلة للأعداء عبارة عن كومة من الخردة المعدنية التي لا معنى لها».

وأضافت القناة أنه إذا حدثت حرب نووية بين روسيا وأمريكا ستؤدي إلى كارثة لا يمكن التنبؤ بها للعالم، وإذا قررت الولايات المتحدة فجأة القيام بضربة نووية على روسيا سيكون الرد مفاجئة للجميع ولا يتصوره شخص إلا في عالم الخيال. وهو الضغط على زر لتشغيل نظام «بيريمتر» أو «اليد الميتة».

واعتبرت الوكالة أنه: «رغم وجود عدد كبير ومتنوع من القصص عن آلات يوم القيامة التي تضمن الرد على أي خصم، يمكن القول بثقة تامة أن نظام «بيريمتر» السوفييتي وحده فقط قادر على فعل ذلك».

وأشارت إلى أن نظام «بيريميتر» يعد من أكثر الأمور العسكرية سرًّا، وجميع المعلومات حول مكوناته ووظائفه وطريقة عمله هي معلومات قليلة جدًّا وسرية للغاية.

وأوضحت أنه نظام لكي يصدر أوامره إلى القوات النووية الروسية لتوجيه ضربة نووية جوابية مدمرة، حتى عندما تكون قد دمرت بالكامل مراكز القيادة وخطوط الاتصالات مع قوات الصواريخ الاستراتيجية.

وأضافت أنه يضمن إطلاق الصواريخ البالستية من جميع منصات الإطلاق البرية والجوية والبحرية، في حال تمكن العدو من تدمير كل القيادات التي يمكن أن تعطي أوامر الرد».

وأضافت: «أن نظامَ «بيريمتر» هو نظام مستقل تمامًا وغير مرتبط بالوسائل الأخرى للاتصالات وأوامر القيادة وحتى الحقيبة النووية لا علاقة لها بتفعيله».

وأكدت أنه إذا انقطعت الإشارات المنتظمة من مراكز القيادة العادية لقوات الصواريخ الاستراتيجية لفترة معينة يبدأ نظام «بيريمتر» بنهاية العالم.

وهذا الخبر يعد تحذيرًا روسيًّا شديد اللهجة ولا يمكن أخذه على سبيل التهديد أو التهويش لأنه ليس من المستبعد قيام حرب نووية مجنونة في أي وقت ممن يملك السلاح النووي في العالم وهم دول كثيرة يترأس مراكز القيادة فيها أشخاص كرزمية مجنونة.

أضف إلى ذلك أنه من المتوقع حسب نبوؤات الكتاب المقدس لدى اليهود

والنصارى يتنبأ بوقوع حرب مدمرة آخر الزمان تنهي الحضارة والحداثة مثل حرب هرمجدون وكذلك في نبوءات النبي ﷺ فيه إشارات [1] لوقوع معارك مدمرة مثل الملحمة الكبرى.

وكذلك أحاديث آخر الزمان التي تشير إلى حروب بين المسلمين والدجال وغيره تكون بالأسلحة القديمة البدائية السيف والرمح واستخدام الخيول وما إلى ذلك من أسلحة وأدوات عفا عليها الزمان، وجاءت الحضارة الحديثة لتحجب تلك الأدوات والأسلحة ثم تظهر مرة أخرى بانتهاء وتدمير تلك الحضارة الحديثة ولا يكون ذلك إلا باستخدام السلاح النووي المدمر وغيره الكثير، فكل دولة كبرى تخفي أسلحة الدمار الشامل عن خصومها.

نسأل الله السلامة، والله تعالى أعلى وأعلم وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

المؤلف

* * *

1- اقرأ كتابنا: «هرمجدون ونهاية أمريكا وإسرائيل» وفيه الكثير من النبوءات التي حوتها كتب اليهود والنصارى، الناشر: دار الكتاب العربي، دمشق/ القاهرة.

أهم المراجع والمصادر

1. القرءان الكريم.
2. صحيح البخاري.
3. صحيح مسلم.
4. مسند الامام أحمد بن حنبل.
5. سنن الترمذي.
6. سنن ابن ماجه.
7. تفسير ابن كثير.
8. تفسير الطبري.
9. تفسير الشيخ الشعراوي.
10. تاريخ الطبري.
11. البداية والنهاية لابن كثير.
12. بحر العلوم لأبي الليث، نصر بن محمد السمرقندي.
13. معالم التنزيل، لأبي محمد الحسن بن مسعود البغوي.
14. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية.
15. تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير.
16. الجواهر الحسان في القرآن، لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد الثعالبي.
17. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للحافظ جلال الدين بن أبي بكر عبد الرحمن السيوطي.
18. فتح القدير، الجامع بين فَنَّيْ الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني.
19. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي.

20. الكشاف عن حقائق التنزيل - الزمخشري.
21. مفاتيح الغيب - فخر الدين الرازي.
22. الجامع لأحكام القرآن - القراطبي.
23. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - الآلوسي.
24. التحرير والتنوير، - محمد الطاهر بن عاشور.
25. محاسن التأويل - القاسمي.
26. أنوار التنزيل وأسرارالتأويل - القاضي عبد الله البيضاوي.
27. مدارك التنزيل وحقائق التأويل - لأبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي.
28. لباب التأويل في معاني التنزيل - علاء الدين علي بن محمد الخازن.
29. البحر المحيط - محمد بن يوسف، الشهير بأبي حيان.
30. غرائب القرآن ورغائب الفرقان - نظام الدين بن الحسن النيسابوري.
31. المصحف المفسر - الأستاذ محمد فريد وجدي.
32. التفسير الوسيط - إصدار مجمع البحوث الإسلامية.
33. التفسير الحديث - محمد عزة دروزة.
34. التفسير الواضح - الدكتور محمد محمود حجازي.
35. الإمبراطورية الرومانية من النشأة إلي الانهيار - غانم حافظ.
36. الإمبراطورية الرومانية - باتريك لورو.
37. يبيريوس: ثاني الأباطرة الرومان تأليف: أشرف صالح محمد السيد.
38. تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسية والحضارى ... سيد أحمد علي الناصري.
39. خطط الشام، كرد علي.
40. رأفت عبد الحميد، الفكر السياسي الأوربي في العصور الوسطى، دار الطباعة والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة 2001.

41. محمود سعيد عمران، معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، بيروت 2005.
42. موريس بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى/ ترجمة علي السيد علي، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2005.
43. أشرف صالح محمد سيد، قراءة في تاريخ وحضارة أوروبا العصور الوسطى، بيروت: شركة الكتاب الإلكتروني العربي، 2008.
44. فتح العرب لمصر (1996). د. ألفرد بتلر، تعريب: محمد فريد أبو حديد. مكتبة مدبولي: القاهرة.
45. انهيار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها من أشهر ما كتب إدوارد جيبون عام 1788.
46. الإمبراطورية الرومانية - مصطفى العبادي.
47. انحلال الإمبراطورية الرومانية - دوارد جيبون.
48. اليهود في مصر عصريْ البطالمة والرومانية - عبد العليم مصطفى كمال.
49. تاريخ العالم الإغريقي: فوزي مكاوي.
50. تاريخ مصر في عصري البطالمة والرومان/ محمود إبراهيم السعدني.
51. كليوبترا - ملكة مصرية أم عاهرة إغريقية - مايكل كرانت.
52. الحروب الصليبية - وليم الصوري.
53. صلاح الدين الأيوبي جورجي زيدان.
54. حقيقة الحروب الصليبية - قاسم عبده قاسم.
55. تاريخ الدولة العثمانية العلية - إبراهيم بك حليم.
56. تاريخ العرب الحديث - تأليف: جميل بيضون.
57. تاريخ العرب المعاصر - تأليف: رأفت الشيخ.
58. تاريخ وقواعد الحضارية - تأليف: فرناند بروديل.

59. ستالينجراد: ملحمة العصر - تأليف: ف. تشويكوف.
60. في أصول التاريخ العثماني - تأليف: أحمد عبد الرحيم مصطفى.
61. أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها ابن الأبار.
62. الدولة الخوارزمية والمغول - حافظ حمدي.
63. قيام الدولة العربية الإسلامية - محمد جمال الدين سرور.
64. اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها - إدوارد جيبون.
65. جنكيز خان إمبراطور الشر - منصور عبد الحكيم.
66. هولاكو مارد من الشرق - منصور عبد الحكيم.
67. الدولة العثمانية من الإمارة إلى الخلافة - منصور عبد الحكيم.
68. تاريخ الجبرتى.
69. تاريخ الثورة الروسية (الجزء الأول) ليون تروتسكي.
70. سير غي سولوفيوف.تاريخ روسيا من أقدم الأوقات.
71. البربر عرب قدامى - محمد مختار العرباوى.
72. نيكولاي كارامزين تاريخ الدولة الروسية.
73. وكالة المخابرات المركزية كتاب حقائق العالم - روسيا.
74. روسيا وعالم الإسلام الروسي - البروفيسور روبرت لاند.
75. مواقع عديدة على شبكة الإنترنت.
76. تاريخ اليونان - محمد فهمي عبدالباقي.
77. تاريخ العالم الإغريقي - فوزي الشيخ.
78. دراسات في تاريخ وحضارة اليونان والرومان - حسين الشيخ.
79. وطن إيزيس: تاريخ العرب الصحيح - بير روسي.
80. قصة الحضارة - ويل دورانت.

81. مؤلفات عبدالرحمن بن عطية الجزائري -باللغة الفرنسية:
- العرب في أوربا قبل ميلاد المسيح.
- العرب أسلاف الغاليين.
- العرب حاضنو الكتب المنزَّلة الثلاثة.
- تاريخ الاستيطان العروبي في اليونان القديم.
- تاريخ العربية لغة العالمين.
- العرب والهندوأوربيون.
82. مدينة إيزيس - بيير روسي - ترجمة فريد جحا.
83. معجم الحضارات السامية - هنري عبودي.
84. الموسوعة الفلسطينية.
85. ملاحم وأساطير من أوغاريت - د. أنيس فريحة.
86. الموسوعة الحقبة الكلتية في التاريخ العربي - عبدالرحمن غنيم.
87. تحقيقات تاريخية لغوية - د. عبدالله الحلو.
88. السحر السلتي العملي - موري هوب (بالإنجليزية).
89. موسوعة العامية السورية - ياسين عبدالرحيم.
90. عشرة آلاف كلمة إنجليزية من أصل عربي - د. سليمان أبو غوش.
91. مضمون الأسطورة في الفكر العربي - خليل أحمد خليل.
92. التوراة جاءت من جزيرة العرب - كمال الصليبي.
93. ملامح في فقه اللهجات العربيات - د. محمد بهجت قبيسي.
94. معجم الأساطير - ماكس شابيرو وهاندريكس - ترجمة هنا عبود.
95. جروب داود - كمال الصليبي.
96. بنو إسرائيل لم يدخلوا فلسطين - زكي الغول.

الكاتب في سطور

- منصور عبدالحكيم محمد عبدالجليل.
- من مواليد القاهرة 1955.
- حاصل على ليسانس في الحقوق جامعة عين شمس 1978م.
- يعمل بالمحاماة والكتابة في الصحف والمجلات العربية والإسلامية له العديد من الإصدارات والأبحاث في الصحف والمجلات العربية والإسلامية واللقاءات على الفضائيات العربية وترجمت بعض كتبه للغة الإنجليزية والماليزية والأندونيسية والكردية.
- عدد الكتب التي صدرت له حتى عام 2014 «171» كتابًا متنوعًا أثْرت المكتبة العربية والإسلامية.

ومن بين تلك الكتب التي صدرت للكاتب:

- السيناريو القادم لأحداث آخر الزمان.
- نهاية العالم وأشراط الساعة.
- عشرة ينتظرها العالم.
- تنبؤات نوستراداموس ومخططات اليهود.
- يأجوج ومأجوج من البدء حتى الفناء.
- البداية فتن والنهاية ملاحم.
- أقدم تنظيم سري في العالم.
- العالم رقعة شطرنج.
- من يحكم العالم سرًّا؟.
- أسرار الماسونية الكبرى.
- أوراق ماسونية سرية للغاية.
- العراق أرض النبوءات والفتن.
- الإمبراطورية الأمريكية - البداية والنهاية.

- نيويورك وسلطان الخوف.
- بلاد الحجاز معقل الإيمان آخر الزمان.
- بلاد الشام أرض الأنبياء والنبوءات.
- الفراسة في معرفة الآخرين.
- ازدراء وإيذاء الأنبياء.
- المهدي في مواجهة الدجال.
- الحرب السابعة ونهاية اليهود.
- هرمجدون ونهاية أمريكا وزوال إسرائيل.
- السفيانى صدام آخر على وشك الظهور.
- إسرافيل وأهوال القيامة.
- مؤامرات وحروب صنعتها الماسونية.
- عزرائيل ملك الموت.
- حكومة الدجال الماسونية الخفية.
- الشيطان إبليس وصراعه مع الإنسان.
- صلاح الدين المنقذ المنتظر.
- هلاك الأمم من قوم نوح إلى عاد الثانية.
- جنكيز خان إمبراطور الشر.
- هولاكو مارد من الشرق.
- مالك خازن النار - النار وأهوالها.
- عرش إبليس ومثلث برمودا.
- هل الشعراوي متطرف يا إبراهيم؟!
- نهاية العالم قريبًا.
- نهاية دولة إسرائيل سنة 2022.
- الحرب العالمية الثالثة قادمة.

- المهدي المنتظر.
- نهاية ودمار إسرائيل وأمريكا.
- بيوت الرسول وبيوت الصحابة حول المسجد النبوي.
- رضوان خازن الجنة
- الحرب العالمية الأخيرة قادمة.
- دولة فرسان مالطا وغزو العراق.
- القرين العدو الحقيقى للإنسان.
- الثالوث الغامض..قارة أطلانتس ومثلث برمودا والأطباق الطائرة.
- عالم السحر والسحرة والمسحورين.
- أصحاب البروج في مواجهة أصحاب الكهوف.
- السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين المحترمين.
- تيمورلنك إمبراطور على صهوة جواد.
- مصطفى كمال أتاتورك ذئب الطورانية الأغبر.
- الحجاج بن يوسف الثقفي طاغية بني أمية.
- عمرو بن العاص داهية العرب.
- خالد بن الوليد قاهر الأكاسرة والقياصرة.
- نهاية العالم قريبًا.
- النساء المبشَّرات بالجنة.
- جهنم في الديانات السماوية.
- حرب الفيروسات ونهاية العالم.
- سلالات وعائلات ومنظمات تحكم العالم.
- بروتوكولات حكماء صهيون والمخططات الماسونية.
- التمهيد الأخير لظهور الدجال.
- الدجال في مواجهة الوحي الإلهي.

- المسيح في مواجهة الدجال.
- هارون الرشيد الخليفة المفترىٰ عليه.
- السلطان قطز وعين جالوت.
- بر الوالدين وعقوقهما وصلة الأرحام.
- أبناء في الجنة وآباء في النار.
- يوم الحشر وأهوال القيامة.
- عالم الملائكة الكرام.
- مشاهير وعظماء اغتالتهم الماسونية.
- هاروت وماروت بين الحقيقة والخيال.
- الماسونية والثورات الشعبية بين الحقيقة والافتراء.
- جنود الله من البعوضة إلى الفيس بوك.
- الصحابة تسأل والله تعالى يجيب.
- الشرق الأوسط في نبوءات الكتب المقدسة.
- مثلث برمودا مقبرة الأطلنطي.
- حوار مع صديقي عن الماسونية..
- قصة أبينا آدم من الطين إلى الجنة.
- الدولار الأمريكي الشفرة المقدسة للنظام العالمي الجديد.
- لعبة المتنورين والنظام العالمي الجديد.
- آل روكفلر تجار الموت وأعوان الدجال.
- الدولة العثمانية وسلاطين بني عثمان.
- طوفان نوح العظيم.
- السلطان سليمان القانوني وحريم السلطان.
- الشام على أعتاب النهاية.
- عبد الله بن سبأ مؤسس الماسونية في الإسلام.

- الملك النبي سليمان عليه السلام.
- الملك البابلي نبوخذ نصر.
- الملك النمرود أول جبابرة الأرض.
- الملك ذو القرنين.
- الكشكول صندوق المعرفة.
- معاوية بن أبي سفيان.
- الماسونية - سؤال وجواب.
- السلطان العاشق.
- القبيلة الثالثة عشرة تحكم إسرائيل والعالم
- أسرار سورة الإسراء وبنو إسرائيل
- ظهورات المسيح الدجال عبر العصور.
- حديث الفتن والثورات.
- ظهورات الشيطان عبر العصور.
- التلاعب بالعقول عبر العصور.
- الفراسة والنساء.
- الحقيقة والباحثون عن الحقيقة.
- داعش مارد العصر الأخير.
- قبضة الشيطان.
- الشيطان أمير العالم.
- عصر الخداع آخر العصور آخر الزمان.

وكتب أخرى متنوعة تطلب جميعها من دار الكتاب العربي «دمشق - القاهرة» والمكتبات الكبرى بسوريا ومصر والعالم العربي.

الفهرس